0112052680
COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0112052680
BUTLER STACKS

DATE DUE

	201-6503		Printed in USA

لجنة نشر المؤلفات التيمورية

حلية الطراز

ديوان عائشة التيمورية

مع القصائد التي لم يسبق نشرها

مقدمات

للأميرة قدرية حسين
وخليل ثابت باشا
ومحمود تيمور بك
والدكتورة سهير القلماوي
والدكتورة بنت الشاطئ
وأحمد كمال زاده

ودراسات مستفيضة:
لفقيدة الأدب النابغة الآنسة مي

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥٢

لجنة نشر المؤلفات التيمورية

123

حلية الطراز

ديوان عائشة التيمورية

مع القصائد التي لم يسبق نشرها

مقدمات
للأميرة قدرية حسين
وخليل ثابت باشا
ومحمود تيمور بك
والدكتورة سهير القلماوي
والدكتورة بنت الشاطئ
وأحمد كمال زاده

ودراسات مستفيضة:
لفقيدة الأدب النابغة الآنسة مي

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥٢

PJ
7810
.I8
A17
1952

حقوق الطبع محفوظة للجنة

الطبعة الأولى
سنة ١٩٥٢

الإهداء

إلى ذات النُبل والشرف وَربة الشِعر والبيان

ورَمز الرفعة ومضاء العزيمة والهِمة

حضرة صاحبة السمو السلطانى

للأميرة قدرية حسين

حضرة صاحبة السمو السلطانى الأميرة قدرية حسين

تحية وتقدير

بقلم الكاتبة الشاعرة الناثرة حضرة صاحبة السمو السلطانى

الأميرة قدرية حسين

شهدت المحافل الأدبية والمجامع العلمية لحضرة « صاحبة السمو السلطانى الأميرة قدرية حسين » بكثرة الإنتاج فى شتى الشئون العلمية والفنية والأدبية ، باللغات التركية والفرنسية والعربية ، حتى ارتفع صيتها واشتهر أمرها فى الشرق والغرب على السواء ، مما دل على سعة علمها ووفرة اطلاعها .

وقد تفضلت « سموها السلطانى » فأولت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » عنايتها ورعايتها ، وتكرمت بالكلمة النفيسة التالية ، وقد ضمتها نفحة من نفحاتها عن بعض النواحى التى تعرفها عن صاحبة هذا الديوان المغفور لها « السيدة عائشة التيمورية » تقديراً من سموها لجهادها الأدبى وتمجيداً لذكراها العطرة .

ولا يسع اللجنة إلا أن ترفع لمقام سموها السلطانى ، أخلص آيات الشكر على ما أولتها من تشجيع ورعاية .

« اللجنة »

إنه لشرف عظيم لى يبعث فى نفسى كثيراً من دواعى الغبطة والسرور ، أن أحاول — فى هذه السطور — تقديم تلك الشاعرة الكبيرة « السيدة عائشة التيمورية » التى لم يسعدنى الحظ برؤيتها أو التعرف شخصياً إليها ، نظراً لتفاوت السن واختلاف الجيل ، ومن هنا كانت المهمة التى ألقيت إلىّ للقيام بهذه المقدمة ، مهمة شاقة ، ولكنها كانت — مع ذلك — محببة إلى نفسى .

إن الفترة التى عاشت فيها هذه الشاعرة ، تتراءى بعيدة عنى ، لكن فنها الرفيع الذى سطع على جنبات الوادى فى القرن التاسع عشر ، وعرائس شعرها التى كانت ترسلها شعاعاً وهاجاً ونوراً هادياً ، كل ذلك كان نبراساً ساطعاً كما مصر حلة من الضياء اللامع :

كانت «السيدة عائشة التيمورية» على جانب كبير من الثقافة والذكاء، وكانت موضع إعجاب جميع المحيطين بجو علمها الغزير، وإن والدتى — وكانت إذ ذاك فى مقتبل العمر — ما زالت تذكرها إلى الآن، فكثيراً ما كانت هذه الشاعرة المجيدة تأتى إلى سراى عابدين لزيارة جدتى — ثالثة الأميرات — وكانت تكِنُّ « للسيدة عائشة » كل تقدير وإعجاب.

وإنه ليؤسفنى حقاً ألا أجد بين يدىّ من البيانات والتفصيلات ما يساعدنى على أن أحيط — إحاطة كافية — بجميع النواحى الدقيقة لهذه السيدة الشاعرة، نظراً لندرة المؤرخين وقصورهم فى ذلك العهد؛ فقد كانت النساء — ولا سيما الشاعرات منهن والمؤلفات — يعشن فى جو من التحفظ والحجاب.

ولكن الذى أعلمه تماماً أن والدتى انقطعت عن رؤية هذه الشاعرة منذ انتقال « الخديو إسماعيل » إلى « إيطاليا ». واستمرت هذه الفترة إلى أن تزوجت والدتى من الأمير « حسين كامل » وعادت إلى « مصر »، فعادت « السيدة عائشة » إلى مقابلتها بسراى الجيزه حيث تعددت زياراتها، تحمل معها فى كل مرة تحفة من روائع شعرها ورفيع أدبها. ولن أتردد فى القول بأننا جميعاً كنا — وما زلنا — نحمل لهذه السيدة — التى لم نجمها فكانت فريدة عصرها — أعطر الذكرى وأبلغ التقدير.

إن معلوماتى التى اكتسبتها بالسماع عن هذه السيدة — وإن تكن ضئيلة جداً — تشعرنى إلى الآن، بمدى تأثير شخصيتها الفذة على جميع الذين أسعدهم الحظ بتتبع خطواتها الموفقة فى حياتها السعيدة التى كان يغمرها النور والعرفان.

فليس من شك فى أن «السيدة عائشة التيمورية» سبقت إلى مجد أدبى خالد، وليس بين المثقفين فى الشرق العربى، بل فى الشرق كله، من يجهلها أو يجهل أثرها فى الشعر العربى والتركى والفارسى.

وليس من المستطاع تقدير « السيدة عائشة التيمورية » حق قدرها إذا لم نتمثل ذلك العهد الذى عاشت فيه، وتمكنت من أن تفرض نفسها عليه، متخطية جميع

العواتق والعراقيل ، نافذاً بصرها بين أطباق الظلام . فعلينا أن نزن هذه الشاعرة الجليلة بميزان يعرف كيف يقدر ما بيننا و بين الجيل الماضى من تفاوت ، وما كان يغشى المرأة وقتئذ على وجه خاص من أستار .

ولا ريب فى أن الناقد الأدبىّ حين يتعرض لتمحيص ديوان « السيدة عائشة التيمورية » فى اللغة العربية ، يجب عليه أن يوازن بين شعر هذا الديوان وما كان يجرى عليه الشعر العربى فى ذلك الحين الذى عاشت فيه الشاعرة ، فإذا عقد الناقد هذه الموازنة الدقيقة وجد فى شعر التيمورية مثلا قوياً رائعاً من بلاغة الشعراء فى ذلك العصر الذى يعد فجراً للنهضة الأدبية بعد ركود طال أمده .

و إن عواطف التيمورية فى شعرها كله تكشف عن نفس زكية تتراءى فيها المشاعر الرقيقة والنزعات النبيلة ، كما يتجلى فيها كذلك العنصر الكريم الذى أنبتها نباتاً حسناً ، وتعهدها تعهداً صالحاً ، حتى استطاعت أن تتوهج فى أفق الأدب ذلك التوهج الذى كتب اسمها فى سجل الخلود .

و إذا كانت المرأة المصرية الآن قد مهدت لها وسائل التزود من الثقافات على اختلاف ألوانها ، وفسح لها مجال التفوق والتبريز ، فسيبقى دائماً لاسم « السيدة عائشة التيمورية » شرف السبق إلى نور المعرفة ، واقتطاف أزاهير الأدب ، فى عصر تعذرت فيه الوسائل وضاق المجال ، وستظل ابنة القرن التاسع عشر فخراً لبنات القرن العشرين وما يلحق به من العصور .

قدرية حسين

مقدمة

بقلم خليل ثابت باشا

رئيس لجنة نشر المؤلفات التيمورية

أنجبت الأسرة التيمورية فى من أنجبت سيدة كانت فى عهدها زهرة من زهرات المجتمع ، ومثلا عاليا للمرأة المصرية الطامحة إلى المجد والعلا ، حتى بلغت أوج الشهرة فى جميع آفاق الشرق .

هذه السيدة هى عائشة التيمورية ، شقيقة العلامة المحقق المغفور له أحمد تيمور باشا وهو الذى تضطلع لجنة نشر المؤلفات التيمورية بنشر مؤلفاته خدمة للثقافة العربية . كما تعنى بنشر الروائع من آثار الأدباء من فروع الدوحة التيمورية المباركة .

نشأت السيدة الراحلة عائشة التيمورية — طيب الله ثراها — فى بيت كل من فيه ينشد العلم ويميل إلى الشعر والأدب ، فكانت روحاً شاعرية تبث فى النفوس النشوة الفنية من طيب المعنى وحلاوة السبك وجمال النظم .

كانت أمها تريد أن تنصرف ابنتها إلى أشغال الإبرة والتطريز وتعنفها كلما رأتها راغبة عن تعلم شؤون الفتاة منصرفة بكل حواسها إلى درس الأدب وقرض الشعر ، ولكن أباها مهد لها السبيل وبث فيها روح الجد والاجتهاد ، فوصلت إلى غايتها من العلم والمعرفة ، وبلغ من فرط ذكائها وقدرتها وكفايتها وهمتها : أنها كانت تنظم الشعر بالعربية والفارسية والتركية ؛ وهى اللغات التى كانت تتقنها وتجيدها فبزت بنات جيلها فى عهد المغفور لهما الخديو إسماعيل والخديو توفيق وفاقتهن بما رسخت فى النظم قدمها ، وعلت فى الكتابة مكانتها ، بلا تكلف للفظ ولا تصنع للعبارة ، بل كانت تجرى فى كل ما تكتب على نحو من السهولة وحسن الصوغ .

فلجنة نشر المؤلفات التيمورية — وهى تقدم بين يدى القارئ الكريم هذا الديوان لتلك الشاعرة المجيدة — ترجو أن يصل الماضى بالحاضر فيطلع أبناء جيل اليوم على إنتاج زعيمة من سيدات الجيل السابق ، وما بلغته من علم وأدب وفن وشجاعة بما هو مأثور عن أفراد الأسرة التيمورية الذين خطوا خطوات كبيرة موفقة فى مناحى الحياة العلمية والأدبية ، فكان لهم جميعاً الفوز فى بلوغ الغاية التى ينشدونها ، حتى خلد التاريخ أعمالهم وسجل لهم النجاح فى خدمة العلم والأدب .

وقد اختارت اللجنة أن تصدّر هذا الديوان بمقال نفيس لحضرة صاحبة السمو السلطانى الأميرة قدرية حسين الكاتبة والشاعرة الذائعة الصيت ، أطال الله عمرها .

ورأت اللجنة أن تقدم بين يدى الديوان دراسة ممتعة للشاعرة بقلم الكاتبة المشهورة المرحومة الآنسة « مى » — وقد نشرت تباعاً فى مجلة المقتطف الغراء .

ومما تجمل بنا الإشارة إليه هنا أن المرحومة « مى » كتبت فى أثناء هذه الدراسة تقول : « شهادة سمعتها عرضاً من العلامة المحقق أحمد تيمور باشا ، وهى قول المغفور له السلطان حسين كامل لسعادته : إنه يفكر فيه كلما رأى ابنته قدرية تقرأ فى ديوان عائشة التيمورية » .

وكذلك تفضل الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك العضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية فكتب لهذا الديوان كلمة رقيقة يتحدث فيها عن ذكرياته لعمته السيدة عائشة التيمورية ، وتفضل الأستاذ أحمد كمال زاده حفيدها ، بكلمة مناسبة عن جدته .

وتفضلت كل من الدكتورة « سهير القلماوى » والدكتورة « بنت الشاطىء » فاشتركتا فى تسجيل آرائهما فى موضوع هذا الديوان . . . فضمت اللجنة كل ذلك إلى هذه الطاقة العطرة من الأزاهير . ونحن نرجو أن يكون فى ذلك ما يكشف عن نواحى شخصية هذه الشاعرة ومقامها فى العلم والأدب .

هذا وقد طبع « ديوان السيدة عائشة التيمورية » قبل الآن غير مرة ، وكانت

القصائد فيه غير مرتبة ولا مبوبة ، فتفضلت الدكتورة « سهير القلماوى » — مشكورة أجزل الشكر — بترتيب قصائد الديوان ، وجعلها أبواباً ، متبعة فى وضع هذه الأبواب الطريقة التى سلكتها المغفور لها « مىّ » فى دراستها للشاعرة ، ومن ثم جاء تقسيم القصائد وتبويبها موافقاً للنهج الذى جرت عليه الدراسة .

وقد عثرنا فى آثار العلامة المرحوم « أحمد تيمور باشا » شقيق الشاعرة على إضمامة أوراق كتب عليها أنها قصائد للسيدة عائشة التيمورية لم تنشر فى الديوان المطبوع . فلما تصفحنا هذه القصائد ألفينا أكثرها مكتوباً بخط الشاعرة الراحلة ، وكأنها كتبت هذه القصائد لنفسها كتابة أولية ، أو كأنما هى مسودات نوت الشاعرة أن ترجع إليها ، لضبط الوزن ، وإحكام اللفظ ، وما لا بد منه من تعديل وتبديل قبل عرض القصائد على الناس ، وإعدادها للنشر . وكذلك لاحظنا أن هذه الأوراق تستغلق فيها بعض الكلمات والحروف ، لسرعة الكتابة ، وللترخص والتجوّز فى إجراء القلم ، ولاختلاف قواعد الإملاء بين كتابة الأمس وكتابة اليوم .

وحرصاً منا على ألا تضيع هذه المخطوطات ، ورغبة فى إكمال الديوان بقدر المستطاع ، تخيرنا من القصائد المخطوطة ماتيسرت قراءته ، وما أمكن ضبطه ، منبهين إلى ذلك فى مواضع المخطوط من الديوان ، مشيرين إلى مواطن التغيير والإصلاح .

وقد تولى ذلك العمل الأستاذ « محمد شوقى أمين » المحرر فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية والعضو باللجنة ، فراجع الديوان المطبوع على أصوله ، واستدرك ما كان فيه من أغلاط الطبع ، وحقق القصائد المخطوطة فى أوراقها ، وضبط من الكلمات ما استوجب الضبط ، وكتب التعليقات فى حواشى الصفحات ، وصحح تجارب الكتاب كله ، وبذل جهده فى أن يخرج الديوان فى هذه الحلة التى يتجلى فيها .

ولعلنا بهذا العمل قد بلغنا ما نرمى إليه من إحياء ذكرى الشاعرة « عائشة التيمورية » ومن إهداء ديوانها الحافل إلى الناطقين بالضاد فى الشرق والغرب ؟

خليل ثابت

رئيس اللجنة

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

عمتى

بقلم حضرة صاحب العزة الكاتب الكبير محمود تيمور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

إليك يا عمتاه أحبر هذه الأسطر القلائل ، محاولا فيها أن أبتعث من غياهب الماضى السحيق ذكريات ما أعزها علىّ ، وأن أستشفّ من خلال الأمس المطوى صوراً حبيبة ترف إليها العين ويخف القلب . . . وإنك لتتراءين لى فى هذه الصورة تحف بك مهابة ، ويلوح عليك إشراق .

أحق أنى أبتعث منك أطيافاً وذكريات ، وأستثير صوراً وخيالات ؟ أم الحق أن روحك الحىّ الخالد يرفرف حوالىّ ، وأنى ما زلت أتلقى نفحات ذلك الروح فى توهجه العلوىّ ؟ .

مهما يكن من أمرى معك ، فى حياتك و بعد مماتك ، حقيقة كنتِ أو خيالا ، رسماً أنتِ أو ذكرى ، طيفاً تجليتِ أو نفحة روح — فقد استشعرتُ دائماً وجودك بجانبى ، تطالعيننى فى مختلف أطوارى ، وتسايرينى من حيث أدرى ولا أدرى ، فتكونين لى نعم الصاحب الأمين .

منذ النشأة الأولى وأنا أستمد منك العون فى ذلك الجانب المرموق من حياتى ، جانب النزعة الأدبية التى أعتز بها وأغالى ، فلأنت الآخذة بناصرى فى طليعة من كان لى عوناً من أب وشقيق وصديق .

ما برحتُ أذكر وقفاتك عندى ، وأنا فى طفولتى ، على سرير مرضى ، تُعنَين بأمرى ، وتواسيننى فيما أجد من ضيق ، وما أقاسى من أوجاع .

وليس يبرح مخيلتى طيفك المأنوس صبح العيد ، جالسة فى حجرتك ، تستقبلينا نحن ضيوفك الأحبّاء الصغار ، فتشغلين أيدينا بما لذ من الحلوى وما راق من اللعَب ، ثم تمسحين على رءوسنا فى فرحة وتحنن ، داعية لنا بعافية موفورة ، وعمر طويل . . .

إنى لأتمثل الآن ، وأنا فى شيخوختى الواهنة ، تلك اللمسات الوادعة من أناملك الرقاق ، فأشعر من فورى ببهجة الطفولة وصفائها يعاودانى ، وكأنى بين يديك أسمع وأرى ! .

ولقد كانت قصائدك يا كورة ما قرأت وما حفظت ، فما أنسى يوم أقبل علىّ أبى يدفع إلىّ ورقة خط فيها أبياتا ضبطها بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال لى : اقرأ . . . فأطعت ، متمهلا فى القراءة ، خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابى وبعصمتى أسمـــو على أترابى

وواصلت تلاوتى ، وعن يمينى أبى ، يرنو إلىّ ، وهو يصوب الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . . . وهكذا تلقيت من شعرك أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة من مكارم الأخلاق ! .

وأذكر أننا نحن الأشقاء الثلاثة ، كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نتسلى بالترنم بها فى نشوة وابتهاج .

والتزم أبى أن يملى علىّ من قصيدك فيما يختار لى من أشتات المنظوم والمنثور ، فتجمّع فى كُنّاشتى الصغيرة كثير من شعرك ، يزاحم : « قفا نبك . . . » وقصص « بيدبا » ، وما إلى ذلك من فرائد الأدب وعيونه .

وعلى الرغم مما كان لقصائدك من مكانة كريمة علىّ ، وما كان لها من أثر بالغ فى نفسى ، فإنها كلها قد تضاءلت وتخلفت يوم أملى علىّ أبى مرثيتك لابنتك التى تقولين فيها :

إن سال من غرب العيون بحور فالدهر باغ والزمان غـــدور
فلكل عين حق مدرار الدما وبكل قلب لوعـة وثبـــور

لقد أطال أبى حلوســه إلىّ ، وهو يمليها علىّ ، حتى ملأت صفحتين كاملتين ، دون أن يضيق هو بالإمـلاء ، ودون أن أجد فى نفسى لذلك ملالة . . . وفى هذه المرة لم يلق أبى صعوبة فى الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات قصيدتك تنساب فى وجدانى انسيابا ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفىّ ! .

أ كنت أفقه معانى هذه القصيدة حقا ؟ لم أ كن يومئذ لذلك أهلا ، ولـكننى أحببت القصيدة ما وسعنى أن أحبّ ، وزاد بها وَلوعى يوماً بعد يوم ، إذ أثارت بين جوانحى — جوانح الصبىّ الغرير — مشاعر دفينة ، فاتخذت منها لحناً شجيا تطيب به نفسى كلما أَسمَعْتُهُ نفسى ! .

بهذا تعلمت منك يا عمتاه فى مطلع أيامى أن الأثر الفنى الحق يقدّر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ، قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول والأذهان ، فالفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت مداركهم صدى فى الأفئدة ، وتجاوباً فى المشاعر .

رحمتاً لك أيتها العمة ... لقد كتبتِ قصيدتك هذه بذوب مهجتك التى أدماها الجرح ، فكانت صورة الشعور الحزين ، ولحن الألم العميق ، تردده الإنسانية الشقية حين يرميها القدر بحظ عاثر ، ورزء فاجع . . . ومن ذا الذى لا يعرف الألم ؟ ومن ذا الذى لا تترنح عاطفته لتلك النغمة الصادقة الصادرة عن محبـة و إخلاص ، نغمة الأنين والحنين ؟ وهل يختلف فى ذلك أطفال وشبان وشيب ؟ وهل تتباين فيه الفطن والعقول ؟ إننا بشر، نهتف من أعماق قلوبنا لِلَحْنِك الخالد خلودَ العاطفة بين جنوب البشر ! .

زادتنى قصيدتك هذه بكِ قربا ، وملأت نفسى لك حبا ، وكيف لا وقد استطعتِ أن تـكشفى لى ، وأنا على شاطىء هذا البحر الخضم ، بحر الحياة العصىّ ، ما يدّخره الموج الملتطم بين طواياه من فنون المآسى والأحـداث . وأن تبصرينى ، ولما أزل قريبَ النظر ، ببعض ما يحجبه الأفق الجهم العريض من حقائق هذا الوجود ، تلك الحقائق التى يحيا الناس منها فى غفلات .

فسلام عليك ليومٍ كنتِ فيه قبساً لى أهتدى به فى مطلع الحياة . . .

وسلام عليكِ لهذا اليوم الذى ألتمس فيه من نجواك مايعطر حياتى من حولى . . .

سلام عليك فى دار السلام !

محمود تيمور

جدّتى

عرض وتحليل

بقلم حفيدها الأستاذ أحمد كمال زاده

حيا الله ذكرى السيدة « عائشة تيمور » .

إنى لذاكر فضلها علىّ ما حييت . إذ حبتنى بعطفها وحنانها وأنا يافع أجتاز سن المراهقة ، وكان لها عظيم الأثر فى تربية روحى وتنمية مداركى وأنا فى المدرسة الابتدائية أتعلم ، وما أجل إكبارى لهذه الشخصية البارزة التى حملت لواء الأدب غير هيابة . فكانت نجماً ساطعاً فى ظلام الحياة النسائية لذلك العهد البعيد .

وفى هذه العجالة التى أتحدث فيها عن جدتى ، أجمل حياتها إجمالا :

ولدت السيدة « عائشة عصمت التيمورية » بمدينة « القاهرة » فى قصر والدها فى « درب سعادة » القائم خلف دار « المحافظة » ، وهو من أحياء « قسم الدرب الأحمر » ، وكانت ولادتها فى سنة ١٢٥٦ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٠ م فى العهد الأخير من حكم العاهل المصلح ، مؤسس الأسرة العلوية المالكة « محمد على الكبير » ، وكانت وفاتها فى سنة ١٣٢٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٠٢ م ، (فى اليوم الثانى من شهر مايو) فى حكم الخديو « عباس حلمى الثانى » . فقضت فى هذه الحياة الدنيا نحو ٦٤ عاماً ، شهدت فيها تطور « مصر » فى عهد سبعة من حكامها : « محمد على ، و إبراهيم ، وعباس الأول ، وسعيد ،

وإسماعيل ، وتوفيق ، وعباس الثانى » . فعصرها حافل بجلائل الأعمال ، زاخر بمختلف النهضات التى هيأت لمصر حياتها الجديدة ، وهو يعد بحق : عصر تكوين مصر الحديثة .

وأصل الشاعرة تتقاسمه عناصر ثلاثة : كردى ، وتركى ، وجركسى . وذلك أنه كان من رجال الوالى « محمد على الكبير » رجلان من خلصائه ، أحدهما كردى ، وهو « محمد بك تيمور كاشف بن إسماعيل كرد بن على كرد ، من ضباط الجيش ، ومن الذين كانت لهم اليد الطولى فى استئصال شأفة المماليك ، وقد تدرج فى الترقى حتى تقلد منصب « محافظ » ، ومات سنة ١٢٦٢ هـ ، والآخر تركى ، وهو « عبد الرحمن افندى الإسلامبولى » تولى فى زمن السلطان « سليم الثالث » منصب رئيس كتاب الديوان الهمايونى . فلما جاء إلى « مصر » كانت له الحظوة عند الوالى « محمد على » حتى إنه حين مات أمر الوالى بدفنه بالقلعة بجوار ضريح « سيدى سارية الجبل » ، وقد تزوج « محمد بك تيمور كاشف » السيدة « عائشة خاتون » كريمة « عبد الرحمن افندى الإسلامبولى » فكان هذا الرجلان جدّى السيدة « عائشة عصمت التيمورية » .

أما والدها فهو « إسماعيل تيمور باشا » تقلب فى المناصب الرفيعة زماناً طويلا بين حكم الوالى « محمد على الكبير » ، وحكم « الخديو إسماعيل » ، وكان يجيد التحدث والكتابة بست لغات : التركية ، والعربية ، والفارسية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، والإيطالية ، ولذلك بقى فترة يرأس القلم الإفرنجى للديوان الخديوى ، وهذا المنصب يعادل الآن منصب « وزير الخارجية » ، وآخر مارقى إليه من الوظائف وظيفة الرئيس العام للديوان الخديوى .

وأما والدتها فجركسية الأصل .

وأما الشاعرة نفسها فمصرية المولد والنشأة والتربية والمقام .

درجت التيمورية فى مهد الرفعة والعز ، تكتنفها فخامة القصور ويحيط بها زهو

الألقاب ، ولـكنها أبت أن تحيا حياة فتيات عصرها بمنأى عن تثقيف العقل وتربية الروح ، فشبت نزاعة إلى العلم ، طلاعة إلى الأدب ، وكان لأبيها كل الفضل فى تشجيعها على بلوغ مأربها فى وقت يندر فيه أن يؤذن للنساء فى التزود من زاد الثقافة والتعليم .

وفى ذلك تتحدث الشاعرة عن نفسها ، فتقول :

« فلما أن تهيأ العقل للترقى ، و بلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلىّ ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والإتحاف ، والدتى تغمدها الله بالرحمة والغفران ، بأدوات النسج والتطريز ، وصارت تجد فى تعليمى ، وتجتهد فى تفهيمى وتفطينى ، وأنا لاأستطيع التلقى ، ولا أقبل فى حِرَف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأنهافت على حضور محافل الـكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ، وكنت ألتمس من شوق قطع القراطيس وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الأنام ، وأقلد الـكتاب فى التحرير ، لأبتهج بسماع هذا الصرير ، فتأتى والدتى ، وتعنفنى بالتكدير والتهديد فلم أزدد إلا نفوراً ، وعن هذا التطريز قصوراً ، فبادر والدى تغمد الله بالغفران ثراه ، وقال لها : دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، واحذرى أن تكثرى من الـكسر فى قلب هذه الصغيرة ، وأن تثلمى بالعنف طهرها ، وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفى فى سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى نتقاسم بنتينا ، فخذى « عفت » وأعطينى « عصمت » ، وإذا كان لى من « عصمت » كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لى بعد مماتى . وأخذ بيدى ، وخرج بى إلى محفل الـكتاب ورتب لى أستاذين ، أحدهما لتعليم اللغة الفارسية ، والثانى لتلقين العلوم العربية » .

وكذلك منّ الله على شاعرتنا بوالد يجمع بين القدرة والإدراك ، فأحسن توجيهها الوجهة التى طابت بها نفسها ، وجلب لها فى مطلع صباها أستاذين يتعهدانها هما : « ابراهيم افندى مؤنس » و « خليل افندى رجائى » ، فكان الأول يتولى تحفيظها

القرآن الكريم ، و يعلمها الفقه ، والخط . وكان الآخر يلقنها علمى النحو والصرف ، واللغة الفارسية . ثم ظهرت موهبتها فى نظم الشعر ، فمالت إلى مطالعة دواوين الشعراء ودرس أمهات كتب الأدب ، واستعانت ببعض أديبات النساء ، على دراسة علم العروض .

وبينما هى ماضية فى الدرس والاستذكار ، وقد أحسنت اللغات الثلاث : العربية والفارسية والتركية ، بوغتت بالزواج .

شغلت شاعرتنا ببيتها وزوجها عن متابعة نشاطها الثقافى ، ورزقت بأولاد زاد بهم شغلها ؛ وما زالت كذلك حتى شبت كريمتها « توحيدة » وكانت ذكية الفؤاد قوية الفطنة ، فألقت إليها الشاعرة زمام البيت تديره ، واقترن ذلك بوفاة والد الشاعرة سنة ١٢٨٩ ، ولحق به زوجها « محمد بك توفيق زاده » ناظر بيت المال ، إذ توفى سنة ١٢٩٢ . فأقبلت الشاعرة على الدرس والمطالعة ، وانصرفت إليهما كل انصراف ، وكان ميلها شديداً لعلم العروض وعلمى النحو والصرف ، فأخذت تتلقى هذه العلوم عن سيدتين : الأولى « فاطمة الأزهرية » والأخرى « ستيتة الطبلاوية »

وظلت الشاعرة تنظم القصائد والموشحات والأزجال ، باللغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية ، حتى اتسق لها ثلاثة دواوين ، فى كل لغة من تلك اللغات الثلاث ديوان ، وفيما هى تهم بنشرها فجعها القدر فى كريمتها « توحيدة » وهى من عمرها فى الثانية عشرة .

عظم حزن الشاعرة على فتاتها ، فلبثت مناحتها عليها سبع سنين ، حتى ضعف بصرها ، ورمدت عينها ، ولم تأنس بعد بالعيش ، فقضت أيامها فى وحدة ووحشة ، وانقطعت عن الشعر والأدب ، إلا مرثيتها لابنتها ، ووصفها لما تعانيه من تباريح الأسى ، وسوء الحال .

وجعل أولادها يعذلونها لطول حزنها ، وينصحون لها بالإشفاق على نفسها ، فاستمعت لنصحهم شيئا ، وشفيت عينها من الرمد الذى أضرّ بها ، وأقبلت على

آثارها الشعرية تنشرها . والفضل فى ذلك لولدها « محمود توفيق بك زادة » القاضى بالمحاكم الأهلية ، فلولا ما بذله من نصح وسعى لما فكرت شاعرتنا فى نشر شىء مما نظمته ، ولما وصل إلينا من آثارها ما وصل . وقد ألح عليها ولدها فى طلب مؤلفاتها ومنظوماتها باللغات الثلاث ، فأجابته بقولها :

«فى استطاعتى أن أنظم الآن شيئا من الشعر شكراً لله عز وجل على ماوهبنى من النعم ، أما أشعارى الماضية فقد أحرقتها ولا أظن أن فى مكتبتى منها إلا الشىء القليل بالعربية والتركية ، فأما شعرى بالفارسية فإنه كان فى محفظة فقيدتى ، وقد أحرقت محفظتها كما احترق قلبى عليها ، وإنى أهدى إليك ما عندى من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت ، وإن رأيتها جديرة بالطبع فاطبعها »

وقد بادر ولدها إلى إظهار ما بقى من آثارها ، فكان منها :

١ — ديوانها العربى المسمى « حلية الطراز » وقد طبع غير مرة .

٢ — ديوانها الفارسى المسمى « إشكوفة » وقد طبع بمصر والآستانة وإيران .

٣ — « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى رسالة فى الأدب ، طبعت بمصر وتونس .

٤ — « مرآة التأمل فى الأمور » ، رسالة فى الأدب ، طبعت بمصر .

وقد ألفت التيمورية رواية تمثيلية ، هى « اللقا بعد الشتات » وتركت رواية أخرى بخطها غير كاملة .

وأصيبت التيمورية بمرض أصاب المخ ، واستمر أربع سنوات ، لم تستطع معه مواصلة نشاطها الأدبى ، حتى قبضها الله إلى رحمته .

أحمد كمال زادة

عائشة التيمورية

بقلم الدكتوره سحير القلماوى

إذا كان ديوان عائشة شعراً حقيقاً بالدرس فإن حياتها هى أيضاً شعر حقيق بالدرس . شعر يصور تلك الفترة الجميلة من فترات حياة مصر وقد أشرق عليها نور فجر جديد ، وهى ما تزال تتمطى فى نوره كسلة متباطئة لم يسرع الدم فى عروقها بعد ولما تشغلها أعمال الحياة أو أعمال يومها ، فهى مازالت تنفى النوم والنور يضايق عينيها ، ومع ذلك هى مقبلة عليه مستبشرة به .

فتاة من أب تركى وأم معتوقة شركسية تمثل الطبقة الأرستقراطية فى ذلك العهد بكل ما فيها من تفاصيل . فالبيت الذى يرعى التقاليد إلى النهاية ، وتدور فيه الحياة على نحو معين من وراء المشربيات لا يرى أحد ما يدور فى البيت ولكن الذين هم فيه يرون الحياة من خلل الخشب المزخرف الجميل . وهم بهذا يمثلون روح العصر ، روح التطلع وحب التقدم ، ولكن الوقوف وقفة أخيرة مترددة قبل الإقدام .

و بيت لا يرى النور فيه واضحاً ، فالعلاقة بين الأبوين علاقة مبهمة مبنية على الاحترام أكثر ماهى مبنية على الحب والتفاهم ، والزوج لاينتظر من زوجه أكثر من مدبرة بيت ماهرة ، وهى بحكم ثقافتها وبيئتها لم تكن معدة لأكثر من هذا .

وهذه « عائشة » تثير النزاع بين الأبوين وتريد منها أمها أن تكون كسائر بنات جنسها ، ولكن الوالد يرى فيها هذه الومضة من العبقرية فيشجع و يأمر الأم ، والأم تطيع ، بأن يترك أمر عائشة كله إلى أبيها .

والهوة التى كانت تفصل بين الأمهات و بناتهن فى هذا العصر هوة سحيقة

بلا جدال ، فالطاعة عمياء والخوف هو المسيطر ، ولا تعرف الأم من أمر ابنتها إلا أنها مخلوق يعدّ لأن يرثها على أعمالها الكثيرة يوما ، ولكن لفترة وجيزة ، ثم تذهب إلى بيت آخر فتزداد العاطفة بينهما بعداً ، ولا يمليها إلا واجب قد يذهب إلى حد التعصب ، ولكنه دائماً أبداً الواجب لا العاطفة المتحررة التى ترمى بالبنت فى أحضان أمها تناجيها آلامها وما يصدمها أول ما تحتك بالحياة وتتفتح لها ولو كانت فى قفص من ذهب .

وحطمت « عائشة » بشعرها قيوداً فملأته عاطفة ورقت من أسلوبه ، ولكنها حطمت فى الحياة قيوداً أعنف وأشد أثراً ، فلقد ضربت بحياتها مثلا على أن العلم لايضر المرأة وإنما هو يرفع من شأنها ، وكتبت الشعر باللغات الثلاث ، بل كتبت الشعر الذى يعبر عن عواطفها تلك العواطف التى كان لايليق بالفتاة أن تبوح بها ، وإنما كان عليها أن تحب وتكره من وراء ستار ، أما أن تقول مايجول بخاطرها أو تصور خلجات نفسها فهذا ما لم تكن تستطيعه فضلا عن أنه لايقبل منها .

هذه عواطفها ، وهى تصور لنا كيف بدأت تنظم الشعر فتروى فيما كتبت عن نفسها حادثة تركها الزهور فى رعاية البدر لتلبى نداء أمها ولما عادت وجدت البدر لم يرع وديعتها فعاتبته وبكت على ما أصاب زهورها ، وعرضت الأبيات على والدها فشجعها ، ولو قد عرضتها على أمها لعاقبتها ، ولكنها منذ زمان قد بدأت تحس أن المعين لها على ماتريد هو ذلك الأب الذى يفهمها .

ومرة أخرى حطمت القيود وأحبت ابنتها حباً جعلها تقرب منها قرباً عجيباً ، لم تكن هى الأم الوحيدة التى لم يكن يفصل بينها وبين بنتها إلا سنوات قليلة من العمر لتبكيرهم فى تزويج بناتهم إذ ذاك ، ولكنها كانت فذة بلا جدال فى هذا العصر المتكتم المحتشم فى أن تجهر بهذا الحب وتتبع خطوات ابنتها بكل شغف واهتمام وكأنما قلبها قيثارة قد أسلمت أوتارها إلى فتاتها التى عرفتها معانى الأمومة والحنان أول من عرفت ، فراحت « توحيدة » تلعب بهذه الأوتار وأخرجت لنا من

رناتها الشاعرة « عائشة » أحلى النغمات ، حتى أراد القدر أن يفجعها فى تلك البهجة التى كانت تتنشقها كل يوم ، فإذا « توحيدة » تموت عروسة على وشك الزفاف . وإذا كان شعر « عائشة » يصور لنا عاطفة قوية قد هزتها حقيقة الحياة الكبرى حقيقة الفناء فإن نثرها أيضاً يصور تلك السماحة التى رسمت بها حياتها وعاشتها ، وهذه البساطة التى لاتعرف معنى للتكلف ، والصراحة التى لاتعرف طعما للتكتم ، وصورت هذه الفتاة لنا نموذجا من الخلق والجمال قد أحيط بهالة من العطف والحب والرعاية . وكأنما قد أرادت الأم بهذا الحب وتلك الرعاية أن تنتقم مما قد فقدت هى من رعاية أمها لها وحبها إياها .

يكفى التيمورية أنها استطاعت أن تتحلل من القيود وأن تطلق لروحها العنان فصورت لنا ذلك العصر من خلال حياتها الخاصة خير تصوير ، تزمت واحتشام ولكن حياة تغلى تريد أن تحطم القيود لتنطلق : هذا هو عصرها وتلك هى حياتها ولم تغفل فى تصويرها شيئاً ، لا ولا هذا المعين الذى كان شعاع النور وقد انبثق فى رؤوس خيرة المثقفين فى ذلك الوقت الذين أعانوا وساعدوا وضحوا وجاهدوا فى سبيل أن تتغلب الحياة على الموت والحركة على الركود ، ولقد كللت الجهود بالنجاح فى حياة مصر ، كما كللت جهود والد « عائشة » فى تثقيفها وتشجيعها لكى تخرج للوجود شاعرة ممتازة ، فلقد انبثق النور وسرت الحركة وأفاقت الحياة واستقبلت مصر عهداً من الحركة والنشاط فى شتى المرافق بل فى حياة نسائها وداخل بيوتهن أيضاً ، وقليلا قليلا فتحت النوافذ ، ودخلت الشمس تحمل فى شعاعها النور والحياة ، ومع النور والحياة نغم العصفور الذى استقبل الفجر وفرح به ورآه أول من رأى من وراء الأفق الرمادى لم ينقشع عنه الظلام بعد كل الانقشاع .

وهذا ديوان « عائشة » تغاريد الفجر وبشير النور لا يختلف كثيراً عن سائر تغاريد الطيور التى تغرد معه ، ولكنه ينفرد بلا جدال فى صوته الناعم الحنون لأنه كان صوت امرأة أى امرأة .

سهير القلماوى

الشاعرة

بقلم الدكتوره بنت الشاطئ

نشأت « عائشة » فى عز ونعمة ، فى بيت يعتز بالعلم ويرعى الأدب ، وكان أبوها — إسماعيل تيمور باشا — حريصاً على أن يجمع المجد من طرفيه : كرم المحتد ، وفخر العلم ، فشهدت فى طفولتها كبار الكتاب وأعلام الشعراء يجتمعون فى « صالون » القصر ، وصافحت أذنيها الصغيرتين روائع القصيد وآيات النثر العالى ، فانحرفت — بالرغم منها — عن الطريق المألوف ، واتجهت إلى الميدان الأدبى متأثرة بذلك الجو الذى كانت تعيش فيه ، ولقد كرهت أمها — وكانت جركسية عريقة فى الحريم — ذلك الانحراف . وحاولت ما استطاعت ، أن تردها إلى الطريق الذى تسلكه لداتها من فتيات الأسر ، وسليلات البيوتات الكبيرة . واتخذت هذه المحاولة صورة عنيفة حين أخذت الأم تمنعها من حضور مجلس الكتاب فى الصالون ، وترغمها على تعلم فن التطريز ، فازدادت الطفلة عناداً ونفوراً مما يراد لها ، وتعلقت بالممنوع فى شغف وحماس . فلما أوصدت الأم أبواب « الصالون » دونها ، واستحال عليها أن تروى ظمأها إلى حديث الشعر والفن ، نفرت من التطريز ، وهجرت أدواته ، وانزوت فى القصر محزونة متألمة ، تعانى أشواقا طاغية إلى الأدب ، ومجالسه ، واشتد عليها الأمر ، وأوشكت نضرة صباها أن تجف وتذوى ، فى تلك المعاناة الأليمة ، وذلك الصراع المرير ...

* * *

ثم كانت النجاة . . .

استثار مرأى « الطفلة الحزينة » عطف الأب الكريم ، فتدخل فى الصراع

المحتدم بينها وبين الأم ، وأنقذها من الوحشة والألم حين عاد بها إلى مجالس الأدب ، وأحضر لها اثنين من الأساتذة المعلمين يعلمانها القرآن الكريم ، والفقه ، واللغة الفارسية ، ثم اختار بعض الأديبات من النساء ، عندما ظهرت له بوادر نبوغها فى الأدب ، ولاحت مخايل براعتها فى نظم الشعر .

أقبلت « عائشة » على الدرس مشوقة متلهفة راضية مغتبطة ، وانصرفت إليه بكل حماسها ، وكل مواهبها ، وقد خيل إليها أنها تدنو من الأفق الذى رنت إليه من بعيد ، وأن الحلم الذى خايلها من فجر الصبا ، قد أوشك أن يصبح حقيقة واقعة ، فلن تلبث أن تنضم إلى موكب الشعراء ، وتغدو ندا لهؤلاء الأعلام ، الذين طالما أصغت إليهم مفتونة معجبة . وزهاها الفرح فرفعت عقيرتها تنشد :

بيد العفاف أصون عز حجابى ... وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحة ... نقادة ، قد كملت آدابى
ولقد نظمت الشعر شيمة معشر ... قبلى ، ذوات الخدر والأحساب

فجعلت مرآتى جبين دفاترى ... وجعلت من نقش المداد خضابى
كم زخرفت وجناتِ طرس أنملى ... بعذار خطٍ أو إهاب شبابى
ولكم زها شمع الذكا وتضوعت ... بعبير قولى روضة الأحباب

يا للطفلة المغرورة ، ذات « الفكرة الوقادة والقريحة النقادة ، وشمع الذكاء الذى أضاء ! » !!.

لقد نظمتْ الشعر إذن

أجل ، وأصغى الزمن ، وتهيأت الآذان لسماع البشرى بمولد « شاعرة » ، لكن الطبيعة أنكرت هذه النغمة الشاذة ! فما يرضيها قط أن تكون مرآة الفتاة « جبين دفاتر » وما تسيغ أن ترى أنامل أنثى مخضوبة « بالمداد » ، وما تعترف « بعبير القول » فى روضة حواء .

* * *

ومدت الطبيعة يدها ، فوضعت حداً لهذا العبث الصبيانى ، وذلك المسخ المنكر !

تزوجت الفتاة — قبل أن تتم دروسها فى العروض وتمرن على نظم الشعر — من أحد أشراف الترك ، وهى فى الخامسة عشرة من عمرها .

وطوتها الحياة الزوجية فى غمارها ، وشغلتها عن الشعر والإنشاد ، وملأت دنياها بزوج ، و بنين ، و بنات . . فانزوى الحلم الكبير فى ركن من قلبها .

وسكتت القيثارة التى بشرت نغماتها الأولى بمولد « شاعرة » .

وانصرفت الآذان التى كانت تحيط بالقصر متسمعة ، مترقبة .

وقيل : ضوء لم يكد يلوح حتى خبا ، ونجم لم يكد يبزغ حتى هوى وراح .

* * *

ومضت الأنثى مع تيار الحياة فى الطريق الذى سارت فيه من قبلها الأم حواء .

مضت تحمل وتضع ، وترضع وتفطم ، وتمرض وتربى ، فى ضجيج لا تكاد تسمع معه همس الحلم المنطوى فى أعماقها ، وفى اشتغال لا تكاد تشعر فيه بنفسها .

وظنت ، وظن الناس ، أن الحياة الزوجية قد قضت على الأمل الوليد .

ثم مضت الأيام ، والأعوام ، وخفت أعباء الأمومة نوعاً ، بفضل التجربة والمرانة والتعود ، وشب الصغار من البنين والبنات ، وزال بعض همهم ، فكان « لعائشة » شىء من الفراغ سمعت فيه أنين شوق مكبوت إلى الشعر والإنشاد !

* * *

وبدا لها ، فأمسكت القيثارة التى هجرتها أعواماً ، وقد غمرها شعور جارف مختلط مبهم ، من عواطف مضطربة متناقضة ، امتزج فيها اليأس بالحنين ، والخوف بالفضول . . . ومضت — فى تردد ، وحذر — تشطر هذين البيتين :

وليلى ما كفاها الهجر حتى أباحت فى الهوَى عرضى ودينى

فقلت لها : ارحمى الأمىّ ، قالت : وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟!

* * *

قالت :

و « ليلى » ما كفاها الهجر حتى أطالت فى دجى ليلى أنينى
وكلّ تجلدى بالصبر لما أباحت فى الهوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأمىّ ، قالت : كذا خط اليراع على الجبين
فدع قلق الصغار وكن صبوراً وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟ !

ثم أصغت إلى صوتها وهى ترتجف ، ولا تكاد تصدق أذنيها !

وعادت إلى القيثارة مرتابة تريد أن تستيقن ، فرددت :

و « ليلى » ما كفاها الهجر حتى أرتنى جرح قلبى بالعيون
وما قنعت بسفك دمى ولكن أباحت فى الهوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأمىّ ، قالت : بأمى قد بُليت . . فمن معينى ؟
أترحم فى الغرام وأنت صب ؟ وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟

فهزها العجب ، واستمرأت ما هى فيه ، وانثنت تغنى للمرة الثالثة :

و « ليلى » ما كفاها الهجر حتى أذاعت بعد كتمانٍ شجونى
وحين تبينت آيات وجدى أباحت فى الهوى عرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأمىّ ، قالت : جُننتَ ، وفى الهوى بعض الجنون
وهبنى كنت أمك كيف أحنو ؟ وهل فى الحب يا أمى احمينى ؟

كيف وقد هجرت الإنشاد ؟

كيف وقد حسبت أنها فرغت من ذلك الأمر ، وخرجت من دولة الشعر ؟

كيف وقد ظنت أن الحياة الزوجية قد شغلتها عن النظم والمنظوم . .

نعم هجرت الإنشاد وشغلتها حياة الزوجية والأمومة عن النظم ، لكنها أذاقتها من الأعباء والملذات والهموم ما هذّب حسّها ، وأرهف وجدانها ، وأنضج الموهبة الكامنة فيها .

وهكذا كان ذوقها الأدبى يرق ، وينمو ، ويصفو ، بفضل التجربة الكبرى : تجربة الأمومة والزواج . هكذا كانت موهبتها الفنية تزداد على الأيام قوة ونضوجاً ،

حتى إذا لاحت الفرصة وتهيأ الظرف ، بدت « الشاعرة » التى ظُنَّ أنها وئدت فى المهد ، وانبعثت نغماتها تحمل طابع الأنثى وتغنى للحب والحياة ، فى حرارة وتفان واستغراق :

حسبى من الحب ما أفضى إلى تلفى وما لقيت من الآلام والسقم

* * *

ملَكَ الفؤاد وقد هجر بدر المحاسن مذ ظهر
ما حيلتى فى حبه إلا الخضوع لما أمر ؟
واحيرتى فى حبه واطولَ شجوى بالخفر !
يا قلب حسبك ما جرى أحرقت جسمى بالشرر
رام الحبيب لك الضنى لِم ذا وأنت له مقر ؟
لكنّ تعذيب الهوى ما للشجِى عنه مفر !
ألق الوشاح وخلّنى أصلى سعيراً فى سقر
وعن العذار فلا تَسَلْ ولأنت أولى من عذر

بهذه الأغنيات العذبة ، ارتفع صوتها من وراء الخدر شادياً مترنماً ، وراحت أشواقها المكبوتة إلى الشعر تتنفس فى حرية وانطلاق ، لا يعقلها قيد ولا يقف دونها حائل ، وقد أينعت ثمار « البنوة » فأصبحت تبث فى عالمها النور والحياة وتملأ قلبها أمناً وغبطة وسلاماً .

* * *

لكن القدر لم يكن قد فرغ من قصتها بعد . . . كان ما يزال هناك فصل أخير يحيل به هذه الحياة الراضية مأساة ألمة .

مدَّ الموت يده إلى زينة دنياها ، فطوى « توحيدة » فتاتها الكبرى ، وأذاق « عائشة » الحزن الأكبر ، وعرفها طعم الثكل .

وكانت « توحيدة » عروساً فى الثامنة عشرة من عمرها ، فاهتز قلب « الشاعرة » لذلك الشباب الذى يزف إلى القبر ، وتمزقت كبد الأم وهى ترى تلك الفلذة الغالية ، تودع حفرة مظلمة ويهال عليها التراب ! !

كانت محنة قاسية مروعة ، لكنها خلقت شخصية فذة هى « الشاعرة الثكلى » . وأصغت الدنيا إلى أنينها الموجع ونواحها الحزين ، بل أصغى الفن إلى آيتها الكبرى ، تتجلى فى مرثيتها الرائعة ، التى تصف المشهد الفاجع لاحتضار العروس :

جاء الطبيب ضحى و بشّر بالشفا ... إن الطبيب بطبه مغرور
لمّا رأتْ يأس الطبيب وعجزه ... قالت ودمع المقلتين غزير :
أماه قد كلّ الطبيب وفاتنى ... مما أؤمل فى الحياة نصير
لو جاء « عراف اليمامة » يبتغى ... برئى ، لرد الطرف وهو حسير
أماه قد عزّ اللقاء وفى غدٍ ... سترين نعشى كالعروس يسير
قولى لرب اللحد : رفقاً بابنتى ... جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدى بإزاء لحدى برهة ... فتراك روحٌ ساقها المقدور
أماه قد سلفت لنا أمنية ... ياحسنها لو ساقها التيسير !
صونى جهاز العرس تذكاراً فلى ... قد كان منه إلى الزفاف سرور
أماه لا تنسى بحق بنوتى ... قبرى لئلا يحزن المقبور
فأجبتها والدمع يحبس مقلتى ... والدهر من بعد الجوار يجور
قد كنت لا أرضى التباعد برهة ... كيف التصبر والبعاد دهور ؟
ولهى على « توحيدة » الحسن التى ... قد غاب بدر جمالها المستور

* * *

ومضت سبع سنوات كوامل وهى لا تكف عن البكاء والنواح ، حتى كلّ بصرها وشاخت حياتها قبل أن تبلغ الأربعين ونفضت يديها بعد ذلك من الدنيا ، وعاشت للشعر والأدب تلقى على مسمع الدنيا أنات قلبها الثاكل ، وتملأ الأفق بأناشيد الحس المرهف ، والمزاج الرقيق ، والأنوثة الشاعرة :

كم قابلتنى ليال ريحها سـحر بطيئة السير ترمى بالشرارات
لاقيتها بجميل الصبر من جلدى و بت أسقى الثرى من غيث عبراتى
أقوم والضيم تطوينى نوائبه طى السجل ، ولم أسمعه أناتى
ولم أزل أشتكى بثى ومظلمتى لعالم الجهر منى والخفيات
فيالها من جراح كلما اتسعت أعيت طبيبىَ رغماً عن مداواتى

***

سلام على « عائشة » ، ؟

بنت الشاطىء
« من الأمناء »

صورة

المغفور لها الكاتبة القديرة الآنسة مي

سجلناها تقديراً للكلمة الشاملة البليغة التي ضمنتها دراستها

لصاحبة الديوان المغفور لها السيدة عائشة التيمورية

كاتبة تقدم شاعرة

[آثرنا أن نصدر ديوان « عائشة » بكلمة الكاتبة النابغة الآنسة « مى » فى شخصيتها وشاعريتها تذكاراً للراحلتين واعترافا بمكانتيهما رائدتين للأدب النسوى فى الشرق العربى : « عائشة » بعاطفتها وشاعريتها ، و« مى » بقلمها وفكرها].

(١)

البارق فى الظلام

دعتنى جمعية « فتاة مصر الفتاة » فى الشتاء الماضى إلى إلقاء محاضرة على أعضائها فى الجامعة المصرية ، فوعدتُ . وخطر لى أنَّ خير موضوع أتخذهُ هو شخصية نسائية غنيَّة ندرسها معاً ، فتعرضُ لنا فى سياق البحث موضوعاتٌ جمة فى الأخلاق والأدب والاجتماع نمحّصها قدر المستطاع ، بينما نحن نرسم من المرأة صورةً شيِّقةً ، فنُسجّلُ للحركه النسائية فى هذه البلاد مفخرةً أخرى تُثيرُ فينا الرغبات ونستمدُّ من وحيها المثل والمعونةَ والفائدة جميعاً . لاسيما أنَّ جمعية « فتاة مصر الفتاة » مؤلّفة من السيدات المتعلمات العاكفات على تهذيب الفتاة المصرية . وأنها بتفحُّص مكنونات الأمس مساعد كبيرٌ على تقدير ما لدينا من ممكنات الغد .

وما خطر لى ذلك إلاَّ وصحبهُ اسمٌ شجىٌّ يحيا دواماً بزفراتِه الحارّة المنغومة . زفرات تناقلتها الأصداء يوم لم يكن للمرأة صوت يُسْمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطًّا جميلاً حين كانت صورة المرأة سديماً محجوباً وراء جدران المنازل وتكتُّم الاستئثار .

ورغم ذلك أنشأتُ أنقّب فى تاريخ المرأة بعد أن انتعشت الديار المصرية على يد محمد على باشا منذ قرن و بعض قرن . وكنتُ كلما دققت نمّت « التيمورية » فى ذهنى ، وتفرّدت صورتها أمامى ، إذْ لم يقمْ على مقربةٍ منها صورةٌ تسابقها أو تشبهها ولو شبهاً بعيداً . ونظرتْ إلىّ بعينيها المجهولتين المرمدتين باثّةً حسرتها ، باكيةً شجوها ، مهمهمةً لى فى خلوتى أبياتاً كثر أمثالها فى ديوان « حلية الطراز » حيث تقول :

حى الرفاق وصف للحى أشواق ... وحدث الركب عن تسكاب آماق
قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما ... لواعجاً كحميم أو كغساق
أسال حر الهوى قلبى وأبرزه ... جفنى على يد آماق وأحداق
هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهب ... وفى التنفس من آثار إحراق [1]

فطالعتُ كلّ ما عثرت عليهِ من آثارها ، وجمعت من المعلومات عنها ماتيسّر . ولمّا كنا فى أيام تعذّرت فيها الاجتماعات العامة (كما كانت متعذرة فى الشتاء الماضى) رأيت أن أنشر هذا البحث متوسعةً فيهِ أكثر مما كان يسمح الوقت فى محاضرة أو محاضرتين أو ثلاث . وأنا بعملى هذا مسوقة بدافع متعدّد الأسباب .

أولاً — لأن « لعائشة » فضل المتقدّم بيننا ، وهى طليعة اليقظة النسوية فى هذه البلاد .

ثانياً — لأن الجمهور يعرف أنها « شاعرة » دون أن يلمّ بما تتكوّنُ منهُ شاعريتها ، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها ، أو يحلّل ميلاً من ميولها .

ثالثاً — لأنّ النظرة فى مقدرتها إنما هى اكتناه للذات المصرية ، ليس من الجانب النسوىّ فحسبُ بل بوجه عام . وسنرى بعد التحليل أن « لعائشة » مكانتها بين أدباء عصرها وليس بين الأديبات الشرقيات وحدهنّ .

---

(١) « حلية الطراز » .

رابعاً — لأنها من عمّال دولة القلم عاشت فى وحدتها كثيراً ، وأعطتنا فى شعرها ونثرها صورةً مؤثرة . أما رأيها فى الحياة فحقيقٌ بالانتباهِ والتبصُّر لأنه رأى جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعاً فى زمانها وليس بالنادر فى أيامنا هذه .

خامساً — لأن مثل هـذا البحث يرافقهُ سرورٌ متضاعف . أليس أن جميع طبقات الناس تلذُّ لها الروايات وهى إنما تمثّلُ حياة أشخاص وهميين ؟ فكيف بحياة أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كلَّ ما يعانيهِ أبطال الروايات ، هم الذين توفَّرت فيهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منّا فى سباتٍ واستكانة ؟ وكم من نابهٍ قضى تاركاً آثارهُ فاكتفينا بالثناء عليها وعليهِ ثناء النائحات على كلّ ميت ، فظلمناهُ فى مماتهِ بعد أن كان مظلوماً فى حياتهِ ! فلم نستجلِ من آرائهِ رأياً ولم نحلل من العوامل التى كوّنتهُ عاملاً .

* * *

كلّا ، لم نحلل بعدُ رأياً ولم نستجل عاملاً لأننا ما زلنا فى هـذا الفنّ الجليل أطفالاً . نظرةً إلى ما يُكتب عن ثمرات المطابع عندنا ترينا (مع استثناء صغير) أننا نقابل الكتب الجديدة بأحد الأنواع الثلاثة التالية : — فإما نغفل ذكرها إغفالاً حتى وإن كانت عنواناً قيماً ليقظتنا الفكرية وخطوة واسعةً تستدعى الإعجاب والاغتباط . ولا يبرّر هذا الإغفال حتى ولا الاعتذار بأن الجمهور يتطلّب الآن موضوعات معينة لا يرضيهِ سواها . لأن هـذا الجمهور المتّهَم هو هو الذى يبتاعها ويستهلك طبعاتها . فكيف يجدُ متسعاً من الوقت لمطالعة كتابٍ بكليتهِ ويضيق وقتهُ وصبرهُ دون قراءة سطور عنهُ ؟

النوع الثانى — هو إما مرقةٌ دهنية لزجة مُزجت فيها موادّ الثناء والمدح والإطراء يُطلَى بها ذكر الكتاب دفعَ عنك كونهُ صائباً أو غير صائب . وإما تقريظ بالاستعارات المألوفة التى لم تعُدْ تعنى شيئاً يختم (كما تختم جميع الصلوات بآمين)

بكلماتٍ لا مفرَّ منها مثل : « حث الجمهور على اقتناء هذا السفر النفيس » أو : « التمنى أن يصادف هذا الكتاب الشيق النافع ما يستحقه من الرواج والانتشار » .

أما النوع الثالث الذى أرادوا أن يطلقوا عليهِ اسم « النقد الحديث » فهو نقيض « التقريظ » العتيق . ويفكّهنى أن أتخيَّل أحياناً أن جميع اصطلاحات الثناء والإطراء « أضربت عن العمل » هى الأخرى لحينٍ ما فتكاً كأت فى مكانٍ واحد متماسكة متجمدة ، ففاجأتها قنبلة تائهة فافرنقعت متطايرة أشظاظاً ملتهبة تقمصت بفضل بعض النقدة « العصريين » ، قذفاً وطعناً وتهجُّماً .

ومما يؤسف لهُ أن من هؤلاء النقدة من هو ذو مقدرةٍ كبيرة ، لو هو أنال مقدرتهُ ما تقتضيهِ كلُّ موهبةٍ من التثقيف والصقل والملاينة والكياسة الفنية . فتذكر أن نقدَه ليس بالبلاغ العسكرى يعلنُ الأحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الأسقفىّ يحرم عضواً من شركة المؤمنين وشفاعة القديسين ، ولا هو بأمر « المعلم » القروىّ (على الطراز القديم) غضب على تلميذٍ مسكين لم يحفظ أمثولتهُ كما ينبغى فحظر عليهِ أن يأكل ، أو يشرب ، أو يتحرك ، أو يتنفّس بغير سماحهِ . كلَّا . ليس النقد بشىء من ذلك . إن هو إلّا نظرة فرد معرَّضٍ للخطأ فى عمل فردٍ آخر معرَّضٍ للخطأ يختلف عنهُ ميولاً وتأثيراتٍ وكفاءة ووراثة . وإذا كان الأدب واجباً فى الخطاب الشفهىّ ، فهو فى الخطاب الكتابىّ أوجب . وأول مظاهر الأدب هو التهيُّب أمام شخصيات الناس لكونها شخصيات إنسانية فحسبُ ، فكيف بها إذا هى بذلت مجهوداً ما ، وكانت ذات ميزةٍ علمية ، أو فنية وأخلاقية ؟

إنَّ ألزم مميزات الناقد هى العطف . لستُ أعنى العطف بمعنى الإغضاء والتساهل واعتبار العيوب والنقائص حسناتٍ وكمالات . وإنما أعنى عكس التحامل والتعنُّت ليتهيَّأ لهُ التجرُّد من ذاتيتهِ تجرداً موقوتاً يتسنى معه الدخول فى حياة المنقود شاعراً معه ، متوجعاً لحاجته ، مراعياً عادات بيئتهِ ومطالبها ، خاضعاً لجميع مؤثرات المحيط . طالباً لحين غايتهُ من الحياة ، وإلا فكيف يدَّعى أنه فهم المنتقد عليهِ ؟ وإن لم يفهمهُ

فكيف يكون رسولهُ إلينا ؟ كيف يجرؤ امرؤٌ على تحويل حاجات الناس إلى حاجته ، وحصر عقلياتهم فى عقليته ، وسجن قلوبهم فى قلبه ، وقياس أحوال حياتهم بمقياس حياته ، ثم يأتينا بحكم يزعمهُ هو نهائياً بلا نقضٍ ولا إبرام ؟ ألا إنَّ ذاك هو الهاجى وليس بالناقد . هو المتصلِّب وليس بالفنَّان . هو الذى يتجاهل أن النقد لايقوم بإظهار العيوب (وجميع الناس بارعون فيه) وإنما هو إحكام التمييز والتعليل ، شأن المصوّر فى توزيع الأنوار والظلال على ما يجب أن تكون فى اللوحة الواحدة .

أعلمُ أنَّ بين نقدة الفرنجة كثيرين من المتحاملين ، ولكنَّ ما يأتونهُ من ضروب الطعن والنهش لم يقنعنى بأن العصمة فى جانبهم ، ولم أرَ فى أحكامهم سوى رأيهم الخاص ليس إلا . وهذه الصورة التى أرسمُ من « التيمورية » إنما هى نظرة فردية فى طبيعتها ولا زعم لى أنها صورة مطلقة . وأتمنى أن تتنبه الرغبة فى معرفتها فى نفس كلّ من شاء مسايرتى فيدرسها معى متصفِّحاً روحها ، راسماً لذاته صورةً منها خصيصة فإن الحرية الفكرية هى ماننعمُ بهِ ولله الحمد . وبها سيبقى الإنسان كبيراً نبيلا وإن كان فى سواها عبداً ذليلا .

* * *

أحصيتُ الأسباب العمومية لدرس الشاعرة : ولكنّ لدىَّ سبباً آخر ، وهو مقابلةٌ معنوية جرت لى معها منذ حداثتى القصوى .

كان ذلك فى تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحىُّ متجلياً ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السرىّ ، ونُصِبَ صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيهِ مهرجان الفرح كل ليلة ، فما يخيم الظلام إلا وتأخذ تعزفُ الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألُّق الأنوار ومعالم الزينات ، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها .

إذ ذاك يهرع أهل الحىّ إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة فى الفضاء حتى لتتهادى أصداؤها نحو ماجاور من جبال الجليل .

والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدرٌ دافئٌ ويحميهم من أهوال الظلام ، فتتنبّه منهم النفوس لتفهّم أعجوبة الألحان .

كنتُ على ذلك فى ليلة فإذا بصوتٍ ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن جفن من السحر أم سحر من الأجفان
خال بخديك أم صنع من الديان توهت فكر الأنام فى الجفن والخالات[1]

تبارك الله ما أحلاك من إنسان

سمعتُ وأصغيتُ ليس بنفسى كما كانت صغيرة وقتئذٍ ، بل بكل قواى الكامنة التى سينميها المستقبل وبكل ما فى الأيام التى عشتها وسأعيشها من أمل ويأس وسعادة وشقاء . ولعلى استشعرت ببعض ماسأفهمه بعدئذ من نجوى الموسيقى الشرقية . تقول : إن الإنسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنهُ يعلم أنه يحتاج إلى السعادة التى لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب : إنهما أكبر سنًّا مِمَّا يظنان . وتقول للقوىّ الظافر : إنهُ ضعيف مدحور . وتقول لكل أحد : إن حياته كانت إلى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء . تقول له : إن فى الدنيا أموراً لم يختبرها وأن جهله بها فقرٌ وضنك وذلّ وعبودية وموت سبق الموت . تقول : إن الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لأن العمر قصير سريع العطب ، وأن كل لحظة يجب أن « تعاش » بأكملها ليستخرج منها أقصى ما تكنّ . تقول : إن القلب روىٌّ بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليه ليتفجر كصخرة موسى . . . وإذ تنطلق الأصوات سابحةً كالأجنحة فى فردوس من الألحان ، ثم تصيح مُتَفَجِّعَةً ، منتحبةً ، ثائرةً ، عاصفة تلجُّ وتتمادى ، يخيل أن الفزع قد جوّف تحتها هاوية تترامى فيها الأصداء المرتعشة ، فتعكف النفس على حاجتها ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن والراحة فى سحر الحبّ وذوب الحنان . . . ولكن العمر قصير

(١) كذا فى الأصل . أما أنا فأذكره كما كنت أسمعه : « توهت فكر الأنام بالعين والحاجب »

سريع العطب ، وكلّ مافيهِ موسوم بوسمهِ . . . ولـكن الحياة مراوغة فى استقامتها ، شحيحة فى كرمها ، وكل مافيها كريم شحيح مراوغ مستقيم . . .

هذا بعض ما قالهُ لى فيما بعد شهيق الأوتار ، فهل فهمتُ منهُ عندئذ شيئاً ؟ لا أدرى ، ولـكن كم ذا انتقش الظلام بالمشاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذى لم يكن أحد يعلم ماإذا كان جمال عينيه كحلاً أم صبغاً من الرحمن ! ذاك الشخص الذى تاهت به أفـكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما أحلاك من إنسان !. أتتصورون أثر هذا الرسم فى مخيلةٍ صغيرةٍ شديدة التيقظ ، وفى نفس لينة ترتعش أمام مظاهر الفنّ والجمال حتى لقد تبكى لمرور سحابة زاهية فى الأفق الأزرق ؟ .

* * *

ولطالما سمعتُ هذا « الموّال » بعدئذ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليهِ إقبالهم على جميع الأدوار المصرية المشوّقة ، ولـكن أكانوا يعلمون مَنْ هى شاعرتهُ ؟

أرَجح أن تلك كانت نشوتى الموسيقية الأولى ، فأبقت فىَّ أثراً كأنما هو إشارة من روح التيمورية تنبهنى . وما تبينت تلك الإشارة إلا عند مطالعة ديوانها والاهتداء إلى ذلك « الموّال » فيهِ ، فأدركتُ أنها حدّثتنى منذ زمن بعيد تلك الروح التى غاصت نفثاتها الحزينة الطروبة فى أرواح المنشدين ؛ فحبَسَتْ على أوتارهم ألحاناً ، وانطلقت على أمواج الهواء فنًّا وتغريداً و إبداعا . وهكذا تلك المرأة التى وقّعت زفراتها فى وحدة خدرها وراء الحجاب ، صار الشجن والطرب منها فعّالاً تتناقلهُ أجواء الأقطار ، وتتأثر به ليالى الأفراح فى نازح الديار .

كذلك برقت « التيمورية » فى تلك الظلمة ، وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير . إن « عائشة عصمت » ظهرت حين كانت المرأة فى ليل دامس من الجهل فجاءت بارقاً يبشر بحاضر المرأة المصرية ومستقبلها .

(٢)

عصرها

بزغ القرن الخامس عشر على ربوع الغرب فجراً ما برح ينتشرُ ويعمُّ حتى شمل بنورهِ نهضة التجدُّد الكبرى . وما تولى إلاّ وقد جاء بحادثين بدّلا حظ البحر الأبيض المتوسط وحظّ مرافئهِ فى الحركة التجارية والعمرانية . وهما اكتشاف فاسكودى جاما طريق الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن شقّ كلومبس البحار وصولاً إلى الأقطار الأمريكية . وبينا التطوُّر يتتابعُ فى الغرب حثيثاً سواء فى العلم وأسباب المواصلات ، وامتزاج الشعوب ، والصناعة ، والتجارة ، والثروة ، والحرية الفردية . والكرامة القومية — كانت مصر ، وقد حُرمت من مرور تجارة الشرق ، تتقهقرُ ببطء حتى انقطعت العلاقات بينها وبين العالم . وظلّت ثلاثة قرون يحكمها بالاسم ولاة عثمانيون ، وتدفع الجزية السنوية إلى تركيا ، إلاّ أنها تعثو فيها تلك الفئة الطاغية من المماليك « البكوات » . ففشت فى أنحائها الخزعبلات والأوهام واشتدّ العوز مهدّداً بالأمراض والمجاعات . والدول التى تتنافس الآن فى اكتساب صداقتها كانت قد نسيت حتى الوجود من هذه البلاد الفريدة بتربتها وتاريخها وحضارتها العريقة ، الفريدة بموقعها الحربىّ المنيل النفوذ السياسى والرواج التجارى لجمعهِ بين القارات الثلاث وسيطرتهِ على طريق المشرقين .

أىُّ عجاجة لا تثير أعمال الرجل العظيم ! هبط نابليون الشرق يستغلُّهُ ويقيم عليهِ الركن الأوّل من عرش أراد أن يخيّم ظلُّهُ على الشرق والغرب جميعاً . فهبّت الدولُ تقاتلُ الجبّار وتتحالف لهزيمة جحافلهِ ، وصار القطر المهجور محجة الغايات ، لأن البطل أدخلهُ فى خريطة أطماعهِ .

جاءت القوّة العثمانية بقيادة القبطان حسين باشا وتكاتفت والحملة الإنجليزية

فى الرحمانية فزحفتا معاً على القاهرة . فسلّم الفرنسيون نهائيًا فى سبتمبر ١٨٠١ بعد الاحتلال ثلاثة أعوام دون جنى أية فائدة حربية . وكم من عمل يؤتى فى سبيل غاية تفشل ، فإذا بهِ موفور العائدة لغاية أخرى !

فقد أسفرت الإغارة الفرنساوية عن فوائد ثلاث :

الأولى : قومية ، إذ شعر المصريون بأهمية بلادهم و بمقدرة الشعب على إزعاج الحكومة المستبدة إذا هو اتحد وتضامن . كما لمحوا وميضاً من المدنية الأوربية الحديثة ورغبوا فى اقتباسها .

الفائدة الثانية : علمية ، إذ اصطحب نابوليون جماعة من العلماء الاختصاصيين . فدرسوا طبيعة البلاد ومواردها ، وأدخلوا الطباعة ، ونشروا الصحف ، وأسسوا « المجمع العلمى المصرى » . وجاءوا فى مختلف الموضوعات بأبحاث قيمة ، منها وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر الذى سيستفيد منه « ده لسبس » . وأحدثوا إصلاحات كثيرةً ذهب جلُّها ، إنما بقى منها جرثومة ستنمو بعد الآن على يد حكومة البلاد .

الفائدة الثالثة : سياسية ، إن بين ضباط القوة العثمانية كان ذلك الرجل الذى وُلد هو ونابليون وولنجتون فى سنة واحدة (١٧٦٩) وقد أعدَّتهُ الأقدار ليخضد شوكة المماليك ، ثم يسير بمصر الخطوة الأولى فى سبيل التكوُّن الذاتى .

. . . و بين رجال محمد على رجلان يختلفان أصلاً وعملاً ، أحدهما كردىّ وهو محمد تيمور بن إسماعيل بن على كرد ، الذى كان ضابطاً ومساعداً فى استئصال دولة المماليك حتى صار من خاصة الوالى الكبير ، فترقى فى المناصب من كاشف ، إلى محافظ . وتوفى سنة (١٢٦٤ هـ — ١٨٤٧ م) . والآخر تركىّ الأصل وهو عبد الرحمن أفندى الذى كان قبلئذٍ كاتباً فى الديوان الهمايونى عند السلطان سليم الثالث ، ثم صار ذا مكانة عند محمد على حتى إنهُ بعد وفاتهِ دفنهُ فى القلعة . وكان لسلالة هذين الرجلين أن تحمل علامة اليُمْنِ ، فقد تزوج محمد تيمور بابنة عبد الرحمن افندى ، فكانا جدَّى الشاعرة المباركين .

* * *

ولدت «عائشة» قبل وفاة محمد على بتسعة أعوام ، وتوفيت بعد تولية عباس الثانى بعشرة أعوام . أى إنها شهدت تطوُّر بلادها على عهد أربعة ولاة هم : محمد على وإبراهيم وعباس الأول وسعيد ، وثلاثة خديوين هم : إسماعيل وتوفيق وعباس الثانى

كان لمحمد على مطامع سياسية معينة فبذل المجهودات لتأييدها فى الداخل بإنشاء المدارس الحربية والمستشفيات العسكرية ، وتنظيم الجيش وتخريج الأطباء ، ونشر المعارف وإرسال البعوث إلى أوربا لتتلقى العلوم الفنية والميكانيكية والحربية — مصلحاً فى مصر كل شىء من الزراعة ، إلى الصناعة ، إلى الجيش . أما فى الخارج فكان يؤيد مطامعهُ بالحروب والفتوح . هو الذى بعد أن أباد المماليك أخضع الوهابيين ، وقهر بلاد العرب ، وفتح السودان وسوريا ، وحارب المورة ، وهدَّد الآستانة بجيول ولدهِ إبراهيم حتى تصدَّت لهُ الدول خوفاً على راحتها . ولئن جلت جيوشهُ عن بلاد الشام سنة ١٨٤٠ فإنهُ قضى آمناً من أنَّ ولاية مصر والسودان ستكون وراثية فى أسرتهِ .

وتتابع التطوُّر ضئيلاً خلال ولاية إبراهيم التى لم تدم سوى شهرين اثنين ، وولايتى عباس الأول وسعيد حيث كان غرض التعليم محصوراً فى تخريج موظفين للحكومة وضباط للجيش . وإن امتاز عهد سعيد بأمورٍ ذات شأن ، منها وفاء ديون الحكومة ، وحذف الجمارك الداخلية والاحتكارات ، وإرجاع الحرية الفردية وحق الملكية إلى الفلاحين — بعد أن كان محمد على ليتمكن من القيام بمشروعاتهِ الكثيرة فى وقت قصير ، قد جمع الأملاك بين يديه جاعلاً الحكومة تسيطر على كل تجارة مع الخارج . وتمَّ فى عهد سعيد إنشاء القناطر الخيرية التى بُدىء بها بأمرٍ من محمد على . وسعيد هو الذى فوَّض إلى صديق طفولتهِ « ده لسبس »أن يباشر حفر قنال السويس .

بيد أن الاندفاع الأكبر جاء فى عهد إسماعيل الذى ورث شيئاً كثيراً من يلمعية جدّهِ وبعد نظرهِ . فعاد إلى معالجة مشروعات محمد على مرسلاً البعثات إلى

أوربا ، موجداً المكتبة الأهلية ومتحف الآثار المصرية . حافزاً الترع للرى ومجمّلاً المدن الكبيرة ، عاملا على نشر المعارف بالترخيص فى نشر الصحف والمجلات وتأييد أهل العلم والأدب وتقريبهم ، مسهّلاً لغير المصريين الإقامة فى بلادهِ ، مقتبساً منافع مدنية الغرب وصابغاً مملكتهُ بصبغتها . حتى حقّت على وادى النيل تلك الكلمة التى هى شعار الخديو إسماعيل وهى : « لم تعد بلادى فى أفريقا ، وإنما هى قطعة من أوربا » .

وكان همهُ الأول تأسيس المدارس والكتاتيب وإنشاء وزارة (نظارة) المعارف التى عهد إليها فى تنظيم المدارس على نمطٍ جديد فقُسمت إلى ابتدائية وثانوية وعليا . وشاد دار الأوبرا التى وضع فردى الطليانى رواية « عائدة » لتمثّل فيها خصيصاً للمرة الأولى . وهو الذى أمر بتمهيد طريق الأهرام البديعة . ويقال إن تمهيدها تمّ فى ستة أسابيع ليتسنى لأوجنى الجميلة زوجة نابوليون الثالث (ويومئذٍ أمبراطورة الفرنسيس) أن تزور آثار مصر العظيمة يوم تجىء بأبّهة الملك وجلاله — لحضور الاحتفال بفتح قنال السويس مع من حضر لذلك الغرض من عظماء العالم .

وأصدر أمراً فى أواخر عهدهِ يعلنُ رغبتهُ فى أن يحكم بواسطة مجلس نظار ، بعد أن كان أصدر أمراً بتشكيل مجلس نوّاب تأخذ الحكومة رأيهُ فيما تسنُّ وتحوّرُ من النظم والقوانين . وكان كاهل مصر قد أثقل بالديون مما أدّى إلى قبول الرقابة الأجنبية على المالية المصرية . فقام يوماً ينكر على الموظفين الأوربيين حق التدخّل فى شؤون بلادهِ ، فحملتهُ الدول أثر ذلك على التنازل لولدهِ توفيق تحت الرقابة الفرنساوية الإنجليزية فيما يتعلق بالمالية . وهذا الرجل الذى جلس على كرسى الولاية باسم إسماعيل باشا ، كان قد خطا بمصر خطوةً أخرى فى سبيل التكوّن السياسى فتخلّى ، ولكن ليس عن كرسى الولاية ، بل نزل الخديو إسماعيل عن عرش الخديوية المصرية ، مهيّئاً لابنهِ مُلكاً يكاد يكون دستوريًّا .

وتتابع الإصلاح فى عهد الخديو توفيق إلى أن شبّت الثورة العرابية مطالبة

— فيما طالبت بهِ — بإلغاء الرقابة الأجنبية على المالية المصرية . وكان ما كان من احتلال انجلترا وتفويضها إلى لورد دوفرن درس مختلف المشاريع وتنفيذها فى مصر . وبعد توقف القطر عامين خلال هـذه الثورة ، استُطرد فيه التنظيم والتقدُّم بحيث تمكّن القاضى المفكّر المدقق الذى كانهُ قاسم أمين أن يقول فى ردّهِ الفرنسوى على الدوق دار كور إن :

« الحرية التامة سواء فى التفكر والكتابة أصبحت مباحة ؛ وأن المصرى يتمتع الآن بكل ما ضمنه الإعلان الشهير من « حقوق الإنسان » . وأن الجميع يتوقون إلى العلم ويتعلمون معتبرين أن هذا هو السبيل الوحيد للنهوض . منذ ثورة عرابى انتبه الشعب المصرى لمكانته وكرامته ، استنار ذهنه فجعل يهتم بنظام الحكم وبالشئون العامة يقدرها ويحكم لها أو عليها . وبالجملة فإن مِصراً تيقظت بالفعل » (١)

نشر قاسم هذا الكتاب سنة ١٨٩٤ . ولما توفيت « عائشة » بعد ثمانية أعوام كانت حركة التطوُّر فى ازدياد ، وقد أضيفت إليها عناصر فتية متنوعة .

* * *

أهى يقظة الفكر عند الأفراد تهيئ اليقظة القومية ، أم هى يقظة الجمهور ومطالبهُ والأحوال المحيطة بهِ التى تخلق الأفراد وتحبوهم بالمواهب الضرورية ليتكلموا بصوت الجماعة ؟ أظنُّ أن التفاعل هنا محتم كما هو فى كل أمر آخر ، فالأفراد يخلقون الجمهور ، والجمهورُ يخلق الأفراد . لأن القوى البشرية محكمة الترابط فيما بينها ، فإذا انتبهت إحداها تأثرت بذلك الانتباه جميع القوى وهبَّت متجدّدة ، نابضة ، مبدعة ، كأنها الصوت الواحد يحدث هزةً فى مكان من الهواء ، فتتناقلهُ الموجات المسارعة حتى يرنَّ فى أقطاب الفلك جميعاً .

ولكن يخيّل أنهُ قبل تنفيذ أىّ عمل يقتضى رسم خريطة خيالية جلية فى الذهن الناضج الصافى ، خريطة من الخرائط التى يسميها المتهكّمون « نظريات » .

---

(١) «Les Egyptiens»

وهذه النظريات التى تثنى لذكرها شفاهُ العمليين هى من الأهمية بحيث إن الطبيعة لاتجمعُ عادة (وإن فعلت نادراً بشذوذٍ جميل) بين مقدرتى النظر والعمل فى شخص واحد ، إذ أن لكلٍّ منهما صفات تنافى صفاتِ الأخرى ؛ يهيئ النظريون الخرائط الذهنية ، فينظر فيها سواهم بعين النقد والتمحيص مستخرجين منها ما لاءم حاجة الوقت ، وينفذها آخرون فتصير شيئاً محسوساً يستخدم ويخدم ، كأنما هى « المُثُل الأفلاطونية » التى بموجب نظريتها لاتكون المحسوسات إلا انعكاس أفكار هى كائنة فى ذهن الإله الأعظم . تلك هى حكاية التلغراف اللاسلكى التى ابتدأت مع مكسويل وهرتز وبرنلى نظريات وتعديلات علمية ، فصارت مع ماركونى عاملا آلياً تعنو لهُ مجارى الهواء فى نقل الأفكار . وتلك هى حكاية الغوّاصات التى كانت فى كتب جول فرن الفرنسوى رؤى وأخيلة علمية ، فبسط أديسن الأمريكانىّ لوزارة بحرية بلادهِ إمكان إنشائها فى تقرير نسخهُ الألمان سراً ، وصيروها خلال الحرب مُدُناً متحركة تحفر البحار وتصادر سفن الأعداء وسفن من كان لهم موالياً وظهيراً . وتلك هى حكاية الثورة الفرنسوية أعدّها الكتّاب والمفكرون ، والثورة الروسية التى مهّدَ لها الروائيون والشعراء سبيلا .

وانتحت الحياة الجديدة فى مصر هذا النحو ، فإنهُ إلى جانب التحسين الزراعىّ والحربىّ والميكانيكىّ والمدرسىّ ، ظهرت حركة أخرى راودها الغموض فى البدء إنما جعلت تتسع وتنجلى مع الأيام . نشأت عن تواصل الاحتكاك بمدنية الغرب سواء بواسطة النزلاء المقيمين فى هذه الديار ، وبعوث الشبان العائدين من أوربا ، وقد تطعمت نفوسهم بجديد النزعات وحديث الآراء ، وجماعات خريجى المدارس المصرية وقد سرت إليهم عدوى الفكر المصرىّ خلال ما تلقّنوا من الدروس الأوربية . وقدم مصراً جماعةٌ من نوابغ السوريين وأحرارهم النازحين إثر النكبات فكان صدم أفكارهم بأفكار المصريين جزيل النفع للفريقين وللفكر العربىّ عموماً .

بلغت تلك الحركة أشدها فى عهد إسماعيل ، وقد بدت أدبية اجتماعية بعد أن

كانت ميكانيكية علمية ، يمتزج فيها استيحاء الجديد وتجديد القديم . الاستيحاء بالاطلاع على مؤلفات الأجانب ونقل ما تيسر نقلهُ منها إلى العربية . والتجديد بإعلاء شأن روح اللغة . إذ كانت يومئذٍ آلات مطبعة بولاق الأميرية والمطابع الأهلية الأخرى تشتغل لإعادة نشر مؤلفات « المدرسيين » من كتّاب الإسلام وعلمائه الأقدمين . وكثرت الصحف حتى بلغ عددها السبعة والعشرين ، فترتّب : « على نشر أغراض عامة فى تلك الجرائد ومباحث علمية وأدبية فى صحيفة روضة المدارس وتخريج نوابغ من طلبة مدرسة (دارالعلوم) على يد أستاذهم المرحوم الشيخ حسين المرصفى واستفادة بعض النبهاء من طلبة الأزهر بطول اختلاطهم بالمرحوم الشيخ جمال الدين العالم العصرى حين ذاك سلوك سبل أخرى فى الإنشاء تستمد منها الأقلام ، فعوضاً عن الاشتغال بكتابة التهانى أو البشرى بمولود ، أو التأسى على مفقود ، أوالمدح ، أوالهجاء . أوالعتاب ، أو الاستعطاف ، أو التغزل بالغيد والغانيات أو مكاتبة الأصحاب والأحباب والرجاء والاعتذار التى هى من الأغراض الخصوصية مالت الأقلام إلى الكتابة فى حب الوطن وما يستلزمه من خير العمل والحث على الفضيلة والتباعد عن الرذيلة وحق الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم ، وغير ذلك من شرح حكم عالية هى من الأغراض العمومية . كل هذا كان أعظم مرشد للمطلعين عليها ؛ حتى ترتب على ذلك تغيير عظيم فى الأساليب الإنشائية وفى الحركة الفكرية وفى الشعور بالذاتية[1] » .

ذكر هذا أمين باشا سامى ذلك الرجل الشرق الشبيه بفلاسفة الماضى كسقراط وسواه الذين لم يكتبوا ، وإنما أرسلوا تعاليمهم ضمن المحادثات العادية . وكانت أهم المحافل الفكرية فى عهد إسماعيل هى الحلقة التى تعقد حول جمال الدين « فى القهوة التى قرب قهوة « البورصة القديمة » ولعل تلاميذه لاينسون فى مستقبل الأيام أن يحيوا ذكرهُ بينهم فى ذلك المكان » . هذا رأى الدكتور شبلى شميّل

---

(١) أمين باشا سامى « فى كتابه التعليم فى مصر »

الذى عرف الأفغانى وجالسهُ وناقشهُ . ويتابع الحديث عنه قائلاً :

« لم يكتب فيما أعلم شيئاً [١] وإنما كان يلقى على آخرين مقالات ضافية تنشر فى جريدة مصر [٢] تحت أسمائهم . ولولا الشيخ محمد عبده يده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه فى صدور أكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم ، إذ كانت كل تعاليمه حديثا يلقيه بحسب مقتضى الحال » . « وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الأخصاء وأعماله محصورة فى دائرة مريديه . وأما جريدة مصر فكانت سببا كبيراً لإذاعة صيته ونشره فى الآفاق » . « ولم يتهيأ له أن وقف خطيبا فى قوم إلا مرة واحدة أظهر فيها أنه خطيب مفوه أيضا وكان ذلك بمسعى أديب إسحق ، وفى تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين ، فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنًى ومبنًى وجرأة ، وبقى يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون أن يبدو عليه أدنى تعب أو تلعثم ، حتى خلب العقول ، وأقام الناس وأقعدهم » [٣]

جاء الأفغانى مثالاً محسوساً لتفاعل الأفراد والجمهور . إذ رأى ببصيرتهِ النافذة ما يحرك نفوس إخوانه من العوامل المستفزّة نفسه ، دون أن يهتدوا إلى كيفية التلخيص والإفصاح . فتكلم فيهم بلغته « الممزوجة ببعض لكنة أعجمية تنمُّ عن أصله الغريب وإنما وقعها على الأذن كان محبوبا » [٤] . تكلم فيهم بفصاحتهِ النارية ، فكان له اليد الطولى فى تحريض الأفكار وإضرام الثورة العربية . فهو زعيم

---

(١) يعنى أن جمال الدين لم يكتب بيده مقالات للصحف المصرية . إلا أنه أنشأ فى باريس « العروة الوثقى » التى أصدرها بالاشتراك مع تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده . وتوفى عن كتابين أحدهما تاريخ الأفغان والآخر نقد للفلاسفة الماديين نقله عن الأفغانية الشيخ محمد عبده أيضاً .

(٢) يعنى جريدة مصر التى كان يصدرها سليم النقاش وأديب إسحق ثم ألغيت ورخص لهما باصدار جريدة « المحروسة » محلها .

(٣) نقتبس هذه النبذة من فصل للدكتور شميل نشر فى مجلة « الزهور » (فى ديسمبر ١٩١٢) التى اقتطعت ذلك الفصل من مجموعة مذكرات قالت إن الدكتور كان يومئذ يشتغل بوضعها باسم « حوادث وخواطر » .

(٤) الدكتور شميل نقلا عن الفصل المذكور فى « الزهور » .

الناقمين فى ذلك العهد ، هذا الأفغانى الذى أرسلت شعلة روحه الشرر من أفغانستان إلى بلاد فارس ، إلى وادى النيل حيث مرّ كتيّار لفّاح .

شعر الفكرُ المتغيرُ المتكيفُ بوجوب تبديل أستارهِ والتجلى بزىّ يوافق صورته الخفية ، فكان ذلك التطوُّر فى نتاج القرائح والأقلام من شعر ونثر ، وإن كان فى الشعر أسبق ، أما فى النثر فأوضح . وظهرت مع الشعر الفصيح ضروب من الشعر العامىّ كالمواليا التى لم يأنف معالجتها نفرٌ من كبار الشعراء . وتجدّد « الزجلُ » الطلىُّ . وأما وضوح النثر فجاء من انتشار العلوم الطبيعية والرياضية فمال الناس معها إلى إحكام المعنى وإخراجه من معمعة السجع والجناس والاستعارة والتورية . وبديهىٌّ أنهُ لم يفلح فى ذلك أولاً غير النفر اليسير ، وتفرّقت من الآخرين الطرق . فتحدّى بعضهم أسلوب الأقدمين من صدر الإسلام أو من صدر العباسيين ، وتسرّبت إلى أسلوب غيرهم ركاكةُ لغة الدواوين التى لم نخلص منها حتى فى هذه الأيام . ولعلّ أقرب الأساليب منالاً هو أسلوب الصحافة التى كانت ومازالت عندنا ميدانا للعلماء والشعراء والأدباء ، وقد تحتم عليها التوفيقُ بين مختلف الأذواق والكتابة بلغةٍ يفهمها الجميع على السواء . ولصحافتنا فى ذلك تاريخ أغر ، وما فتىء التحسن يبدو عليها من عام إلى عام ، وهى عاملٌ كبير فى رفع فكر المجموع ، وربما كانت العامل الأكبر لأنها العامل الأشمل .

* * *

وإذا كانت الحالةُ الفكرية الاجتماعية فى تفاعل مستديم ، فكيف كانت يا ترى العيشة العائلية ؟ كيف كانت حالة المرأة ؟ أكان يصل إليها صدى الخارج ؟ أكانت تشتغلُ لرقى بلادها فى دائرة الأسرة وتدرك معنى المطامح القومية ؟

هاك شبه جواب عن هذه الأسئلة عند أمين باشا سامى الذى يخبرنا أنهُ فى عصر محمد على كان الأهالى « عقبة كؤوداً فى طريق تعليم بنيهم . غير أنهم لما تحققوا أن تعليمهم فى تلك المدارس ومكثهم بها ينقل حالة أبنائهم إلى حالة أرقى من التى انتشلوا

منها تحققت الرغبة عندهم » . « أما تعليم البنات فلم يصادف تسهيلا فى عصره حتى اضطر إلى إصدار أمره إلى حبيب أفندى فى ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٤٧هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٣١ م[١]) بشراء عشر جوار سودانيات صغيرات السن ، ينتخبن بمعرفة كلوت بك لتلقى فن الولادة ، ومعهن اثنان من أغوات الحرم يتعلمان فن الطب والجراحة[٢] .

كانت عامة الفتيات تتعلم التطريز وأشغال الإبرة سواء فى بيوتهنّ أو بالتردُّد على المعلمات القبطيات وغيرهنّ . ومنهنّ من يتعلمنَ القرآن على فقيه البيت . ونفسى تحدثنى أن ذلك الفقيه كان ينطبقُ عليه وصف صاحب مذهب :

« هذا جناهُ أبى علىّ وما جنيت على أحد » .

ليأخذن التلاوة عن عجوز ... من اللائى فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ... ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن ... إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير ... يلقنهن آياً محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ... ولثته من المتثغمات[٣]

أليس إن هذا كان رأى أكثر الأهل فى معارف البنت وفى الذين يتولون تعليمها ؟ بيد أنَّ السيل متابعٌ مجراهُ والوفود الأوربية ترد أفواجاً ومعها البعوث الدينية تؤسس المدارس للبنين والبنات . فأنشئت مدرسة راهبات الراعى الصالح فى شبرا منذ ١٨٤٤ ، وتلتها مدرسة الأمريكان للبنات بالأزبكية سنة ٥٦ ، ومدرسة راهبات الفرنسيسكان الإيطالية سنة ٥٩ . وبينا مدارس الجوالى تتكاثر فى أنحاء القطر أُسست مدرسة للبنات بالسيوفية سنة ٧٣ (ولم يسبقها من المدارس الأميرية سوى مدرسة الممرّضات والقوابل منذ عهد محمد على) ، وهى المدرسة التى كانت

(١) أى قبل ولادة عائشه بتسعة أعوام .
(٢) « التعليم فى مصر »
(٣) « اللزوميات »

تابعة دائرة ثالثة حرم إسماعيل باشا ثم تتبعت للأوقاف وتعرف اليوم بالمدرسة السنية . وتلتها مدرسة القربية سنة ٧٤ ثم انضمت ومدرسة السيوفية وعرفت بها . وكان عدد المدارس للبنات والبنين فى ازدياد سريع حتى أنشىء منها فى حياة « عائشة » ما يقارب الألف من مدارس أميرية ومدارس تابعة لمجالس المديريات وأهلية وأجنبية عدا المعاهد الدينية والكتاتيب .

بيد أن المرأة لم تكن وصلت إلى دور تثقيف نفسها ، بل كانت راتعةً فى انقطاعها وجهلها شأن من اعتاد الهواء الفاسد يضيق منهُ النفس ويعتل إذا هو انتقل إلى حيث الهواء نقيٌّ ، وإنما هى الأقلية المتنورة من الرجال التى كانت تطلبُ فى الزوجة شريكة وصديقة ، وللأبناء التربية المنزلية الصالحة ، وللبيت ذلك الجوّ المفرح الذى تخلقهُ المرأة بعذوبة حبها إذا هى قُرنَت بالحصافة والمعرفة . وكان أولئك الرجال يتشاكون الغمّ فيما بينهم وليس من يقتحم مصادرة الرأى العام ، حتى انبرى «قاسمٌ» لايبالى بتطعين الحراب ، هادئاً كمن جسّ مقاتل الخصم ، وتسلّح بصارم الحق واليقين .

(٣)

حجر نعمتها

نحن حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فى مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية قبل أن تبدل معالمها يد الهدم والبناء ، وقبل أن تصقل بعض جوانبها يدُ التحسين الجديد ، مدينةٌ شرقية توالت عليها نوائب التاريخ واختلطت فيها أجناس الشعوب ، وهى لسرّها الطويل كتوم ، توزّعت فى مختلف الجهات منها البقايا الأثرية والجوامع البديعة الفائقة على الثلثمائة ، والحمامات والأسواق و « السُبُل » المرمرية المقدّمة ماءها العذب لكل ظمآن يرتوى . وفوق المدينة الجاثمة ترتفع المآذنُ بقاماتها الهيفاء ، فيخيّلُ أحياناً أن الإنسانية أعلت هيا كلها فى الهواء الأزرق ليس ليصل صوتُ

المؤذّن إلى المؤمنين على مسافة بعيدةٍ فحسبُ ، بل ليكون المبتهل في صلاتهِ أقرب إلى باريهِ وأرسخ فى الثقة بالاستجابة ، وطوراً تبدو تلك المآذن كأنها حراب أرسلتها أيادى الإسلام تنبئ الجانب بأنها على دوام الاستعداد لدفع الطوارئ عن الذمار .

فى الشوارع والساحات تبصر أخلاطا من الثروة والفقر ، أناساً يرتدون الأثواب النفيسة وعليهم دلائل النعمة والرخاء ، وآخرين يرتدون الأطمار البالية وعليهم دلائل الذلّ والشقاء ، ولكن « رغم مشهد التعاسة والمرض عند الشعب فإن شوارع القاهرة ليست لتوحى الأسف والخيبة اللذين يشعر بهما المسافر فى الاستانة ذات المنظر الفخم من الخارج ، المحزن فى الداخل . نعم إن أكثر هذه الشوارع مظلمة متلوّية متشابكة الواحد فى الآخر ، كأنها مجاهل التيه ، يعترضها هنا وهناك ممرات خفية ، وغاية ما يسع عابرها أن يستسلم لحكمة دابّتهِ وثقافتها ؛ على أنها نظيفة يتعهدونها بالكنس والرشّ المنظّم [1] . وبدلا من بلاط الآستانة الشنيع وتلك السلالم الحجرية فى غلطة وبيرا ، لا تجد هنا إلا أرضاً مستوية صلبة تسيرفوقها بلا عناء . أما المنازل القائمة على جانبى الشارع فهى فى الغالب أشهق من بيوت عاصمة تركيا وأتقن صنعةً ، ففى كلّ وقت تقع العين مبتهجةً على واجهة مزخرفةٍ بالنقش العربى ، أو على نافذة ذات المشبك الخشبىّ الدقيق الفن الأنيق التفاصيل ، فيكاد المرء يغتفر لأجلها الغيرة التى أقامت هذا الحاجز بين داخل المسكن وتطلُّع السابلة » [2] .

* * *

كاتبٌ أجنبىٌّ يجيئنا بهذا القول ، وهو لا يرى فى ذلك « الحاجز » إلا رمزاً « للغيرة » كأن الغيرة من واردات الشرق التى يتفرّج عليها الغرب ولا يكابدها ، ولكن هلم نقف أمام هذه المنازل ، أمام المنزل الذى نتطلّع الآن نحو الماضى

(١) حبذا لو انتبهت لهذا الكلام (مصلحة التنظيم) التى تبذل كل عناية فى تحسين الأحياء الأوروبية فى هذه المدينة وتهمل الأحياء الوطنية ! . ولكن ترى يشمل كلام الكاتب جميع أحياء القاهرة يومئذ ؟ .

(٢) "De Constantinople a Caire," par Xavier Marmier وقد كتب هذه الرحلة سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ صاحبها العضو فى الأكاديميا الفرنساوية .

لأجله . هلم نستعن بالخيال حين لاوسيلة سواه ، فنخترق جانباً من الحديقة الحافلة بالورود والرياحين تحت رعاية الأشجار ذات الظلّ الوارف . هو ذا الأغا يسير بنا إلى دار الحريم حيث تلقانا طغمة من الجوارى والخادمات وتدعونا إلى الجلوس فى القسحة الواسعة الموفورة النور والهواء ، أرضها تختفى وراء البسط العجمية والطنافس الفاخرة ، والمقاعد والأرائك تدور فى جوانبها ، تتخللها الطاولات الصغيرة وعليها أدوات التدخين من علب اللفائف وأطباق صغيرة للرماد (منافض) . وعلى جدرانها تتألّق مياه المرايا العميقة الصافية . وقام فى وسطها خوانٌ كبير من الخشب المموّه بالذهب ، تتدلّى فوقه الثريا العديدة الشموع ، المنحدرة من السقف المصنوع من خشب الجوز ، المجمّل بالنقش والزخرف ، بل هى هبطت من صميم رسم مَثّل وردة كبيرةً تناوب فيها الحفر والتخريم بنتوء مستدير وسيم ، فكان النور خلال تلك التخاريم من جهةٍ إلى جهةٍ نفيذا .

هذه هندسة أكثر منازل الطبقة العليا وما دونها قليلا فى ذلك العهد ومابعدهُ حتى أوائل القرن العشرين . أما البذخ والترف فى بيوت الكبراء فيبدو فى اتساع الغرف والردهات ، وفى تعدُّد المقاعد والمرايا ونفاسة الأقمشة والثريات والطنافس . ولابد من قاعة أو قاعات للاستقبال . على أن السيدات يقابلن عادة فى هذه القسحة فسحة الدار ، كل شهور الصيف الطويلة . وهنا تنعقد اجتماعات الأسرة ، سواء فى الليل والنهار .

أقتبسُ هذا الوصف من كتاب الزوجة الأولى لصاحب الدولة حسين رشدى باشا . كانت تلك السيدة فرنساوية ووضعت كتابين بلغتها وقّعتهما باسم « نية سليمة » المستعار فوصفت فيهما المجتمع المصرى وعاداتهِ على ما أدركتهُ فى أواخر القرن الماضى . وإنما استندتُ على هذا الكتاب[1] لأن هدى هانم حرم شعراوى التى تفضلت فأعارتنيهِ مع الكتاب الآخر[2] قالت لى إنهُ أصدق ما قرأت من نوع هذه الكتب

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte" par Niya Salima

(٢) أما الكتاب الآخر فهو رواية "Les Répudiées" التى طبعت سنة ١٩٠٧ قبيل وفاة المؤلفة .

فى وصف العادات المصرية ، وأكثرها إنصافاً وأقربها إلى الواقع ، وإذا أضفنا إلى ذلك أن « نية سليمة » عاشت فى ذلك المجتمع وعاشرتهُ وأحبَّتهُ ، غير ضاربين صفحاً عن بطء التطوُّر الاجتماعى ، لا سيما فى الشرق وفى الأيام الخالية ، أمكننا أن نقول إن هذا الكتاب وإن أُنشىء فى أواخر القرن التاسع عشر فهو يقرب كثيراً إلى ما كانت الحال عليه فى أيام « عائشة » .

فلتكن إذن « نية سليمة » دليلتنا .

* * *

هى تقول لنا إن هذه السيدة الجميلة البشوشة التى جاءت مرحّبةً وجلست على المقعد قربنا هى ربة المنزل . أما أولئك النسوة الجالسات على « الشلت » فهاك خبرهنَّ :

« إنهن من المترددات على المنزل وليس لهن أن يجلسن قرب السيدات على المقاعد ؛ وإن كن أرفع قدراً من الخادمات الجاثمات على البساط أو على الحصيرة » .

« هن من الجوارى البيض المعتوقات ومن الجوارى السود اللائى حججن ، ومعهن الدلالات بائعات الأقمشة والبضائع . ومعهن المراضع وأخوات الرضاعة وقارئات القرآن وسواهن من النديمات ومن المختلفات إلى المنزل لأغراض شتى . يأتين ويجلسن القرفصاء كل اثنتين أو ثلاث على « الشلتة » الواحدة ويشتركن فى الحديث ويروين الأخبار » . أما الزائرات المهمات فتأتين ، وبعد كلمات الترحيب وتقديم لفائف التبغ تحضر القهوة التى يستغرق تقديمها من الزيارة زمناً . فالعادة فى الطبقة المتوسطة أن يؤتى بها مصبوبة فى الفناجين على طبق من الفضة . أما فى البيوت الكبيرة فيتعاون فى تقديمها ثلاث خادمات على الأقل : إحداهن تحمل الطبق يجلله غطاء مخملى مزركش وقد تهدلت من حواشيه الهدبات الذهبية والفناجين مصفوفة عليه ، وتحمل الخادمة الثانية إبريق القهوة فى شبه مجمرة فضية امتلأت بالرماد المتلظى . بينما الخادمة الثالثة تصب القهوة وتدور بها على الزائرات »[1] .

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

أما الأحاديث فهى طبعاً لا تختلف عن المألوف حتى اليوم فى الدوائر النسائية غير المتنورة و . . ربما المتنورة أحياناً . موضوعات لا تنفد مادتها كأنها الماء كلما غالبت فى الإسراف منه زاد تدفقاً وسيولاً ، وتلك الموضوعات هى الولادة ، والخطبة ، والزواج ، والموت ، وخصام الأزواج ، وخصام العائلات فيما بينها ، والثروة ، والاغتياب ، الخ الخ . ولكن يخيّل أن السيدات المصريات لم يكنّ يومئذٍ لتنطبق عليهن التهمة التى يحبُّ الرجال أن يلصقوها بالمرأة ، لأن « نية سليمة » تقول بجلاء إنهُ :

« ليس من الغريب أن يقطع الأحاديث غير مرة سكوت طويل وربة البيت لا تقلق من جراء ذلك ولا تجهد ذهنها للاهتداء إلى موضوع جديد. فقد حضرت مجالس سيدات قليلات التزوار فيما بينهن يظللن جالسات معاً دقائق طويلة ثم يفترقن دون أن يتبادلن غير كلمات التبجيل المبتذل والمجاملة الشائعة ذات المراسيم المسهبة والجمل المهلهلة. فهى تنطوى على تمنيات ودعوات صالحات يتيسر ترديدها مرات عديدة دون أن يكون فى ذلك غضاضة أو خشية الهزؤ والنكتة » . « ثم تأتى زائرات أخريات فتنهض صاحبة المنزل للاحتفاء بهن ويحذو حذوها الجميع ، فتلقى الواصلات الجديدات التحية ، ولكن ما أدق الفوارق فى أساليب التحية ! إنهن يقبلن يد السيدة المسنة ويدعونها « عمتى » ويقبلن وجنة مثيلتهن فى السن والمرتبة ويدعونها باسم « الأخت » العذب ، ويقابلن معارفهن الأقل مؤالفة بتحية « تركية » ، أما السيدات الأوربيات فيصافحنهن باليد »[1] .

إن اللائى يحضرن اجتماعات السيدات المصريات يعلمن أن وصف صنوف السلام مازال حيًّا بحياة الواقع فى أيامنا ، ولقد كانت دواماً ساعات السلام لى أوقات اغتباط ودرس ، أتبين فيها العادات الراسخة وأُحَلِّلُ أسبابها ما أمكن ، بيد أن هناك نوع سلام آخر يدخل فى الصنف الثانى الذى وصفتهُ « نية سليمة » إلا أنه يتجاوزهُ للإفراط فى التودُّد والتعاطف ، وهو ضم الخدّ إلى الخدّ مرةً بعد أخرى و إرسال

(١) "Harems et Musulmanes d'Egypte"

قبلات سريعة متوالية فى الهواء يسمع لها مصيص شائق كأنه تغريد طائفة خاصة من الطير ، وفيما يتعلق بالتحية « التركية » أو « اللاتوركا » كما يقولون فإنى أهتف مع « نية سليمة » .

كم من نبل وكياسة فى التحية التركية وكم تنويعها ميسور ! فاليد اليمنى تنفتح بهينة وبلا توتر وتستطيل فى تحدر أكثر أوأقل بعداً حتى ليصل إلى الأرض عند الضرورة ثم إن النصف الأعلى من الجسد الذى انحنى يعود إلى التقوم والاعتدال مسايراً حركة اليد التى تدنو من الفم أولاً ، ثم من الجبهة دون أن تمسها ، وتركن أخيراً إلى موضعها تاركة خلاء فى الهواء كما يترك مرور جناح الحمامة » .

والوداع يشبه السلام فتعاد عنده طقوس الاحتفاء والتبجيل ذاتها . أما التفصيل الحرى بانتباه خاص فهو أن السيدات اللاتى لا يرين مطلقاً أزواج صاحباتهن يحسبن مخلات باللائق إن لم يبعثن إليهم بالسلام مع زوجاتهم . وربة البيت لاترافق زائراتها بل تتقدمهن إلى الباب فيتبعنها »[1].

لطيف هذا ! ومعناه المشيّعة تسهّل لزائراتها السبيل وأنها تخرج من منزلها على نوع ما بخروجهن أو هى تودّع معهنّ شيئاً منها . وإنى لا وثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهنّ طرداً وتقتفى أثرهنّ لتكون على ثقة من ذهابهنّ والتثبّت بأنها تخلصت لحين ما من ورطة وجودهنّ .

* * *

هب أن هذا المنزل الذى زرناه الآن متبينين فيه بعض عادات ذلك العهد هو منزل إسماعيل تيمور باشا[2] ، وأن تلك السيدة ربة البيت التى رحبت بنا هى والدة «عائشة» « وهى جركسية الأصل معتوقة والدها إسماعيل تيمور باشا»[3] فأين «عائشة» الصغيرة نفسها ؟ أين الشاعرة العتيدة التى نلتفت اليوم لمعالم الأمس لننال لمحة من حجر نعمتها

(١) " Harems et Musulmanes d ' Egypte "

(٢) لقد هدم المنزل الذى ولدت وشبت فيه « عائشة » كما هدم المنزل الذى سكنته بعد زواجها وقام على آثار كل منهما أبنية جديدة

(٣) « الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور »

وما فيهِ من خطوط ألفتها فكان هيكل زفراتها وهديلها ! ألا فاعلم أن « عائشة » اليوم بنيّة صغيرة لا تحضر مجالس « السيدات » ولا تختلط بالزائرات إلاّ لتقبّل أيديهنّ إن كنّ من صديقات والدتها وقريبات أسرتها . وإذا شئت أن تراها فعليك بذلك المخدع المنفرد حيث تجدها مع أختيها .

(٤)

نشـــــأتها

مع أختيها ؟ إذَنْ بين فتيات ثلاث متقاربات سنًّا ، متماثلات حالاً ، كيف لنا أن نهتدى إلى ضالتنا ؟ لو عرفنا صورتها امرأة لاستدللنا بملامحها المتركّزة لنتبينها الآن بين أختيها لاعبةً لاهيةً — أو هادئةً رصينة كما كان وما زال كثيرون من الشرقيين يريدون لأبنائهم جاعلين لحداثتهم شيخوخةً ، مكبلين منهم البداهة على نوع ما فيحرمونهم مرح الطفولة الهنيء ، وذكريات الغفلة ، ونعومة البال . إلاّ أن الشخص الوحيد الذى فى وسعهِ أن يطلعنا على تفاصيل معيشتها ، أعنى شقيقها الجليل أحمد تيمور باشا[١] ، يفوتهُ من حياتها قسم وافر . لأنهُ ولد قبل وفاة والده بسنة (١٨٧١) يوم كانت «عائشة» فى الواحدة والثلاثين ، تعيش زوجةً وأمًّا فى منزلها بعيداً عن دار والدها لذلك رغم كل ما نلقاهُ عند سعادة أحمد باشا من الاستعداد لتلبية السائل ، فإنك لتراهُ أحياناً يتوقّف عن الجواب ريثما يراجع تذكاراتهِ ثم يقول ، ببسمة الأسف : « والله ما اعرفش » .

بيد أنى فزتُ منهُ بهذا الوصف الظريف فى إبهامهِ . « كانت لا طويلة ولا قصيرة ، لا بيضاء ولا سمراء ، لا سمينة ولا نحيفة » . أما عطوفة إدريس راغب باشا الذى رآها فى حداثتهِ فى زيارة والدتهِ فطنت هانم حرم إسماعيل راغب باشا[٢] فقد ردّ

(١) كان لعائشة أختان إحداهما توفيت فى حياتها وقد رثتها فى « حلية الطراز » ، والأخرى منيرة هانم تزوجت من على باشا آصف وتوفيت بعد وفاة الشاعرة .

(٢) تقلب راغب باشا فى المناصب وكان وزيراً غير مرة وانتهى بأن كان رئيساً لمجلس النظار ويظهر أن الأغا الحالى لحرم إدريس باشا كان عند التيمورية فى حياتها .

على استفهامى بقوله : « مش فى بالى تمام كانت إزّاى ولـكن كانت حلوة والله » . كذلك بعد مرور أعوام وقد تقدمت عائشة فى السنّ رأتها حرم شعراوى باشا تزور الزوجة الثانية لوالدها محمد سلطان باشا [1] وقالت لى : إن كلّ ما أتذكر منها أنها « كانت ستّ كدا ألا توركا » . مفهوم إنها لم تكن « ألا فرانكا » !

ولـكن أظننا بلا دليل ولا علامة قد نعرفها بمجرّد الاستسلام لهدى الفراسة . إن التى ترجح على أختيها بمثل مارجحت « عائشة » لابدَّ أن تحوى ملامحها منذ الصغر شيئاً يختلف عما يُرى فى وجه عادىّ للصغار . فنحبّ أن نتصوّرها طفلةً دمثة فى العاشرة من عمرها ، تنضح شفتاها المتوسطتا الحجم بطلاوة العاطفة وشوق المحبة . شفتان تهمان بالافترار لتذوّق المستطاب المستساغ من طعوم الحياة جاهلتين ما وراء ذلك من حنظل وغسلين . ونحب أن نتخيل فى العينين القاتمتين من معانى الشجن وغزارة العواطف ما يتفق مع معانى الوجوم واللذاذة فى الثغر . ونـكاد نرى تينك الشفتين تُحتمان بالخط اللطيف البارز بدقة كأنه حُفر حفراً ، الذى يُرى فى شفاه أهل الفنّ والذوق ، وفى شفاه بعض الشعراء . كأنهُ يشير إلى الأوزان التى سيضبط توقيعها العواطف المستفيضة الشاردة ، ويقتنص الزفرات الملتهبة المتدافعة ليسبكها فيما يظلّ منضّدًا على القرطاس نظيماً ، ويظلّ على شفاه الطروب من الناس شادياً .

* * *

من أين جاءت هذه الصغيرة بميلها المبكر إلى الـكتب ، وبوراثتها الشعرية والبيانية ، وميلُ جدّها جلىٌّ لحمل سلاح الجندىّ دون سلاح الـكاتب ؟ أمر لا تتيسرُ معرفتهُ ، إلّا للذى اطّلع على ما يجهلهُ كبير الأسرة الحالىّ ، أحمد تيمور باشا ، من تاريخ التيموريين قبل الهجرة إلى مصر . بيد أنَّ المعروف عن والدها أنهُ كان راغباً فى العلم والأدب . فألّف كتاباً ضمّنهُ خلاصة مطالعاتهِ محا كياً بهِ « سفينة الراغب » [2] ووضع لأسرتهِ تاريخاً باللغة التركية كان فى نية السيدة «عائشة» أن تنقله

(١) محمد سلطان باشا الرئيس الأول لأول مجلس نواب مصرى .

(٢) مؤلف هذا الـكتاب هو محمد راغب باشا تولى الصدارة العظمى فى الآستانة وعاش فى القرن الثامن عشر .

إلى العربية (نروى هذا عن أحمد باشا وقد أخبرتهُ به شقيقتهُ الشاعرة فيما بعد) . وجمع مكتبةً نفيسة تَشَتَّتَتْ بعد وفاتهِ كما تبعثرت أصول الكتابين اللذين لم يُطبعا . على أن لذلك الفاضل أجمل أثر يُحمَد فى تعليم ابنته والعناية بتثقيفها فى عصر ضنين على النساء بالتعليم والتثقيف . وإن « عائشة » لتذكُرهُ دواماً بالشكر والتحنان ، وترثيه بعد وفاتهِ بقصيدة ملأى بالعبرات :

أبتاه ، قد حش الفراق حشاشتى ... هل يرتضى القلب الشفوق جفائى ؟
يا من بحسن رضاه فوز بنوتى ... وعزيز عيشته تمام رخائى
إن ضاق بى ذرعى إلى من أشتكى ... من بعد فقدك كافلاً برضائى ؟[1]

ليس هذا من مألوف الشكوى والثناء . بل هو كان لها على الدوام نصيراً منذ الصغر فى جهادها ضدّ والدتها التى كانت تحثها على تعاطى أشغال الإبرة .

ولا يفوتنا أننا الآن — فى هذه النقطة من بحثنا — ما زلنا أيام كان أبناء العظماء ، حتى الملوك أنفسهم ، يتزوّجون من معتوقاتهم . ولطالما استهجن كتّاب الفرنجة هذه العادة ذاهبين إلى أن دماء العبيد تجرى فى عروق أكثرية الشعوب الشرقية . وما هى منهم إلا نظرة سطحية إذ ليس أولئك الجوارى دواماً من أصل وضيع . فمنهنّ الكريمات أسيرات الحروب . وقد قذفت حرب المورة ، مثلاً ، إلى مصر بكمية وافرة من بنات اليونان . ومنهنّ الشريفات المخطوفات . وبعد منهنّ الشركسيات يبيعهنّ الأهل مدفوعين بحبّ الرفعة والتقدُّم لأولادهم الذين إذا عاشوا فى جبالهم كان حظهم محدوداً . أما إذا انتقلوا إلى بلادٍ أخرى عن هذه الطريق فلهم أن يتعللوا بأكبر الآمال ويرتقوا أعلى المراتب .

لستُ مبرّرةً عمل الأهل ، إنما أنا شارحة إحساسهم . نعم إن كثيرين من أولئك الأولاد يحلُّون بيوتاً صغيرة يعملون فيها للخدمة فيجىء الإعتاق متأخراً ، ويكون الزواج فقيراً والجهاز ضئيلاً . ولكنّ الشرع الإسلامى شديد الرفق بالرقيق ،

---

(١) « حلية الطراز »

جمّ العناية بحاله . ثم قد يسعد الصبى فيصير « مملوكا » ألمعياً ، وتصير البنت « هانماً » غنيّة . ولهم أن يحلموا حتى بالعروش .

هذا من جانب الأهل . أما الأزواج فلم يكونوا يومئذٍ ليطلبوا فى المرأة سوى خصائص الصحة والجمال الجسدىّ وجودة البنية . فتزيد أو تنقص قيمة الجارية بقدر ما تحوز من تلك الخصائص . فيخرّجونها على أعمال معروفة كتدبير المنزل ، وأشغال الإبرة ، وفنون الرقص والعزف والغناء أحياناً . ويربّونها على عادات الكبراء وعلى طريقةٍ من الطاعة تتلاقى فيها الأنفة والإذعان .

وهناك سبب اجتماعى آخر فى مصلحة الجارية ، وهو كونها بكلّيتها لعائلتها الجديدة . يقول الظرفاء إن آدم كان أسعد الأزواج لأن حواء كانت « مقطوعة » فظلّ حياته فى نجوةٍ من صولات أهلها وجولات أنسبائها . والحق يقال إن من عيوب المجتمع الشرقى ذلك التطاول المرق الذى يسمونه « وحدة حال » أو « ياسلام ! الناس بالناس ! » وبه يستبيح بعض الأقارب والأنسباء ما كان يجب أن يحجموا ويقفوا دونه . مسلّمٌ أن البرّ بالأقارب حسنٌ ومحمود ، ولكن على شريطة ألاّ يكون ذلك باعثاً على إضرار العائلة وتنغيصها . وألاّ يكون معناه انتهاك حرمة البيت من ذلك الجيش الجرّار الذى تسحبه بعض النساء الشرقيات كأنه الهدية الواحدة من هدايا العرس المنقلبة ضربةَ لازب . جيشٌ يصير همه ابتداع الأكاذيب وتلفيق الروايات ، لاسيما إذا كثر الاختلاط وظهرت أسباب المنافسة والحسد . وإنما باعتدال المعاشرة (إذا مال إليها الطرفان) والاحتفاظ بعادات كلّ عائلة ، والسهر على استقلالها الداخلىّ وراحتها وأسرارها — إنما بذلك خير وسيلة لحسن التفاهم بين الأقارب وبقاء المودّة . أما التطاول والتهجم فمؤدّيان إلى القطيعة حتماً . إذ حسْبُ الإنسان صعوبة الحياة الفردية ليواصل الاختلاط بمن يزيد فى عيشهِ المصاعب والهموم . وقد بدأ الشرقيون يفهمون أن البنت عند زواجها ثمرةٌ نضجت فسقطت عن شجرتها . فأضحى أول واجباتها محصوراً فى العائلة الجديدة التى تنشئها ، كما تتقيّد البذرة بالثمرة الجديدة التى كونتها تنفيذاً لناموس الخليقة ، ولقد كان هذا الاستقلال العائلى ، وتقديس

حدود البيت والتفرُّغ للاعتناء به، والقيام بما يعود عليه بالرفاهية والهناء — من أكبر عوامل تقدم الأمة الإنجليزية . كما أن نقيضه فى كثير من الأسر الشرقية من أهم عوامل التقهقر ؛ إذ كيف يتقدم وينجح من كان فى حياته البيتية شقيا ؟

هذا ما كان ينجو منه زوج المعتوقة . وذكرت « نية سليمة » قول سيدة مصرية معتوقة إنها ستبتاع فى الأستانة زوجة لولدها لأن « بنات باشاواتنا كثيرات الغنج والدلال . أريد لابنى زوجة بلا حمو ولا حماة لأضمن سعادته[1] » !

يدرك ، والحالة هذه ، أن والدة « عائشة » لم تكن تفهم تشبُّث ابنتها بالكتب ، ويدرك أنها كانت تجدها شاذةً فتسأل الله عليها صبراً ولها معونة !

* * *

غير أن الأب الحصيف قريبٌ يسمع ويتبصر . فتقول لنا « زينب فواز » فى كتابها « الدرّ المنثور » إن الباشا عند ما رأى الجدل متتابعاً بين زوجته وابنته تفرَّس فى هذه النجابة وقال لوالدتها : « دعيها فإن ميلها إلى القراءة أقرب » . وأحضر لها اثنين من الأساتذة وظلَّ يعنى بها فما تمكنت من معرفةٍ إلَّا يسَّر لها الأخذ بأخرى . وتشهد لنا « عائشة » بفطانة والدها وعطفه فى مقدمة كتابها « نتائج الأحوال » حيث تقول إن والدتها إذ تراها عاكفةً على الكتاب والقرطاس كانت تأتى :

« وتعنفنى بالتكدير والتهديد فلم أزد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطريز إلا قصوراً ، فبادر والدى تغمد الله بالغفران ثراه ، وجعل غرف الفردوس مأواه ، وقال لها : « دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، ودونك شقيقتها فأديبها بما شئت من الحكم » ، ثم أخذنى بيدى وخرج بى إلى محفل الكتاب ورتب لى أستاذين أحدهما لتعليم اللغة الفارسية والثانى لتلقين العلوم العربية ، وصار يسمع ما أتلقاه من الدروس كل ليلة بنفسه . . . »

وهى تتبسط فى هذا الحديث فى مقدمة ديوانها التركىّ والفارسىّ[2] بكلام

---

(١) " Harems et Musulmanes d' Egypte "

(٢) إلى مدينة بترجمة هذه المقدمة الطويلة الشيقة لحضرة الكاتب المعروف محب الدين الخطيب المحرر بجريدة الأهرام وصاحب المكتبة السلفية . فقد عنى بنقلها رغم أعماله الكثيرة خدمة للأدب . ولولا همته هذه ما تمكنت أن آتى بكل ما أتيت به عن نشأة الشاعرة فى هذا الفصل .

مشوق ، لاسيما أنه أهم ما لدينا لمسايرتها فى نشأتها ، فتكرّر القول أن والدتها كانت تحثها على تعلم التطريز ورأيها « أن هذا المنسج هو أداة النساء وأستاذ المعارف لبنات حوّاء » . أما عائشة فلا تراهُ إلّا « كالهم العنيف » ، فتتابع :

« وبالرغم مما كان متأصلا فى نفسى من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة والحصول على رضى والدتى من جهة أخرى ، فإن نفسى ما برحت نافرة من المشاغل النسوية » ، « وكان من دأبى أن أخرج دائماً إلى قاعة منزلنا (السلاملك) فأمر بمن يوجد هناك من الكتاب لأصغى إلى نغماتهم المطربة ، ولكن أمى — أقرها الله فى رياض الفراديس — كانت تتأذى من عملى هذا فتقابلنى عليه بالتعنيف والتهديد والإنذار والوعيد ، وتجنح أحياناً إلى الوعود اللطيفة والترغيب بالحلى والحلل الطريفة أما أبى رحمه الله فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركى :

إن القلب لا يهتدى بالقوة إلى الطريق المطلوب

فلا تجعل النفس معـــذبة فى يد اقتدارك

فاحذرى من أن تكسرى قلب هذه الصغيرة وأن تثلمى بالعنف طهره وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق فلا تقفى فى سبيل ميلها ورغبتها . وتعالى نتقاسم بنتينا : فخذى « عفت » وأعطينى « عصمت » . وإذا كانت لى من « عصمت » كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لى بعد مماتى .

ثم وجه أبى خطابه إلى قائلاً : — تعالى إلى يا « عصمت » . ومنذ غد سآتيك بأستاذين يعلمانك التركية والفارسية والفقه ونحو اللغة العربية . فاجتهدى فى دروسك ، واتبعى ما أرشدك إليه ، واحذرى أن أقف موقف الخجل أمام أمك » . فوعدت أبى بامتثال هداه ، ووعدته على أنى سأبذل جهدى لأكون موضع ثقته ومحققة أمله[1] » .

فى مناقشة هذين الأبوين وتغلّب الأب فى النهاية ، أمثولة لكثير من الوالدين فى هذا العصر . فالأهل يقرُّ رأيهم منذ حداثة أبنائهم فى الغالب ، على السبيل

---

(١) « مقدمة الديوان الفارسى والتركى »

التى سيسلكون ، فيقولون : سنجعل هذا طبيباً ، وذاك محامياً ، والآخر مهندساً ، وأخاهُ تاجراً الخ ، ولو هم تفحصوا الميول والممكنات لربما وجدوا أن المحامى المزعوم لن يفلح فى غير الطبّ ، وأن المهندس خلق للتجارة أو للصحافة ، وأن الطبيب هيأته الطبيعة لبيع الأثاث القديم فى المزاد العلنىّ ، وهلمّ جرًّا . هذا عدا تعويد الولد لباساً وأساليب لا تتفق مع مقدرتهِ المالية ، وبثّ الأطماع الجنونية فيهِ حيث لا كفاءة ولا حذق يؤهلانهِ لتحقيق الغايات الكبيرة . كثير من شقاء العالم اليوم راجع لسوء تدبير الأهل ، فيصرف الأولاد الأعوام فى تلمّس السبيل مجهدين نفوسهم فى نيل ما ليس لهم ، معذبين الآخرين ، وكلٌّ قلقٌ حائر فى صراع الأنانيات لتركيز الحظوظ وتنظيم المعيشة .

أما شاعرتنا فقد نعمت بأبٍ يجمع بين الإدراك والمقدرة ، فسيَّرها فى الاتجاه الذى تطلب، نازعةً عن الإبرة التى تكره ، والمنسج الذى تقلى ، حتى إنها لا تذكر تلك الأشغال النسائية إلّا بالاستنكاف والاشمئزاز .

* * *

هنا ملاحظة صغيرة ، لأنَّ هذا القول عن «عائشة» سيزيد فى تعميم الخطأ الشائع وهو أن الفتاة إذا هى أحبَّت الدرس والعلم ، وإذا هى برعت فى معرفةٍ أو فنّ ، رغبت عن أشغال المرأة وترجَّلت ، وأنا أقول — وإنى لأعلم ماذا أقول — إنَّ هذا إلّا مذهبٌ طائشٌ غبين ، إنى أعرف فتياتٍ ونساء ينهضن من المسرَّات الأدبية والفنية ، بل ومن أعمق وأعوص النظريات الفلسفية ، إلى أشغال الإبرة والتفصيل ، بل إلى ما دونها من رفو ورتق ، وتدبير المنزل ومزاولة الطبخ ، فيجدن فى كلّ ذلك راحةً وسلوى ، ويُدخلن فى تلك الأعمال الوضيعة شيئاً من التفنن محوّلات ما فيها من خشونة إلى ضربٍ من الكياسة .

كذلك رأى طائش وغبين ذاك القائل إن الاطلاع والعلم « يرجّلها » ، إنها لتتضاعف بالعلم أنثويتها ، ومن السخافة أن يُنعى على المرأة المتعلمة التأنق والزينة

واللطف ، حتى إن صورة المرأة « المتعلمة » لتكاد تستحضر لمخيلة الناس عجوزاً دميمة متصلبة شرسة ، ولماذا ؟ أترى الرغبة فى تنوير الأذهان والتوق إلى حياةٍ داخلية سامية ، يعنى الزهد فى الدنيا ، والانقطاع عن العالم ، والانفراد للدرس والتحبير شأن الرهبان فى الأديار ؟

ثم أليس من الغريب أن الرجل إذا هو برَّز فى الشعر أو الفن أو الفلسفة ، تأنّث بعض الشيء ، بمعنى أنه يدقُّ فكرهُ وتصقل عواطفهُ ؟ فكيف تتحوَّر العوامل التى يتأنَّث بها الرجل فتكون عند المرأة مدعاةً للترجل ؟

لا أنكر وجود المترجلات بين المتعلمات ، والسبب أنهنّ بطبيعتهنّ كذلك ، وقد تجد المترجلات بين الجاهلات الغبيّات ، كما تجد بينهنّ من لايعنيها أمر بيتها ولا إلمام لها بتطريز أو بتفصيل أو بتنظيم ، شغلها الشاغل الزينة والثرثرة والانتقال من زيارة إلى زيارة ، وقد تكون كذلك دون ترجل ، وبالعكس . فإن لم تهتمّ « عائشة » بأشغال الإبرة فلأنها على غير استعدادٍ طبيعىّ لها ، ولو لم تحب الكتب والكتابة لما زاولت تلك الأشغال ، ولو زاولتها ما أتقنتها ، وذلك لم يقلل من عذوبة أنثويتها الخالصة .

وعلى كلّ فلنغبطها على الوصول إلى غايتها ، ولنصغ إليها تخبرنا باختصار كيف أنها منذ السابعة من عمرها إلى الثالثة عشرة صار دأبها التزام الانزواء ، « منكبة على دروسى أجتهد فيها فوق ما كان ينتظر أبى منى ، غير أن أبى لم يكن يأذن لى بالخروج إلى مجالس الرجال ، وتولى بنفسه تعليمى كتب البلاغة الفارسية مثل شاهنامة الفردوسى والمثنوى الشريف ، واختصنى بساعتين من وقتهِ فى كلّ ليلة أقرأ فيهما عليهِ »[1] .

هذا الأب الذى يعرف أن يكون أستاذاً وصديقاً معاً جدير بكل شكر وثناء

* * *

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى » .

أنت الشاعر ، أنت الأديب ، أنت الفنّان ، أليس أنك تذكر من أعوامك الأولى ظرفاً خاصاً ، أو مشهداً جميلاً ، أو كلمة محمّسة ، أو وجهاً محبوباً أهاج بلابلك ولفتك إلى نفسك ، وكأنه وسّعَ فيك أُفق نور وفتح فى جنانك بركان نار ؟ أليس أن لك ساعةً تفتّق فيها من نبوغك البرعم الأول ؟ .

ولعائشة مثل تلك الساعة ! ما هو الباعث فيها على الشعر ؟ هو الوجه الذى تسفر له المرأة المحجوبة : وجهُ الطبيعة ، حنّت الطبيعة ذات ليلة على الشاعرة الصغيرة فتولّدَت فى نفسها الفتية خوالج جديدة ورأت البدر منيراً والليل جميلا ، وكأن لصفحة السماء روحاً تحسُّ وتناجى ، دعها تلقى علينا حديث وحيها :

« فى خلال هذه المدة كنت أنظر فى دواوين الشعراء وأعالج النظم بالأوزان السهلة . وفى إحدى الليالى جاءتنى مربيتى بباقة وردٍ وضعتها فى مشربيتى . وكانت الليلة ليلة البدر ، ففيما أنا أمتع ناظرى بذلك المنظر دعتنى أمى إليها ، فجعلت باقة الورد فى أمانة البدر ، ثم عدت من عند أمى فوجدت الباقة مبددة فأحزننى ذلك كثيراً . ووضعت ناصيتى فى كفى ، وأخذت أفكر فجادت قريحتى ببيتين من الشعر الفارسى[1] »

ألا يحلو لك تيقظ العاطفة على هذا النمط ؟ أتبصر معى تلك الطاقة النضرة فى نور القمر ، والبُنيَّة تستعطف البدر لأجل ما تحب ؟ ثم تعود ترى البدر غافلاً ، وطاقة الورد مبددة ، وتوسلها هباء . . .

رمزٌ يا عائشة ، رمز إلى مافى الحياة الممتدة أمامك ! فلا ماهو موضوع الإعجاب والرجاء ليستجيب ، ولا ماهى نضرة الأزهار لتبقى ، وإنما الإنسان هو الذى يثق ويبتهل ، ويخيب ويحزن ، فيؤدى به ذلك إلى تجربة مرّة ، أو عاطفة جريحة ، أو اختبار قاس ! .

ذلك وحيها الأول ، وهو منظر مازال غنىّ الوحى لقرائح الشعراء ، ومخيّلات العاشقين ، بل لجميع القلوب الحساسة ، ولكن لنصغين إلى بقية الحديث :

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى » .

« وعندئذ دخل علىّ أبى ، فرأى ما بى من الحزن وسألنى عن حالى ، فأنشدته الشعر وأنا فى خجل وحذر ، وإنما كنت كذلك لأن أبى كان كلما رأى فى يدى ديوان شعر يقول لى : « إنك إذا أكثرت من مطالعة الشعر الغزلى فسيكون ذلك سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك » .

أما الآن فإنه لما سمع شعرى أعاد كلامه الأول وزاد عليه قوله : « إن الشعر إذا لم يكن باللغات الثلاث : العربية ، والفارسية ، والتركية ،لا تكون له حلاوة » .

ثم قال لى: « إذا أتممت الكتب التى بدأت بها سآتيك بمعلمة تعلمك العروض وإنى أتوسم فيك السرعة في تعلمه ما دامت عندك هذه الرغبة » . فأجبته بأنى قد حصلت على قليل من معرفة النظم باللغات الثلاث ، فطلب منى أن أنظم قطعة من الشعر ، فقبّلت ذيله وانزويت فى غرفتى ، ففتحت كتاب المثنوى الشريف مستمدة من روحانية ناظمه ، وبدأت أنظم على وزن شعر الرباعيات الذى مطلعه :

* عزم ديدار تودار دجان ما * [1] »

نظمت هذا الشعر باللغات الثلاث : الفارسية ، والعربية ، والتركية ، وأنشدتهُ والدها ، فضمها إليه وقال :

« إن ما فيه من غلطات اللغة وسقطات القافية ستدركينه بنفسك فيما بعد ، وإذا بقينا أحياء إلى العام القادم فإنى سأدع الكتب التى أقرئك إياها وأجعلك تبدأين بقراءة متن (الكافية) » . ولكن لم يحل العام القادم بعد طول الانتظار حتى تقيدت بقيد الزواج »[2] .

بهذه الكلمات القليلة ذات الروح الجديدة فى قدمها ، تخبرنا عن نفسها إلى حادث الزواج الذى لاتذكره إلا بكلمة واحدة ، ومن ثم تنتقل فى تلك المقدمة إلى الكلام عن ذاتها بعد مرور عشر سنوات على زواجها . أما أنا فعند هذه الكلمة الوحيدة التى تغير حياة الفتاة بكليتها ، أقف طويلاً وأتأمل ، وكم كنت أودّ استطلاع

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى .

(٢) مقدمة الديوان التركى والفارسى .

ما شعرت به عند ما أُبلغت أنهُ تمَّ اختيار ذاك الذى سيكون زوجها ، أىّ عواطف جاشت فى نفس تلك الشاعرة الصغيرة ؟ أى حنان وخوف ، أى صبابة وإجفال تناوبت على قلب ناظمة تلك القصيدة التى روت لنا الآن حكايتها مع أبيها ، فجعلت هذه الأبيات العربية بين الأبيات الأخرى من تركية وفارسية :

ياشهىّ الذات ياحلو الاما ضاع عمرى فى عسى ولعلّما
إن عددت النوح منى طالما قد جرى دمعى بخدى عَندما

إن سقى دمعى الثرى لست الملوم مذ سقانى العبد مقدور الظلوم
ذقت حبًّا والهوى نارالسموم فاطفِ زفراتى ، بخلاق السّما

متُّ حرصاً فيك إن قربتنى ودنا أجلى إذا أبعدتنى
إن حرمت الأنس أو آنستنى فعلى كلّ جوابى أينما

هذا ما قالتهُ وهى فى الثالثة عشرة قبل أن تطلق لعواطفها العنان ، وقبل أن « يُرَخَّص لها رسمياً » أن تتخذ لنشيدها موضوعا حيًّا ، فأىّ الأناشيد تغرّد الآن فى القلب الصغير إذ ترقب « وجههُ » من وراء النافذة وهو داخل ؟ وإذ ينقلون إليها أخبارهُ ؟ وإذ تتصوّرهُ وتفكّر فيهِ اليوم وهو بعيد ؟ وإذ تفكّر فى الغد حين تكون معهُ ؟ ليتها دوّنت لنا يومياتها فى ذلك العهد ، إذن لتمتّعنا بتأثرات ولذّات بريئة شهية ! .

. . . ولكن لقد أُغفلت الكتب ، وأُسلمت الكراريس للغبار والسكون ، ولهت التلميذة المجتهدة بتهيئة الأثواب الجميلة الزاهية والحلى المتألقة الغالية . الأيام تحدو الأيام سراعاً فى إتمام معدّات العرس . ولقد أقبل أخيراً اليوم العظيم ، يوم تتفتح السماء فوق المرأة مرسلة إليها قضاء السعادة أو قضاء الشقاء .

وهاهى ذى بطلتنا الآن ليست شاعرة ، بل هى عروس شعر فى بهجة أعوامها الأربعة عشر ، تنجلى على عرش الصبا والرواء والحبّ . الأمل يزهو على شفتيها ، والتأثر يلهب خديها ، والرغد يبسم فى نظراتها ، ويخافون عليها عين السوء فى مهرجان

الفرح فيذرُّون فوقها وحواليها حفنات الملح ، كما تُذَرُّ فى القاعة حفنات النقود للبائسين .

هاهى ذى تسير فى موكب العرس إلى بيت عريسها ، يتقدمها ثُلَّةٌ من البوليس وأخرى من الفرسان ، وحملة الشموع والأزهار ، والموسيقى الوطنية الشجية بألحان الناى ونقر الطبول ، تتبعها مركبتها المجللة بنفيس الأقمشة ، ووراءها خط طويل من مركبات المدعوّات .

هاهو ذا بيت الفرح تحفق حولهُ الأعلام المصرية الحمراء ، وتلمع بينها عديد المصابيح الملونة . . . هاهم وصلوا ، ووقفت مركبتها . . . وقد جاء الخاطب يستقبل عروسهُ ويقودها بيدهِ إلى مخدعها وسط جلبة المدعوّات ، وتراكض الخدم والأغاوات والأصوات والزغاريد الممزقة الهواء .

وبينا هى تبدل أثوابها وتخرج إلى قاعة الفرح لتحضر دوراً آخر من الرقص والغناء يذهب الزوج الفتى « بزفة » إلى الجامع بين أصحابه لتأدية فريضة الصلاة . ولكن ها هو قد عاد ، وجاء يقابل عائشة التى تنزل عن درجات عرشها (كوشا) وتقف مرتعشةً مسدولة الخمار ، فى انتظار إتمام الطقس المألوف . . . الفتى يجثو للصلاة ، ثم ينهض ويدنو من الفتاة ، فيرفع الحجاب وينظر فى وجهها للمرة الأولى ، ويشبك على صدرها حليةً ثمينة فتقبل يده شاكرة ويردّ هو على هذه القبلة بقبلةٍ على جبهتها ، ويلقى بحفنةٍ من النقود إلى من بقى حولهما من النسوة ، فتختفين ، ويصعد العروسان إلى (الكوشا) فيجلسان دقائق ، ينتقلان بعدها إلى مخدعهما حيث تستهلّ الفتاة تأدية واجباتها الجديدة بتقديم كأس ماء لزوجها فيشرب[1] .

وهنا نترك الشاعرة وشأنها تحيا قصيدة ليست هى نظماً ولا نثراً .

---

(١) مازالت حفلات الأفراح فى المجتمع المصرى على هذا فى العادات الأساسية ، والتغيير القليل الذى يحصل بمقتضى الاحوال لا يشينها ولا يبدل معناها .

(٥)

بعد الزواج

تزوجت «عائشة» فانتقلت بالزواج إلى عالم جديد لهُ مايرافقهُ من حرية ومسؤولية ، وما يخالطهُ من مسرّاتٍ وغموم . ولكان يشوقنا أن نقف على وقع هـذا الظرف الخطير فى نفسها ، وأن نستشفّ اللون الذى بدتْ لها الحياةُ بهِ بعد أن اختلفتْ فى بعض جوهرها عن حياتها فى بيت أبيها .

ترى أكان لها من هذا الانتقال مستطابُ الأثر أم مستنكفُ الخبر ؟ أكانت بهِ محظوظةً أم مغبونة ؟

حسن أن نعلم ، بفضل « الدر المنثور » ، أنها « هنالك اقتصرت عن المطالعة وإنشادِ الأشعار والتفتت إلى تدبير المنزل وما يلزم لهُ خصوصاً حينما رُزقت بالأولاد والبنات » . ولكُنّا مضينا على تخمين ذلك وإن لم نُخبر بهِ لأنهُ أمرٌ طبيعىّ . أمرٌ طبيعى كذلك أن يسوقها كسواها عبابُ الحياة اليومية متشابهاً للجميع بمادّتهِ ، وأن تغاير حتماً لكلّ امرئٍ بتغاير مزاجه وبتفاعل هـذا المزاج والأحوال التى تعالجهُ ويعالجها . أما ما ولّدهُ هذا الانتقال فى الشاعرة من خوالج ، أما نسيج شعورها فى تلك الأعوام السحيقة فذاك ما يظلّ مغلقاً علينا لولا لمحات نسترقها فى ما كتبت ، ولولا القليل الذى ترضى أن تُلقى بهِ إلينا فتقول :

« وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادى — وهى « توحيدة » نفحة نفسى وروح أنسى — قد بلغت التاسعة من عمرها ، فكنت أتمتع برؤيتها تقضى يومها من الصباح إلى الظهر بين المحابر والأقلام ، وتشتغل بقية يومها إلى المساء بإبرتها فتنسج بها بدائع الصنائع ، فأدعو لها بالتوفيق شاعرة بحزنى على ما فرط منى يوم كنت فى سنها من النفرة فى مثل هذا العمل . ولما بلغت ابنتى الثانية عشرة من عمرها عمدت إلى خدمة أمها وأبيها فضلا عن مباشرتها إدارة المنزل

ومن فيه من الخدم والأتباع ، فتسنى لى أن أنصرف إلى زوايا الراحة »[١]

إذا نظرنا إلى «توحيدة» بعينى أمها وجب أن نسلم بأنها فتاة غير عادية . وسيكون لها من محبة والدتها نصيب فوق نصيب كلّ من إخوتها وأخواتها ، فتكون بذلك أقدر على إنالة من تحبها الهناء أو الأسى . لأنه إذا أظفرَنا الذين تبوأوا من قلوبنا المرتبة الأولى بصفوة الغبطة والاستمتاع ، أليس كذلك يأتى عن يدهم أدهمُ ما تتساقط لهُ المهج حسرةً ؟ و بسبب « توحيدة » هذه ستبكى « عائشة » كثيراً ، كثيراً .

***

كانت قبل الزواج قد اقتبست عن «مؤنس افندى» القرآن الشريف والفقه والخط ودرست على أستاذ آخر — خليل افندى رجائى — علم الصرف واللغة الفارسية التى سبق فعلمنا أن والدها تولى متابعة تلقينها إياها قبيل زفافها ، مكرساً لابنتهِ كل يوم ساعتين من وقتهِ . ثم تلت أعوام جاءت فى مطلعها «توحيدة» التى شبّت فطنة الذهن يقظة الفؤاد ، فحملت على منكبيها الفتيين تبعة الإدارة المنزلية والتنظيم . فانقلب يشاغلُ « عائشة » ذلك الشوقُ القديم ، وعاد إليها بقوّةِ الحبِّ الذى ساير عمرها فى الحزن والفرح — حبّ الدرس والمطالعة . و . . .

« حينئذ خطر لى أن أستأنف ما فاتنى فى صغرى من تعلم فن العروض ، فجئت بمعلمة » ... « ولكن لم يمض على الشروع فى الدرس ستة أشهر حتى انتقلت المعلمة إلى رحمة ربها . وكانت بنتى تلازم دروسنا تلك المدة فاستطاعت — بسبب حداثة سنها وتوقد ذهنها — أن تلم بفن العروض أكثر من إلمامى به[٢] » .

«توحيدة» مرّةً أخرى ! ترى لماذا تشغف الشاعرةُ بذكرها ، والإشادة باسمها و إظهار محاسنها ! ألما تنطوى عليه من توقُّد وذكاء ؟ ألأنها جاءت العالم و « عائشة » حديثة السنّ فكانت الأمُ لابنتها — فيما كانتهُ — أختاً كبيرة ، وكانت البنت لوالدها أختاً صغيرة ؟ ألأنها رفعت عنها عبء التدبير المنزلىّ ، وكانت فى الوقت

(١) ، (٢) « مقدمة الديوان التركى والفارسى »

أقرب أولادها إلى تفهُّم ذوقها وميولها ؟ أم لاجتماع هذه الميزات فى «توحيدة» الواحدة بعد كونها المولود البكر — تلك الميزة الأولى — وبحبّها ذاقت الشاعرة لذة الأمومة للمرّة الأولى ؟

يتعلق بعض الأهل — لاسيما الأمهات — كلَّ التعلُّق بأبكارهم . ولئن أردف قومٌ من المدعوين بعلماء النفس الذين لا تطمئن منهم الخواطر إلاَّ إذا أوجدوا لكلِّ سيل جبلاً يصدمهُ — إن هذا التعلُّق يخفُّ بعد أعوام محدودة ، يوم يفتح الولدُ على الشؤون عيناً ترقبُ وتبرز من شخصيتهِ الخصائصُ المستقلة ، وإن جماعة من الأمهات يُداخل حبهنَّ عندئذ بعض الكره والنكد لأنهنَّ يرين فى بناتهن المنافسات والمسابقات . هذا إذا كانت الأمُّ من دعيَّات التأنُّقِ وعاشقات اللألاء الاجتماعىّ فى الأندية والحفلات .

لئن قال بعض السادة العلماء ذلك فإنَّ قولهم ينطبقُ على فئةٍ وتتملَّص منهُ أخرى تتملص منهُ وتحلّقُ فوقهُ فى جوّ المحبة والرحمة والدراية تلك الفئةُ الصالحة من الرجال والنساء المولودين ليكونوا آباء وأمهات ، لأننا هنا أيضاً نجد المختارين الصميمين ، وعلى مقربة منهم يدبُّ الدخلاء ويتحرَّش المتطفلون . والحالة الوالدية — كأية حالة : حالة طبيعية أو اجتماعية سواها — إن هى كيّفت الأفراد فهى لا تكيّفُ منهم سوى فطرتهم بجبلتها ورغباتها وميولها . لذلك هى لا تبدو بأسنى مظاهرها وأبقاها إلاَّ فى الشخصيات المهيَّأة لها .

و«عائشة» مهيأة لذلك على ما نرى من ولعها بتوحيدة — توحيدة الآلة القادرة التى تتحوّل بواسطتها رواكد العاطفة الوالدية عند الشاعرة تياراً دافقاً . فهى تحب منها المواهب والحسنات وتخلق للعيوب الهزيلة تفسيراً لا يهتدى إليهِ ، ويترجمهُ بهذا اللطف ، إلاَّ من استنار بنور الجنان .

هاك مثالاً لذلك :

الفتاة التى كانت تقوم بإدارة المنزل ورقابة وضيع أعمالهِ الداخلية كانت — على

ما يلوح — لا تقصر دون إتقان أعمال أخرى تقتضى بعض اللباقة ، كاستقبال الزائرات والاحتفاء بهنّ .

فجاءت يوماً بعض السيدات (ويظهر أن الغرض من زيارتهنّ أن يخطبنها ، وهى تجهل ذلك) فخفّت « توحيدة » ترحب بهنّ ريثما تأتى والدتها ، وقالت ملاطفة بموجب الطقس المألوف : «أوحشتونا» إلاّ أنها كان بلسانها لثغةٌ خفيفة قضت بأن تجىء أوحشتونا « أوحستونا » ! وهنا دخلت السيدة « عائشة » فسمعت الكلمة التى حرّفها العيب اللفظىّ ، فمضت تشرح ذلك العيب على هذه الصورة :

قال العواذل مذ قالت مؤانسةً « أوحستنا » إنها تجفو وذاك غلطْ
لم يبدل الشين سيناً لفظها غلطاً بل لم يسع ثغرها الزاهى ثلاث نقط[1]

ومرّت على الشاعرة فترة — تقول زينب فواز — فقدت خلالها والدها (سنة ١٨٨٢) ثم زوجها بعد ثلاثة أعوام ، وصارت حاكمة نفسها ، فأحضرت لها اثنتين لهما إلمام بالنحو والعروض ، إحداهما تدعى فاطمة الأزهرية ، والثانية ستيته الطبلاوية وصارت تأخذ عليهما النحو والعروض حتى برعت وأتقنت بحوره وأحسنت الشعر ، وصارت تنشد القصائد المطولة ، والأزجال المتنوعة[2]

يجوز الاعتراض هنا بأن «عائشة» نظمت كثيراً قبل تعلم النحو والعروض على هاتين السيدتين ، فقد طالعنا فى ديوانها مثلاً قصائد الترحيب بميلاد أخيها ، وتأبين والدها ، وغير ذلك ، وجميعهُ وقع قبل أن تبرع فى الشعر وتتقن بحورهُ . ومن هنا نستنتج أن استفادتها من قليل الدروس السابقة كانت غير هزيلة .

ولكن ، أليس أن ضوابط النظم تتعلق بالموسيقى السمعية أكثر منها بالقواعد المدوّنة ؟ والواقع أن هذه القواعد لم تكن إلا تقريراً محسوساً لتلك المطالب الدقيقة التى تجهر بها حاسة السمع ، فتلبيها أفراد الطائفة الواحدة كلٌّ من جانبهِ على غير

(١) روى لى هذه الحادثة الصغيرة توفيق بك إسكاروس الباحث الأديب نقلا عن فضيلة السيد البيلاوى وكيل دار الكتب المصرية سابقاً ونقيب الأشراف الآن .

(٢) « الدر المنثور »

تعاهدٍ مع الآخرين ، حتى إذا أجمع كثيرون على أمر واحد عرفوا أنه حاجة أولية فعرّفوهُ بياناً ، ودوّنوه قاعدة ، ترجع إلى حكمها الأجيال من هذه الطائفة ؛ لا لأنها (حكمٌ) ، بل لأن هذا الحكم يترجم عن الحالة النفسية التى نشدتها حواس الشعراء فى الماضى وستنشدها على الدوام ، لذلك نرى أن شعراء جميع البلدان فى جميع العصور أوجدوا فى مختلف اللغات — غير متحالفين فيما بينهم وجاهلين بعضهم بعضاً — بحوراً للشعر وأوزاناً وضوابط موسيقية ذات وقع لفظيّ فى النفس (حتى لمن لايفهم اللغة) بينما المعنى الشعرى يحبو النفس بوقعهِ الخاص . وعوارض المغالاة والإغراق والتمسك بصيغة النظم دون المبالاة بالجوهر ، طوارئ تداهم اللغات تبعاً لحالات الأقوام ، ووفقاً لنواميس الاجتماع ، إلا أنها لاتنقض من الشعر دعامتهُ الموسيقية المؤثرة .

كذلك قد يعترض بعضُ أهل الذوق اعتراضاً خافتاً على أن معلمة العروض تُدعى . . . الطبلاوية ، قائلين إنهُ على التى تعلّم علم الأوزان الشعرية أن تنتحل لها اسماً يتفقُ مع عملها ويوحيهِ للسامع . ولكن ، أليس للطبل من موسيقى ؟ وإن لم يكن للطبل شدو اللحن والنغم ، أليس أن لهُ موسيقى الفصل والوقع والتعريف ؟ والسيدة الطبلاوية لم تكن تُلَقّن الشعر ، وهو ليس بما يُتَلَقّن ، بل تعلّمُ كيفية التمييز بين اتزانه وانكساره ، فاسمها بهذا متضمن لعلمها وعملها .

وسواء رضى أهل الذوق لهذا الشرح أم لم يرضوا فليذكروا أنه أمرٌ فائق أن يوجد بين السيدات الشرقيات من يستطعن فى ذلك العهد المُظلم للنساء أن يدرّسن هذه الدروس ، فى حين أن من يستطعنهُ اليوم نادرات بيننا وقليلات عند الشعوب الأخرى . أذكر أن كاتباً فرنسوياً كبيراً (أظن الفرد كابوس Alfred Capus ندَّد قبيل الحرب فى مجلة « فمينا » بالسيدات الفرنساويات ، لأنهنّ بعد إحصاء فئة من المتعلمات بينهنّ ، ظهر أن العارفات بقواعد النظم وأصول البحور الشعرية ، يكدن لايبلغن الخمس فى المائة ، فما أعظم فضل تينك السيدتين الأزهرية والأخرى ، ولو كانت الطبلاوية ، بما كانتا تعرفان ، وبأنهما أضافتا إلى مصباح « عائشة » زيتاً يعين على تغذية نوره ! .

بيد أنّ تمتُّع الشاعرة بالابنة المحبوبة لن يطول . قُدّر على « توحيدة » أن تموت باكراً فى ربيع الصبا ، علّة مجهولة ترقبها وتنفثُ فى جسدها ، وهى تكتم أمرها رفقاً بالتى تحبّها . وهاهى تسردُ لنا طرفاً من حديثها المحزن :

« قبل أن تنطرح على فراش المرض فاجأتها فى أحد الأوقات وهى فى رداء نومها و بين أناملها قلم تكتب به القطعة العربية الآتية :

اسمع مقالى يا أريب ... وقصتى شرح مريب
قد كنت فى دوح الصبى ... أهتزُّ كالغصن الرطيب
أصبحت حالى عبرة ... يبكى على مثلى الغريب
كلا ، ولا لى منهل ... أروى به إلا النحيب
فالدمع منى ساجم ... والرمس أضحى لى قريب
يا رب عجّل رحلتى ... واغفر ذنوبى بالحبيب

فلما رأتنى مقبلةً عليها دست رقعة الشعر تحت وسادتها بسرعة ، ولكنى بادرت فى الحال لأستخرجها فاختطفتها منى . ثم خاطبتنى قائلة : لانعبأى يا أمى المشفقة بمثل هذه الثرثرة . ثم قالت لجاريتها : خذى هذه الورقة فاحرقيها ، فلحقت بالجارية وأخذت الورقة منها وألححت عليها بالسؤال فأجابتنى : إن سيدتى تتناول الطعام معك إذعاناً لرأفة أمومتك ، ولكن الطعام لايبقى بعد ذلك لحظة فى جوفها وهى تذهب كل ليلة إلى سرير نومها تطميناً لقلبك غير أنها لايغمض لها جفن . . . »[1]

إن نحن وجدنا هنا دليلا جديداً على لطافة « توحيدة » وحرصها على راحة والدتها فلا يسعنا إلا التعجب كيف أن الأم الشديدة الحب لم تلمح على وجه ابنتها أمارات المرض . نتعجب — لولا الاستدراك بأن التى ترى أن ثغر « توحيدة » الزاهى لايسع ثلاث نقط فيقلب الشين سيناً . قد تعثر بسرعة على عذر شعرىّ يكتفى به قلبها لكل تغير وكل شحوب .

---

(١) مقدمة الديوان التركى والفارسى .

أمّا وقد ثبت أن الفتاة مريضة حتى لترثى نفسها ، فهاتوا الأطباء ، وهاتوا العلاجات وبالغوا فى الاعتناء والمداواة ! . إلا أن المقدور نافذ لامحالة . والمريضة تعلن ذلك وتلقى على والدتها كلمات التعزية والتشجيع . إنها أقبلت على عالم السر والرهبة ، فاستمدت منه الحكمة التى تهبط على كل من حاذاه ، واستلهمت الغيب إرشاداً للمتخلفين فقامت ، وهى الصغيرة وهم الكبار ، تعظهم بسطوة الراحل وحقه على النصح والتوديع الهادئ :

« عبثاً تدفعك الشفقة يا أماه إلى معالجة أمراضى ، فإنه قد آن الأوان ، ولامناص من تلبية نداء المنادى « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وإنى أضرع إلى الله أن يلهمك صبر أيوب ، وأن يمنحنى نعمة رضاك فيكون ذلك سبب الرحمة لى والتجاوز عن سيئاتى ، وأن يصون شقيقتى و إخوتى »

ثم ضمتنى إلى صدرها فاعتنقنا ، و بتنا ليلتنا إلى الصباح فى بكاء وانتحاب ونواح[1]

قضت « توحيدة » ، فأقامت لها الأم مناحةً دامت سبعة أعوام متوالية ، فأضعف البكاء نظرها وأصابها لرمد . وهنالك كثرت لواحيها وعواذلها من أولادها وصويحباتها وأخيراً سمعت قول الناصحين وقللت شيئا فشيئا من البكاء والنوح ؛ حتى شفاها الله من مرض العيون[2] . وهذا نص خبر ذلك الشفاء من قلمها :

« أصبح جسمى الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة أتعابى وأوصابى ، ثم أنعم الله علىّ بالشفاء ، وأشرقت ظلمات كآبتى بنور وجود ابنى محمود ، فكان فرحة بيت الحزن »[3] :

يخيّل أن هذا الفتى محمود شب على شىء من ميول « توحيدة » ، وكأنه قد صمم على أن يقوم ببعض ما كانت تقوم به أخته الكبرى ؛ ليفوز بتعزية والدته ويربح محبتها الخاصة . ويظهر أنه نجح ، لأنه هو « فرحة بيت الحزن » الذى شرع ينصح

---

(١) « مقدمة الديوان التركى والفارسى » .

(٢) الدر المنثور

(٣) مقدمة الديوان التركى والفارسى .

ويواسى ويذكر الأم الحزينة بالآية الكريمة : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » . وهو الذى طلب أشعارها العربية ليجمعها ، وأشعارها التركية ليطبعها ، « فتكون أثراً من آثار براعتك وفصاحتك » [١] . فقالت :

« فى استطاعتى أن أنظم الآن شيئاً من الشعر شكراً لله تعالى على ما وهبنى من النعم . أما أشعارى الماضية فكنت قد أحرقتها كلها ، ولا أظن أن فى مكتبتى إلا الشىء اليسير منها بالعربية والتركية . وأما أشعارى الفارسية فإنها لما كانت فى محفظة فقيدتى فقد أحرقتها بمحفظتها كما احترق كبدى .

« إن أمك يا بنى لم تبق عندها الآن رغبة فى قراءة شىء من كتب الأدب » « وسأنصرف إلى الانكباب على تفسير القرآن ومطالعة الحديث النبوى ، وإنى وهبتك ما عندى من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت » وإذا « رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها [٢] » .

وكان ميل « محمود » شديداً — وكل ابنٍ لأمٍّ ذكية يدرك ذلك — إلى إظهار فضل والدتهِ بصورةٍ عامة . فنشر الكتب وكان لهُ بذلك علينا حقّ الامتنان .

* * *

فى عنوان هذا الفصل « بعد الزواج » شبه وعدٍ بشرح أحوال غير معروفة وتبيين دقائق غامضة . وها أنا لم آت إلاَّ ببعض الخطوط الكبرى التى استطعتُ تناولها . بيد أن الشرح لا ينتهى بانتهاء هذه الصحيفة . وعندما ننظر فى شعر « عائشة » ونثرها وآرائها نظلُّ نماشين تسلسل الأيام والأعوام فى حياتها . لأنَّ كلَّ ما لدينا منها دوَّنتهُ إلاَّ القليل بعد الزواج .

يخيَّلُ أن آجال الأفراد عموماً تخضع لمقدَّرين أكبرين اثنين : أحدهما مداومة السير واستمرار التتابع ضمن حدودٍ طبيعيَّة وفى دائرة قوانين محتومة . والمقدَّر الآخر

---

(١) و (٢) مقدمة الديوان التركى والفارسى .

هو أن يعمل المرء طول حياته — مع بعض التغير فى أنواع العمل بمقتضى الأطوار المختلفة — باختيار مسيَّر — إن صحَّ الجمع بين هذين النقيضين . وكأنَّ العمل ينجز هو الآخر ضمن حدودٍ ضُربت لهُ وفى دائرة قوانين لا يخرقها إلاَّ مستهتراً مفسداً على نفسهِ إمكان المعيشة .

جداول جداول تجرى أعمارُ الأفراد نحو ما وراء الموت ممَّا لا يُحَدُّ ولا يُدرك . جداول يسيطر عليها ذانك المقدّران الشاملان فى المرض والعافية ، فى الفرح والترح ، فى الأمل والقنوط ، فى الرغبة والاشتياق ، فى المحبة والكراهة . والأصوات المختلفة المتصاعدة بتأثير هذه العوامل تكوّن شدو الجداول البشرية ، ذلك الشدو المطرب المشجى . وهذا الجدول من عمر «عائشة» هو الذى سنسمعهُ شادياً فى ما يلى بإبهام كلّ خريرٍ ، ولذّة كلّ قديم ، وتبشير كلّ رائد . .

(٦)

بيئتها الاجتماعية

ترى هل الحاضر إلاَّ خلاصة ما أنمتهُ الحياةُ واستهلكتهُ من المطالب والجهود ؟ وما هى البيئة إن لمْ تكُنْ تلك « الخلاصة » منظَّمةً بيدِ الإنسان وبمشورتهِ أومتنظمةً بحكم الأحوال والاسترسال ؟ وهل اليوم إلاَّ الماضى لغدٍ ، وهل يكونُ الغدُ إلاَّ ماضياً لبعد غد ؟

إنَّ كلَّ صباح وكلَّ مساء يأتيان بمجهودهما وخبرتهما ليضيفاهما إلى ذخيرة الماضى الفسيح ، وكلّ خيط من خيوط الزمان ينسج نسيجهُ فى رحاب ما يمرُّ ويتجمَّع ويبقى . وعند ما ننتقلُ من بيئةٍ إلى بيئةٍ ، ومن مكانٍ إلى مكان ، ومن آنٍ إلى آن ، لن نجد أمامنا إلاَّ صوراً مختلفة من صور الماضى الحىِّ فى كلّ حاضر وكلّ مستقبل .

فإذا ما ولد الطفلُ تلقَّتْهُ دائرة من دوائر الماضى التى تدعى « البيئة » ، فوجد فيها بداهةً ما يقوم بحاجاتهِ لأنهُ هو كذلك صورةٌ أخرى من تجمُّع الماضى . فلا غرو أن يقوم كل نوع بنوعهِ . ولا غرو أن تحتشد أسرارُ الحياةِ وتوجز فى البيئة التى هى صورة مصغرة من العالم . ولا غرو أن تكون ممثلةً للعالم وللحياة فى إغداق نعمها ومواهبها بلا سبب على بعض أسراها ، وتكون لآخرين أقسى مثالٍ للجور والتعسف والحرمان .

وليست البيئة من خصائص الإنسان . بل للجماد ، والحيوان ، والنبات بيئتها الموافقة لنموّها ، الملائمة لطبيعتها . إلاَّ أنَّ الإنسان قد يكون فى بيئتهِ الحسية يقوم بكل فرائض مرتبتهِ الاجتماعية ومطالبها ويُعدُّ فيها من السعداء أو من البؤساء ، ويظل فى داخله شاعراً بشعور غير هذا الذى يحسبهُ الناس عليهِ ، ويرتّبونهُ بموجبهِ . قد يكون جائعاً وهو يقيمُ الولائم ، سائراً فى القفار وهو يتخطَّرُ فى الحدائق ، مستعطياً متسوّل الفكر والعاطفة وهو كثير الفضل والمنح . وعلى نقيض ذلك قد يشعر بأجنحة الحريّة تصطفقُ فى نفسهِ وهو مكبَّلٌ بالقيود والأصفاد . وقد يلمس مكمن مقدرتهِ وهو فى أدنى دركات العجز . وقد يتّضحُ فى وجدانهِ أعلى نهج للمعرفة والحكمة وهو أميٌّ جاهل لا يدرى ، بموجب تعريف البشر ، الفرق بين اللغة والفنّ ولا ماذا يميّز بين الموسيقى والكيمياء .

البيئة الاجتماعية هى دائرة الإنسان الاجتماعى . إلاَّ أنها لا يأبهُ لها الإنسان الحقّ فى الإنسان ، الذى كثيراً ما يحتاج إلى بيئة غير هذه ، ويختارُ أقاربهُ وعشراءهُ وأحبابهُ مختلفين تمام الاختلاف عن الذين تجعلهم البيئةُ والحياةُ أقاربهُ وعشراءهُ وأحبابهُ . وفى هذه البيئة المعنوية صورةٌ أخرى من الماضى الباقى . ولكم أتمتِ الحياة نفسها بحصر هذه المناقضات فى شخص واحد ! ولكم خلق الماضى لنفسهِ مستقبلاً جميلاً من لهف الحرمان ، وزفرات الأسى ، وتجمُّد الدماء التى لا تسيل !

* * *

و « عائشة » ابنة ذلك السرىّ الوجيه والموظَّف الكبير الذى ، بعد تقلب فى المناصب أيام عباس الأول وسعيد وإسماعيل ، انتهى بأن يكون رئيساً للديوان الخديوى — « عائشة » لم تفارق مرتبتها الاجتماعية بزواجها من محمد بك توفيق نجل محمد بك الإسلامبولى الذى كان حاكماً فى السودان . ظلّت فى تلك المرتبة تتمتَّع بما هيأت لها بيئتها من رغد حسىّ ، وتعاشر مثيلاتها نساء العظماء والكبراء . ولقد ذكرتْ عَرَضاً فى أواخر كتابها « نتائج الأحوال » شيئاً عن اختلاطها بالبلاط ، وذلك لشرح كلمة « واى واى أى غوث رانا وأى شيذرتوانا » التى تقولها الأعاجم حين ما تُرمى بهولٍ فجأةً . قالت :

« . . . كانت تدعونى ربة المعالى وكنز اللآلى ، والدة صاحب السمو إسماعيل باشا الخديو السابق تغمدها الله برحمته ومنحها فسيح جنانه — بالقصر العالى للترجمة عند حضور أقارب ملوك العجم . فكنت أسمع هاته اللفظة من أفواههن . وهى كلمة تقال عند مفاجأتهن بشىء ما . وكنت أقيم معهن على قدر إقامتهن وأتسامر معهن وأستفسر عن عوائدهن وأخلاقهن » .

فى هذه الأوساط تجد ما ألفتهُ من كياسة وتهيب ، وما أحسنتهُ من آداب المحادثة والمجاملة واللطف . على أنَّ أولئك السيدات لا يعنين بغير الشؤون المعتادة فى العائلة والاجتماع ، وما أُفعمت بهِ من مسرّات وأحزان . أما «عائشة» فشأنها شأن العاشق الذى تبدو لهُ جميع محافل الأنس والطرب موحشةً مقفرةً لتغيُّب الحبيب عنها .

فى تلك المرتبة الرفيعة فخامة الصروح ، وضخامة الألقاب ، وأبهة المظاهر ، ولكنها فيها يعوزها القوت ، ويعوزها السرور ، وتعوزها الحرّية . إنها تتوقُ إلى الاختلاط بالذين يعرفون ماتعرف ، ويفكّرون كما تفكّر ، ويحبُّون ما تحبُّ . فى الخارج حركة التطوُّر تجرى مجراها الطبيعى ، وإن وثبتْ حيناً ، وتريثت حيناً . وفى الأفكار غليان ، وفى الحماسة فتوَّةٌ ، وفى القلوب أشواق . ولا تخلو المدينة من

دوائر علمية يتحاضر فيها أهل الفضل على طريقة العصر ، ويتناقش فيها الأدباء كأنهم فى وفاقهم وفى اختلافهم أعضاء الأسرة الواحدة . ولكن « عائشة » المعنوية إن هى تجاوزت نساء عصرها بالمعرفة والفهم ، وسبقتهنّ باقتحام عواطفها وتقدُّم مطالبها ، فإن « عائشة » الاجتماعية تظلُّ مخدَّرةً محجوبة .

صدمتها الحياة للمرة الأولى فى النضال مع والدتها بين الكتاب والإبرة . فأيّدها الوالد الحصيف وسيّرها إلى ماتريد . وجرت خطوات فى فرجةِ الأعوام فإذا بصدمة أشدّ وأصلب ، صدمة العادة والتقليد . هذه لن يحميها منها الوالد القادر ولن تخرج عليها نفسها القلقة . أخبرنى كيف تثور على جماعتها امرأة هى ابنة رجل معروف وأمّ أولادٍ محبوبين ، وليس بين جماعتها صوت ينكر تلك العادة ويدعو إلى تغيير ذلك التقليد ؟ يومئذٍ كان « قاسمٌ » حَدَثاً ، ولعله كان من دعاة الحجاب . ولعلها هى كذلك لم تفكّر فى وجوب السفور . بل عمدت إلى تلك العلامة الأخرى من علامات النبوغ ورضيت بها : الاحتمال حيث لامنفذ غيرهُ .

امتثلت واحتملت . ولكن حتى للاحتمال والامتثال ساعات لامندوحة للمرء فيها عن أن ينفّس كربتهُ ، ويندب حسرتهُ ، ويرسل ماهو أشبه ببثة السجين المظلوم . فقالت : إنها دعتها :

« الرأفة بكل مغبون لقى مالقيت ، ودهى بما به دهيت ، إلى أن أبدع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الأفكار ، وتلهيه عن أحزانه فى غربة الوحدة التى هى أشد من غربة الديار . . . »[1] .

هذه الكلمة تكفى لنشعر مع «عائشة» بوحدتها المضاعفة . وهذه الكلمة وهى لوحة تصويرية تامة ، تدهش عند امرأة سبقتنا بثلاثة أرباع القرن . وغريب أن تهتدى يومئذٍ إلى حقيقة تلك « الوحدة » وأن تعبر عنها — وهى ابنة عصر التطويل والتبسُّط — بهذا الإيجاز البليغ .

---

(١) « نتائج الأحوال »

وكأنها مرّةً أخرى تجدُ بعض الراحة فى شرح ألمها بشكل الاعتذار المجمّل بالسجع والتورية :

« . . . لم يمكن لى دخول محافل العلماء المتفقهين » ... « فكم التهب صدرى بنار شوق إلى محافلهم اليوانع ، وأدر جفنى على حرمانى من اجتناء ثمرات فوائدهم در المدامع . وقد عاقنى عن الفوز بهذا الأمل حجاب خيمة الإزار ، وحجبنى قفل خدر التأنيث عن سناء تلك الأقمار . وأحلانى بسجن الجهل حليف أثقال وأوزار ، فكانت تلك الحجب لمن لام فى هفوات هذا المسطور أكبر أعذار . فلا تلوموا معشر الأفاضل خبية ، ولا تعبثوا بسجينة شجية ... »[1] .

. . . وخصوصاً . . . لا تلوموا معشر القراء فى هذا العصر كاتبةً مسجّعة لأنكم لو رجعتم إلى ما كتبهُ بعض « كبار » النائرين فى عهد الخديوين لعثرتم على ما ليس فيه شيء من إحكام « عائشة » ولا ذرّةٌ من صدق عواطفها . ولى من هذا البيان معارضٌ لما جاء فى جريدة « الأفكار » الصادرة يوم ١٣ مارس ١٩٢٣ ، استهلالاً لمقالٍ عن الصالونات الأدبيّة فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا وعلاقة الآداب فى تلك البلاد بالدوائر النسائية الفكرية . قالت « الأفكار » :

« كنا نريد أن نكتب شيئاً عن السيدة عائشة تيمور باعتبار أن تاريخ حياتها يفيض النور على الحركة الأدبية الفكرية فى مصر فى عهد إسماعيل وتوفيق . ولقد أجهدنا أنفسنا على غير طائل وراء الحصول على وصف ولو مجمل أو غير دقيق للدائرة الأدبية التى ظلت سنين عديدة تجتمع بلا انقطاع فى منزلها (بدرب سعادة) . ولكننا سنتكلم عن سيدة إنكليزية (ليديا وايت) تشبه السيدة عائشة تيمور من حيث جعل منزلها ملتقى كبار الكتاب والشعراء فى عصرها . . . » .

من أين جاء كاتب هذه الفقرة بمعلوماته ؟ أهو استند على قول «عائشة» : . . . « صرتُ أتهافت على حضور محافل الكتّاب بدون ارتباك ، فأجد صرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة . . . » وهى تعنى

(١) « نتائج الأحوال »

بذلك أيام اختلافها ووالدتها فى حداثتها القصوى قبل أن تتحجّب — ؟ أم هو رأى ما قد يُشيرُ إلى ذلك فى القصائد العربية والتركية التى رثت بها بعض العلماء ؟ أم لديهِ دليل آخر ؟

حاولتُ الاستفسار عن ذلك من المسيطرين على « الأفكار » فى ذلك الحين فلم أظفر بالجواب الشافى . وتيمور باشا الذى قال قبلئذٍ إن شقيقتهُ كانت « محجوبة » أجاب على السؤال الجديد بقوله إنهُ يظنُّ « أن ذلك لم يحصل » .

أسافرةً كانت «عائشة» — أحياناً — ، أم محجوبةدواماً ؟ نقطة فى غاية الأهمية ولكن يتعذر جلاؤها ، خصوصاً بسبب تباين السن تبايناً كبيراً بين تيمور باشا وشقيقتهِ . فإذا جاء يوماً من يثبت بالحجة الناصعة سفور «عائشة» فى تلك المحافل الكريمة ، سجَّل للشاعرة فضلاً جديداً وشجاعة فائقة ، وأظهر أنها بشير التحرُّر النسوىّ ليس من الوجه النظرى والعلمىّ فحسب ، بل بالعمل كذلك . لأنها تكون قد حقّقت «قاسماً» قبل أن يتكلم «قاسم» — أقول هذا مع احترامى التام لرأى دعاة الحجاب .

أما وأندية الرجال ليست ، فى الظاهر ، لشاعرتنا فلنتحوَّل إلى اللاتى قد تتفاهم معهن من النساء . وفى مقدمتهنَّ « ربة الأدب الباهر والقدر الشريف السيدة وردة بنت الفاضل الشيخ ناصيف » اليازجى . فإن عائشة لتتمثَّل بها وتذكرها بإعجاب فى ديباجة « حلية الطراز » . وأهدت إليها نسخةً من ديوانها بعد صدورهِ . فشكرتها « وردة العرب » نثراً ونظماً . وأعقب هذه الصلة الأولى تبادُل بعض الرسائل أثبتتها « زينب فوّاز » فى كتابها « الدرّ المنثور » . لن تجد فى تلك المراسلة كلَّ الحياة التى يودعها بعض الأدباء فى رسائلهم حتى ليتغذَّى بها أصحابهم أياماً وأسابيع ، ويتعشقونها كأنها قطع من أرواحهم . بيد أنك ستجد سبك الكلام اللطيف ، والثناء المأنوس ، والنظم الحلو الرنَّان الذى يرضى ويجعلك شاكراً لهاتين السيدتين ما أبرزتا لك من أسلوب المجاملة النسائية الكتابية فى ذلك العصر (١) .

(١) السيدة وردة اليازجى صاحبة ديوان « حديقة الورد » هى مع « عائشة » الشعاع الأول فى ظلام الحالة النسائية فى الشرق .

وهناك سيدتان قيل لى إنهما كانتا تقولان الشعر وهما ابنتا حبيب افندى الكتخدا ، ومن عثيرات الشاعرة . لم أوفّق إلى شيء من آثارهما وقد قلّ من سمع بآدابهما بين المصريين . حتى إنى قيل لى مرّةً عند ذكرهما إنى أبتدع شعرهما من مخيلتى على نحو مافعل زفس بابنتهِ بالاس — أثينا التى أخرجها من رأسه تامّة الجمال والكمال . لا شيء من ذلك . بل قال لى أحد الفضلاء إنهُ قرأ لإحداهما أبياناً جيدة .

ومن معاصراتها الست المغربية ، والبون بينها و بين « عائشة » شاسع جدًّا طبقة وحالة ومعرفة . إلا أنها كانت امرأة ذكية ، سريعة الخاطر ، تمازح الناس بشيء من الجرأة المتطرّفة ، وتتطارح الأزجال مع الشيخ على الليثى وغيرهِ . ومن المأثور عنها من دلائل سرعة الخاطر أنهُ اتّصل بها يوماً أن أحد الباشوات كان يرميها بما هو غير حسن وغير ممدوح . فأجابت المغربية بابتسامة ذات معنى خطير : « والله كلام سعادة الباشا فى محلّه . . . »

كذلك نعرف «زينب فوّاز» السورية المولد المصرية الموطن ، منشئة «الرسائل الزينبيّة » فضلاً عن فصولها الأخرى وقصائدها . وهى التى عقدت فى كتابها « الدّر المنثور ، فى طبقات ربّات الخدور » فصلاً مطوّلاً عن شاعرة آل تيمور . وصدّرت الكتاب المذكور بخطابٍ من السيدة « عائشة» مثقل بالثناء والتبجيل على نحو ما كانوا يثنون يومئذٍ ويُبجّلون .

ويحدثنا « المقتطف » فى عدد يونيه ١٨٩٧ عن السيدة ليلى هانم « كريمة المرحوم خليل باشا شريف من وزراء الدولة العلية ، وأخى المرحوم على باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين السابق » . فيقول إن هذه السيدة « تكتب بالإنجليزية مقالات تُنشر فى أشهر المجلات » وإنها كتبت رواية غرامية اسمها (A Turkish Love Story) ترجمها محرر « المقتطف » ونشرها متتابعةً فى المجلد السادس والعشرين سنة ١٩٠١ باسم « رواية أمينة » . قرأتُ هذه الرواية بثوبها العربىّ بكلّ سرور فى العام الماضى . ولا شك عندى أن الوصف فيها « لحريم » الآستانة يومئذٍ أصدق من كلّ ما كتبهُ الأفرنج فى هذا الباب .

وليست لتقصر يقظةُ المرأة على الكاتبات والأديبات بل للمهتمّات بالشؤون العمومية عن غير طريق القلم أثر قيم . لذلك يتسع المجال هنا لذكر المغفور لها البرنسس عين الحياة الزوجة الأولى للسلطان حسين (يوم كان أميراً) ، ووالدة حضرة صاحب السمو السلطانى البرنس كمال الدين حسين . فإنها كانت معروفة بالمقدرة والفطانة وحبّ السعى الحميد . ومن مآثرها الخطيرة الشأن « مبرّة محمد على » أوّل جمعية خيرية للسيدات المسلمات ، والوحيدة من نوعها فى الإسعاف والمعالجة . بيد أنها لم تشهد نتيجة ما دَعَت إليه . ولم يتمّ إنشاء المستوصف الأوّل الذى أطلق عليه اسمها وما زال معروفاً به « مستوصف عين الحياة » إلّا بعد وفاتها فى أوائل ١٩١١ . أما الغرض الذى عينته لنفسها هذه الجمعية فهو « العمل جهد الطاقة — أولاً لتقليل عدد الوفيات الجسيم من الصغار فى القطر المصرى . ثانياً لتقليل عدد وفيات الأمهات الناجمة عن حميات النفاس » . وما فتئت السيدات الكريمات القائمات بهذا المشروع يتعهدنه برعايتهنّ و إحسانهنّ . إلّا أنهُ ما زال مفتقراً إلى التنشيط والتوسيع .

وماذا أقول عن البرنسس نازلى الملتهبة ذكاء ، البارعة فى الموسيقى وفى اللغات التى عرفتها ، الخارجة على عادات زمنها بمقابلة من شاءت من أفاضل الرجال والتدخل فى مختلف الشئون العالمية والحوادث الوطنية ولقد نشر المرحوم ولى الدين بك يكن فى كتابهِ « المعلوم والمجهول » صورة خطاب أرسلتهُ إلى « عبد الحميد » فى أيام بطشهِ وجبروتهِ ، وحسب القارئ الاطلاع على هذا الخطاب ليعرف بنت « أبى الأحرار وقائد كتاب الحرية » البرنس مصطفى فاضل باشا ، وما كانت عليهِ من الجرأة والذكاء والنزعة الاستقلالية . قالت تخاطب صاحب الجلالة اليلدزية الرهيبة :

القاهرة فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦

مليكى ،

قرأت مع الأسف الشديد فى جرائد « أوربا » التى وردت فى هذا الأسبوع أن مولاى الأعظم غاضب علىّ غضباً شديداً . وعلمتُ أن السبب فى غضبهِ حضورى

مؤتمر « تركيا الفتاة » الذى عُقد بباريس . ولهذا أرجو الإذن لى ببيان ما يدور بخلدى فى هذا الباب .

إن استهدافى للغضب الملوكى ليس بالأمر الحادث ، ولكنهُ مستمرّ منذ أربع سنوات . وإذا وجب أن يميز من حلّ بهم ذاك الغضب سهل تعيين الفئة التى ينبغى أن أُحشد فى عدادها . غير أن حضورى مذاكرات هذا المؤتمر ليس تذرُّعاً للشهرة . فهو إذن منزّه عن كل غرض ذاتى .

يذكر مولاى الأعظم أنه قال ذات يوم للمرحوم خليل باشا شريف : « إنى مغرم بكلمة الحق » . ولقد بشّرنى المرحوم بهذه البشارة الملكية ، وتعاهدنا كلانا منذ ذلك أن لا نحيد عن كلمة الحقّ .

قرأتُ ما ينشرهُ هذا المؤتمر منذ زمن مديد ، واطلعتُ على اللوائح التى رفعها إلى الأعتاب الشاهانية . ولما كانت هذه المنشورات بمثابة كلمة حق فى وصف الدمار الذى باتت فيهِ الممالك المحروسة الشاهانية ، رأيت أن أحضر مذاكراتهِ عند نزولى بباريس .

فشهدت من الجميع منتهى الودّ والولاء للمقام الملوكى وللوطن والأمة . ورأيت الجميع باكين لحال الوطن الذى بات على شفا الفناء . فهاجنى ذلك وتذكرت أن مولاى كان مغرماً بكلمة الحق . فظننتُ وا أسفاهُ أنهُ ربما تسلّى عن ذلك الغرام . ولكن هزّ فؤادى ما عاهدت الله عليهِ ، وأيقنت أن العشق يزول والعهد يبقى .

لما زرتُ الآستانة منذ أربع سنوات أوصانى بعض المقرّبين بأن أرفع إلى مولاى عريضة أستقيل بها من هفواتى . ولما لم يكن لى علم بهفوة سبقت لى لم أقدم على هذا الأمر . فقد تغيرت سياسة مولاى مع الإنكليز . وذهب الرضاء الذى كان توسط لى فى نيلهِ المرحوم السيد هنرى لايرد . وإنى لأتلقى بكل ارتياح توسط الإنجليز لى فى إحراز رضاء مليكى ، بل أشكر اليوم ما أصابنى من الغضب الملوكى . وإنّ فى بعدى عن مشاهدة ما وقع بالآستانة من الزلازل وما نزل بالرعية من الفقر ،

وما جرى من دماء المظلومين الذين ذبحوا كما تذبح الأضحية ، وعن سماع استغاثات المظلومين وتأوهاتهم ، ما يسلّيني وما أحمد الله على بعدى عنهُ . وسأستمر لذا على العمل بنصّ الأمر الملوكى الذى بلّغتنيه الحكومة المصرية غير رسميّ — ما دامت لى الحياة .

على أنى لا أبرح داعية بطول عمر مولاى و بقاء دولتهِ . ولا أبرح داعية بأن يعود لهُ سالف غرامهِ بكلمة الحق . فإذا قدّر الإله ليزولن بؤس اليوم كما تزول الرؤيا المفزعة ، فيصبح سعيداً مهنأ ، ويلقى رعيتهُ فى رغد بالاتحاد والحرية . فإن رعيتهُ لا تريد منهُ إلاّ أن يكون أباً مشفقاً . لعلّى تجاوزت الحدّ وأسأت البيان . فلست أدرى مبلغ وقع ما أتشرّف بعرضهِ . فليثق مولاى أن كلام أصدق عبيدهِ فى زماننا هذا لا يختلف عمّا جرى بهِ قلمى . وليوقن مولاى أن ورقتى لم تُسطّر إلاّ بخالص النية وصادق الولاء .

بنت المرحوم مصطفى فاضل باشا المصرى

خادمتك

نازلى[1]

يجب لتعلم قيمة هذه الرسالة أن تعلم من هو «عبد الحميد» ؟ وكيف كان ينتقم من مناهضيه فى أية بقعة كانوا من الأرض ؟ فكيف بهم فى مصر ومن أعضاء الأسرة المالكة ؟ .

* * *

قد يفوتنى أسماء أخرى معروفة . وقد يكون ثمّت سيدات كثيرات ذكيات قديرات من اللاتى يُدْمَجن فى « الطراز القديم » وقد يدهشن العالم والمحنّك بأسلوب إدارة بيوتهنّ وأملاكهنّ وأعمالهن لوفرة مايبدين من الخبرة والدراية — حتى ولو كنّ أميّات . ولكن أيكون لمثل « عائشة » من مثيلاتهنّ بيئة معنوية ؟

(١) عن « المعلوم والمجهول » جزء أول . وقد قدم ولى الدين بك هذه الرسالة قائلا : إنها منقولة عن جريدة « حذام » التى كان يصدرها شقيقه يوسف بك حمدى يكن

(٧)

بيئتها المعنوية وحبها لاسمها

كلا ، لم يكن للشاعرة من بيئتها الاجتماعية البيئة المعنوية المطلوبة . ولا أظنها نعمتْ فى ذلك العصر بما نحن اليوم نفتقرُ إليهِ .

ما سمعتُ أديباً يذكر أهمية المحيط ومبلغ تأثيرهِ إلّا سمعت منهُ الشكوى . ما حدّثنى مطّلع على شؤون الشبان العائدين من أوربا إلّا قال إنهم بُعَيد وصولهم يشعرون بنقصٍ علميّ عظيم حولهم ، ولا يلبثون أن يفهموا أنهم عائشون فى وحدةٍ فكرية وفنية بعيداً عن تواصل الحركة الذهنية فى العالم . ولا يعرف مرارة تلك الوحدة وصقيعها إلّا الذى أُرغم على تقطيع الأعوام ، والأعوامُ تبليهِ فى انفرادٍ ووحشةٍ ، لا يعرفُها إلّا الذى صرف الأيام والليالى جائعاً عطشاً ، وهو يعلمُ أنهُ فى قفرٍ لن ينبت لهُ فى القريب العاجل قوتاً ، ولن تفجّر لهُ منهُ المفاوزُ منهلاً .

حالٌ محزنة حال التائق إلى ما يعلو على العيشة الملامسة الثرى . حال محزنة حالُ الأديب الصميم فى عصرنا والمتأدّب . إنهُ سرعان ما يتصدّى لهُ من يناقضُ ويعاكس ويتمطّى ليقدّم لهُ ويؤخّر ، ويُفصّل فى قماشهِ ويحيّط . سرعان ما ينبرى لهُ وللعالمين من يقدح ويهجو لسبب أو لغير سبب ، أو لسبب جديرٍ بالتقدير . وسرعان ما يسمع المدح المائع المتهدل لا اعترافاً بالأهلية ، بل عن هوس ، أو حمق ، أو لغاية . وقد يجد من يمتدح بإخلاص ولكن ببلاهة ، فيجعل الذبابة فوق النسر ، أو يسيّرهما فى فلك واحد لأنهما يطيران كلاهما ومن « ذوات الأجنحة[1] » .

أما تجانس الخواطر ، وحبّ الآداب ، وسعة الإدراك فى تحليل الأشياء وتقديرها ، والإحكام فى وضعها وترتيبها ، والغوص فى المعانى الواسعة ، وفهم مناحى

---

(١) كأن « عائشة » شعرت بهذا فى أيامها وأرادت الردع عنه بقولها :

الناس شتى فى الصفات فلا تكن ممن يقيس الدر يوماً بالبرد
إن قست فظاً بالرقيق فلا تلم من بعد نفسك فى الورى أبداً أحد

الحياة والعناية بخصائصها كما هى لا كما يراد حصرها فى شخصية واحدة — كلّ تلك الغبطة المعنوية التى نطلبها بأشواقنا ولا نحسن التعبير عنها فليست بعدُ لنا وهى مفقودة فى هذه البلاد . بل ندر الذين يفهمون ارتفاعها ونبلها من الأفراد . وأولئك هم المعذبون .

وستبقى هذه الحياة مفقودة ما بقى التعاطف الأدبىّ غير موجود .

وإذا طرح اليوم متحمسٌ النداء المستثير فكأنهُ يستنهض أنبتةً تضطرب وتتحرك فى مكانها وقد حُظر عليها الخطو والانتقال . وتمضى الصيحة الرجّافة فترتطم نبراتها فى الهواء ثم ترتدُّ على مرسلها ثقلا باهظاً . كأنها يعترضها فى المضىّ جدار كثيف تختنق عندهُ الأصداء ، فترتدُّ على قلب مرسلها ثقلًا يجرُّ معهُ معانى المحال وانقطاع الرجاء — إلى حين .

والمدهش بعد كل هذا أن تجد منّا من يشبُّ وينهض ويتفوّق ، يتفوّق ليس على قياس مدح المدّاحين ، وهجو الهجائين ، ومسيّرى الذبابة والنسر فى خط واحد . بل هو يرتفع رغم المثبطات فوق الصدمات والموانع ، يرتفع ويبدو عظيماً وكأنّ اسمهُ وحدهُ يكفى ليقول : « إنى موجود ! وأثرى متسرّب إلى جمودكم ليقلبهُ حركة ! إنى موجود ، وحميتى ماضية فى خمولكم لتثيرهُ نهوضاً ! إنى موجود ، وعزمى متغلغل فى قلقكم لينسّقهُ انتظاماً ! » قلتُ مدهش ذلك ؟ كلاّ ، بل هو خطير !

أليس أشد دلائل القوة خطراً فى أن يظلّ النسرُ محلّقاً ولو مهشّماً دامياً ؟ أن يظلّ محلّقاً حتى بجناحين مهشمين داميين ؟

* * *

ولعلّ الحياة تحتال على بنيها ، لاسيما الأصفياء منهم ، عندما توسعهم مقاومةً وتشبعهم تعذيباً . لعلها تودعهم حاجاتٍ ومطالب تعلم سلفاً أنها غير مهيّئة لها ما يقوم بها ويحقّقها . وما ذلك إلا لتلحّ على الفرد الموهوب أن يجنى المعونة والتعزية والقوة من أعماق وحدتهِ ، من أعماق وجعهِ ، من أعماق قنوطهِ . لعلّ لها غرضها من المنع

والحرمان شأنها من المنح والرغيدة . فيظلُّ لابنها المختار أن يخلق لنفسهِ عالماً يملأهُ ببرايا هواجسهِ وبأشباح مايحبُّ ويأمل وينشد . يظلُّ لهُ أن يبدع ما ينقصهُ إبداعاً ما ، إبداع التخيل والتدوين ، فتكوّن الحياةُ لذاتها عن هذه الطريق صوراً جديدة من لهف الحرمان ، وزفرات الأسى ، وتجمُّد الدماء التى لا تسيل .

أم لعلَّ الحياة فى أحشائها كلوم يعوزها البلسم ، وهو لا يُستَخرج إلا من شكوى البؤساء ، فتخلق لهم المحن لتسمع مثل هذه الزفرات التى ترسلها « عائشة » فى خلوتها :

أعللُ نفسى والأمانى كثيرة ... وما كان أغنى النفس عن ذا التعلُّلِ
فلا الوقت فى أمرى فأقضى مآربى ... ولا الدهر يصفو لى فأكمدُ عذَّلى
ولا النيل يدنو لى فأُروى بفيضهِ ... ولا الصبر طوع لى فتحلو الحياةُ لى
ولا الحظ ذوسعد ولا البخت مسعفٌ ... ولا مهجتى صلد أقول تحمَّلى
ولا لوم إن واريتُ فى الترب جثَّتى ... وقلتُ أقيمى حيثُ ذلك منزلى

أى أنها تحبذ الانتحار فى هذا البيت الأخير ، ومن ذا الذى لايشتهى الموت فى بعض لحظات الألم ؟ ثم تعود إلى طلب المسرة والهناء ، ولكن لتلقى خيبةً أخرى :

والله ما همتُ حظًّا باسم داعية ... إلا وأعقبتُ فيها الهمَّ من أسفى
ولا سعيتُ بأقوى العزم فى أربٍ ... إلا رجعتُ طريح الأرض فى دنفِ

أو لترى السرور يتحول إلى الألم شأن كثير من مسرَّات الحياة :

وما مُنحتُ بيومٍ قد أتى غلطا ... بالأنس إلا وقامت فيهِ غاراتى

ويظلُّ الاختبار يُحَذِّرُ وَيُنْذِرُ :

لاتفرحَنَّ بدنيا أقبلَت وصفَتْ ... بكل ما ترتضى ، واحذر عواقبها

وترقب أحوال الناس فيسوؤها منها الخلل والفساد :

حُسْنُ الوفاءِ وصدق الودّ قد صُرعا ... واستوحشا بفيافى الغدر وانصدعا
كلاهما من سقامٍ لامساس لهُ ... حُزناً على الحق والإنصاف مذ صُرعا

وأولئك الأدعياء الناعتون نفوسهم بما ليس فيهم ، المتلمظون ، لأن الفرص سنحت لهم ضلالاً بأن ينزلوا الأذى بما يحيط بهم ، وهم يحسبون واجب البشر كلهُ في إيقاف الجهود على إشباعهم و إرضائهم — كيف تذكر أولئك إن لم يكن بلهجة الازدراء والإخطار هذه :

آل الغرور لقد ساقوا نجائبهم شرقاً فغرباً فداستْ كلّ مالاقَتْ
ظنوا الزمان على رغم يطاوعهم وإن أوقاتهُ طوعاً لهم راقَتْ
وليس إلا عدوًّا سوف يفجأهم برقطِ غدرٍ إلى عاداتها اشتاقت

ألا يذكرك هذا البيت ، لاسيما الشطر الثانى منه ، بالمعرّى وآرائه فى الدهر وعربدته على الدنيا التى كثيراً ما يشبهها بالحيّة الرقطاء ؟

وهكذا تجد « عائشة » الألم عوضاً عن الهناء ، وليست الآلام الملموسة البارزة أنكأ الآلام ، بل قد نفضل أحياناً أن نصاب بما يسحقنا ويجرفنا بشدّةٍ جرف العاصفة لأوراق الخريف ، بدلا من معاناة مانسكت على مضضهِ مما نأنف التفكرَ فيهِ ملياً ، ونستنكف شرحه مع عجزنا عن مقاومته والابتعاد عنه ، ولربما آثرنا الداهية الدهماء تعبثُ بنا فتذرنا هباءً منثورا ، على مقاساة نكال متقطع متتابع ؛ كوخز الإبر والدبابيس ، نكال لاهو يشتد فيقتلنا ، ولا هو يكفّ لحظةً لنتخدَّر ، ولا يكون عقاباً على ذنبٍ فنثوبُ ونتفادى ، بل كثيراً ما يجىء مكافأةً على الحسنى ، فيفعم القلب مرارةً ، ويعصف فى الجوانح كره قتّال للأشرار الآثمين .

* * *

اجتمعتُ فى أوائل مايو من سنة ١٩٢٢ بالأستاذ الشيخ الغمراوى بك المفتش الأول للغة العربية فى وزارة المعارف ، فذكرتُ « عائشة » فقال : إنها شاعرة عصرها وإن أساءوا فهم كثير من معانيها . قلت : اذكر مثلا . فقال : مثال ذلك قولها :

ما ضرَّنى أدبى وَحُسْنُ تعلمى إلا بكونى زهرةُ الألبابِ

فما يفهمه الشخص العاديُّ من هذا البيت ، إنها تمدح نفسها مدحاً يشبه الذمّ .

وما ذلك إلا لقصر النظر أو لتعمد ، فى حين هـذا القول يقرر أمراً واقعاً تألمت من جرّائه . ذلك أن بعض السـيدات كنَّ يسمعن عليها الثناء الذى لم تربحهُ بالتظاهر والتهويش ، بل بالـكفاءة والـكرامة ، فيثور منهن الحسد ، فيعمدن إلى تشويه الحقائق والتحريف والتعريض ، يشعرن بالقصور عن مجاراتها فيستسلمن لتعـذيبها و إلحاق الأذى بها على مختلف الأساليب انتقاماً لنفوسهنَّ من تفوقها ، فشعرت بهذا وتألمت ، لذلك قالت : * ماضرنى أدبى . . . الخ *

هذه خلاصة كلام الأسـتاذ ، وهو من الصحة بحيث تجد لهُ طائفة من الأدلة فى شعر « عائشة » كقولها :

وكم حليفـة سـعدٍ إذ تعنّفنى تقول سعيكِ مذمومُ النهاياتِ
فأخفض الطرف من حزن أكابدهُ وأهملُ الدمع من تلك المقالات

واهاً لتلك الدموع ! تنصب فى القلب عند كلام الحاسد والمتطاول ، وتدفع إلى التشاؤم فى نبالة الفطرة البشرية ، ثم تنهمر فى الخلوة لاذعة محرقة . على أن «عائشة» عذبة بطبيعتها فهى لا تثور سريعاً . بل تتجلد هنا وفى معاكساتٍ أخرى ، وتكافىء الشرّ خيراً حتى نفاد الصبر :

ومذْ أتت عذلى تبغى مصادرتى ظلماً ، منحتهمو أسنى الـكرامات
وكلما عدّدوا ذنباً رُميتُ بهِ بسطتُ للعفو راحات اعترافاتى
وكلما حرّروا منشور مظلمتى وأظهروا فى الورى غدرا جناياتى
أظهرت شكرى لهم بالرغم من أسفى وكان ما كان من فرط التهاباتى

واهاً لتلك النصال تغمدها فى القلوب أيادى الغرباء وأيادى المعارف والأصدقاء ! واهاً لتلك الأيدى التى أحسنت إلينا ، وتلك الأخرى التى أحسنّا إليها ، تمتدُّ لتأتى إشارة تمحو جميل الذكرى حيناً وتحجب رقيق الشفقة دهراً !

وتلك الـكلمات الفاترة الركيكة وذلك الترفُّع المصنوع الحقير ! وتلك العناية التى سرُّها التقليل ! وذلك الشرح للثناء فى الظاهر وكلّ الغرض منهُ التصغير والتحديد

السخيف ! وتلك الشبكة الواسعة التى يحبكها حولك الاغتياب والافتراء ويلصق بك ما يلصق من التهم والذنوب ! فتفكر أولا فى الدفاع عن نفسك أمام الذين تحسبهم أفطن من غيرهم وأقرب إلى الإنصاف . وبعد قليل تصمم على السكوت كبراً وازدراء . ذلك تعانيه الشاعرة :

ولم أفه لذوى ردٍّ لمعرفتى أن الحبيب حبيبٌ فى المسرّات

طبعاً هم كذلك أصدقاء المجتمع ، الأصدقاء السطحيون . والآخرون المتقمصون فى أثواب الأصدقاء المتكلمون بلسانهم كيف يركن إليهم . لذلك :

أخفى الأسى إن حسودٌ جاء يسألنى لأين تسعى وأومى لابتهاجاتى

وقد تخفيه احتشاماً وصيانةً لكرامة الألم ، وقياماً بالواجب الذى يمتهنهُ أولئك الذين يكرهون الناس إكراهاً على مخاشنتهم ومقاطعتهم لأن الجفاء الوسيلة الوحيدة للتخلص من تطفلهم : يزعجون الناس بلا مراعاة فيخسرون حتماً عطف القلوب . يتجاهلون أن لكلّ شىء حدًّا طبيعيًّا ، وأن أعصاب بنى الإنسان ليست من حديد فلا تحتمل النواح والشكوى والإلحاح والمضايقة إلاّ لحين ، وأن واجب المرء الأول نحو صحته ، لا سيما وأن لهُ من مسئوليته وشئونه مايتحتّم القيام بهِ ، فعليهِ أن يضنّ بكلّ تأثر مُعْيٍ وأن يقلع عن كلّ اضطراب عقيم . إن التحدث بالهموم وشكوى الغموم مرض شرقىٌّ متأصّل . وكأننا أقرب الشعوب إلى رجم الآخرين بآلامنا وأوصابنا فى كل زمان ومكان . وليس أدل من هذا على الضعف المعنوى وفسولة الخلق ، ليس أدل من هذا على الحاجة إلى التهذيب . وكأنى بعائشة مطبوعة على هذه الصيانة الخلقية والكتمان النبيل :

أقوم والضيمُ تطوينى نوائبهُ طىّ السجلّ ، ولم أسمعهُ أنّاتى

إن ضلّ سعيى فهادى الصبر يرشدنى إلى طريق رشادى واستقاماتى

أما والقلب المعذب يظل على نبلهِ ، فى حاجة إلى أن يبثّ كربتهُ لصديقٍ ذى حول ولطافة فعائشة تتجه إلى القلب الرءوف الأكبر الذى لايقلقهُ أنين البرايا :

ولم أزل أشتكى بثّى ومظلمتى لعالم الجهر منّى والخفيات

***

وقد يحسن أن أدغم فى هذا الباب ملاحظة أخرى .

هناك نكتة تكاد تكون الوحيدة فى كل كتاباتها ، وقد ظهرت كلَّ الظهور فى شعرها دون تمييز فى الموضوعات ، فتجدها أمك فى المرض والعافية ، فى رثاء الأحبّاء وفى آهات الغرام ، موضوعها الطبّ والأطبّاء ، وقد تشير إلى قلة ثقة الشاعرة بأبناء أبقراط الجهابذة النُطُس .

قالت تتهكم على طبيب فى ثلاثة أبيات مفردة :

يا من أتى للجسم يبرئ سقمهُ ... ويظن جالينوس بعض عبيدهِ
أفنيت بالطب الذى تهذى بهِ ... أُمماً ، وقرّبت الردى ببعيدهِ
وزعمت أنك أنت قد جدّدته ... ولقد أضعت قديمهُ بجديده

وهاك ما يعنى أن يأس الطبيب فى نظرها أملٌ :

إذا يئس الطبيبُ وكلّ عنى ... بقدرتهِ بما أرجو حبانى

وهذا استهزاء بالأطباء وتوجّع من رمد عينيها :

تخالفت الأساة بطول وعدٍ ... يعلّلنى ، ويأس فيهِ حَينى
ومن فظٍ يهددنى جهاراً ... بمبضعهِ المصوّب فى اليدينِ
وقد عفت الأساة وعدت أرجو ... طبيب الكون ربَّ المشرقين

وفى وصفها لأقوياء العالم وضعفهم حيال الردى :

يؤوب بالعجز أقواهم إذا ألَمّْ ... بهِ ألَمّ ، ويبدى شرَّ حسراتِ
يلوذ ضعفاً بأذيال الطبيب ، وما ... يغنى الطبيبُ لدى فتك المنياتِ

كذلك كان لها فى الرثاء مجال لإظهار عجز الطب والأطباء ، فقد جاء فى مرثاة والدها رحمه الله :

رجع الطبيب ببأسهِ متسربلاً ... وأراق جرعتهُ على الحصباء

وفى مرثاة ابنتها :

جاء الطبيب ضُحًى و بشر بالشفا ... إنّ الطبيب بطبّهِ مغرور
وصفَ التجرّع وهو يزعمُ أنّهُ ... بالبرء من كل السقام بشيرُ

فتنفستْ للحزن قائلةً لهُ عَجِّل ببرئى حيثُ أنتَ خبيرُ
واحم شبابى ، إنَّ والدتى غدَتْ ثكلى يشيرُ لها الجوى وتشيرُ
وأرْأفْ بعين حُرمت طيب الكرى تشكو السهاد وفى الجفون فتورُ
لما رأت يأس الطبيب وعجزهُ قالت ودمعُ المقلتين غزيرُ
أماهُ ، قد كلَّ الطبيب ، وفاتنى مما أؤمل فى الحياةِ نصيرُ
لو جاء عرَّافُ اليمامة يبتغى برئى ، لَرَدَّ الطرف وهو حسيرُ

ومن مثال ذلك فى شعرها الغزلىّ :

سرورى باللقا ونعيم قربى أعاد بعودكَ الميلاد ثانى
لقد أرغمتَ كلَّ طبيب سوء أضاع بهزلهِ طول الزمانِ

وغيره :

لو شخَّصَ الداء جالينوس أعجزهُ وقال لقمان تكليفى بهِ باطلْ
كيف الشفاء ومَنْ أهواهُ فارقنى هيهات إن الهوى بحر بلا ساحل
جاء الطبيب يداوينى فقلت لهُ دع عنك طبّى ، ولا تتعب بلاطائل
تعذّر الطبُّ والبرء انزوى ونأى عنى ، ولونِىَ من فعل الهوى حائل
ما ينفع الطبُّ والأحشاء فى حرقٍ . . . . . ؟

وغيره :

نحن الخلود من العشاق إن رشفت تلك الثنايا . . . . .
شفا شفاهك منهُ الصبُّ ياأملى ، فى غنيةٍ عن طبيبٍ حاذقٍ وغبى

وأحسن دواء ينجع ويُنْشَد هو هذا :

أرنا زمان الأنس يا وجه الحبيب واحذر ، حماك الله ، أن يدرى الرقيب
دعنى ، لأنى باللقا قلبى يطيب ودع العلاج وما يقول بهِ الطبيب !

عفوكم يا سادتنا الأطباء ، لئن قال بعض الشعراء : إن بعض الأمراض خير من بعض الأطباء ، فلكم من شاعر قدَّرَ أفضالكم على المرضى والأصحاء على السواء .

ولكم من شاعر جعل الطبيب عالما وحكيما ورسولا فى آن واحد ، عند ما يدرك كرامة مهنتهِ وكل ما تقتضيهِ . وإذا كان الاصطلاح العربىّ ماضياً على التوحيد بين الطب والحكمة فينادى الطبيب « حكيما » ، ألا ترون فى بيان الشعراء وتوقيع أسجاعهم ماعمل على حفظ تلك العادة التقليدية ونقلها من جيلٍ إلى جيل ؟

* * *

و بعد هذه العوارض ، فلنلخص :

البيئة المعنوية الصميمة كانت لعائشة فى كتبها وأوراقها ، فى الكتب التى تقرأ . وفى الأوراق التى تحبّر ، ففيها كانت تجد التعزية ومنها المعونة ، و إذا أصابها الرمد شكت بلغة التوقيع :

إذا شكت الورى سقم العيونِ فإنى أشتكى ألم العيونِ
أبيتُ كوالهٍ أضناهُ وَجْدٌ أُنادى من جفونى ! من جفونى !
فلا جفنٌ يطاوعنى فأبكى ولا صبرٌ أُزيل به شجونى

و إذا طال رمدها طلبت كتبها وأوراقها كما يُطْلَب الحبيب الغالى :

أمَسُّ الكتب من شغفى عليها وأبلى حسرةً من سوء حالى
وأندب مهجتى حيًّا لأنى حُرِمْت بدائع السحر الحلالِ

وليست لتشغف فريدة ، بل هى ككل محب تريد عند حبيبها مثل ماعندها ، فتنيل الأوراق والمحابر والأقلام روحاً تحسُّ وتشوق وتبكى :

نعانى أبيضُ القرطاس لما جفانى اليوم نورُ الأسودين
وقد جفّت دواتى وهى تبكى لما قد راعها من طول أينى
وأقلامى قد انشقت لأنى حُرِمت مسامها بالإصبعين

كذلك كان وسط « عائشة » من أرواح المؤلفين والشعراء ومن نفثاتهم ، من أرواحهم كان لها أسرة تناجيها ، فتتحدّث إليها وتصغى حيناً بعد حين . وفى تلك « الغربة » التى تأوى إليها أرواح الخواطر كتبت أشعارها العربية المجموعة فى ديوان

« حلية الطراز » ، وديوانها التركى والفارسى « كشوفة » و « نتائج الأحوال » ورسالة صغيرة اسمها « مرآة التأمل فى الأمور » . هذه هى بيئتها المعنوية المحبوبة[1].

* * *

والاسم — أليس هو أوّل علامات الفرد فى جماعته ؟

« على أى شىء يحتوى الاسم ؟ » — يسأل شكسبير بلسان جوليت . ومن ذا منّا لم يتساءل عن اهتداء البشر إلى التسمية وعن رائدهم فى ذلك ؟ ألا تصغى إلى همس خفىّ وراء الاسم والكنية عند سماعهما للمرة الأولى كأنّ لهما ذاتاً خفية وراء المعنى الظاهر ؟ أوَليس من هذه الروحانية المستترة استُخرج معنى الحساب بالأرقام والحروف ، الذى لا يُستهان بهِ فى أصولهِ الفيثاغورية ؟ ألا إنّ الشاعر العربىّ القائل : « الأذن تعشق قبل العين أحياناً » عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضتْ لهُ فى لحظة إلهام وإشراق .

راجع ما شئت من الأسماء التى تعرف أصحابها معرفةً شخصيةً أو معنويةً ، ترَ استحالة تبديل اسم بسواهُ . كأنما تلك اللفظة التى يُعرَف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة ، أصبحت جزءاً أساسيًّا من ذاتيتهِ ، أو صارت على الأقلّ من أدلّ الدلائل عليها . وفوق ذلك فإن معنى الاسم الواحد يتغيَّر بإطلاقهِ على أشخاص مختلفين . هذا حدثٌ يعصى الوصف ، إلّا أننا نشعر بهِ بجلاء . تُرى ألأنّ شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الاسم بامتزاجها بها ؟

إنّ ما يحدو بى إلى هذا الشرح هو شغف « عائشة » باسمها ، شغفها بأسمائها الثلاثة ، فإنى لم أرَ فى مطالعاتى كاتباً يشبه « عائشة » من هذا الوجه ، لا فى الشرق ولا فى الغرب شغفت بكل اسم من أسمائها ورضيت بها جميعاً فى بيئتها المعنوية فلم تنتحل

(١) قد يجوز هنا الاقتراح على محمود بك تيمور ابن أخى الشاعرة أن يعنى بهذه الكتب فينشرها بصورة تتفق ومكانة منشئتها الرفيعة ، بعد ضبط الحركات وإصلاح تلك الكتب من الأغلاط المطبعية التى تفسد المعانى فى كثير من الأحيان ، وأن يحسن تبويبها وتنسيقها بذلك الذوق الذى كان قائده فى مؤلفات شقيقه المرحوم محمد بك تيمور التى نشرها أخيراً .

اسماً جديداً . وأحسنت توزيعها إذ خصّت شعرها العربىّ باسم « عائشة » وشعرها التركى والفارسى باسم « عصمت » حتى لتكاد ترى هذه الكلمة فى ختام كلّ قصيدة من قصائدها « كشوفة » . وخصّت اسم عائلتها بنثرها .

ولماذا هذا الشغف ؟ لكأنها متينة الشعور بالصلة بين المسمَّى واسمه ، أو كأنها تذكر قولاً مأثوراً عند بعض المشارقة ، وهو أن الاسم ينزل على صاحبهِ من السماء . أو كأنها تطرب لهُ لأنه اسمها ليس غير ، وأنهُ أوّل علاماتها بين الناس . أو كأنها تتشبّهُ بداهةً بذلك الفيلسوف الهندى ، يقضى الوقت الطويل مكرّراً لنفسهِ اسمه حتى تنكشف لهُ حجب الغيب فتستيقظ ذاته البصيرة العليمة رائية ما يجرى على بعد مسافات ، سامعةً ما يُقال فى البُعد السحيق .

جميل معنى « عائشة » وجميل معنى « عصمت » . أمّا « تيمور » — فعلى عهدة من شرح لى وفسّر — فلفظة تركية أصلها فى اللغة العامية « دمير » . ومعناها الحديد الصلب الذى لم يُصقل بعد . ولذلك يخطىء من يُطلق هذه اللفظة على تيمورلنك للتصغير أو للاختصار . لأنّ معنى « تيمورلنك » نصل السيف المصقول .

على أننا قبل الانتباه لمعنى هذا الاسم نتأثر بوقعهِ المرضىّ للسمع . وهو يمثّل (على ما يلوح لى) مزيجاً من نبرة الأمر العسكرى وأبّهةٍ وقورةٍ رزينة . تمسّها كآبة طفيفة ووادعة ، كآبة معالجة الحياة ، والوداعة التى تنتج عنها فى الطبائع الكبيرة ، تلك الوداعة التى هى صقل الحياة للنفس بالتجارب . و بعدُ ، أيتّسعُ معنى الاسم فتكون كلمة تيمور رمزاً إلى أن الطبيعة النسوية المصرية بدأت تُصقل بعائشة ؟

لكنها لم تأخذ الاسم كما هو بل أطلقتهُ على نفسها بصيغة النسبة ، فإذا بها « التيمورية » . وفى هذه الأيام حيث صارت الألقاب والنعوت طوفاناً يغمر الصالح والطالح على السواء أصبح عدم اللقب لقباً ، وغدا التجرد من النعوت نعتاً ، فَجُمل بنا أن نوجز فى نعت الشاعرة المصرية ، وأن نسميها ، حيناً بعد حين ، بهذا الاسم الآخر الذى أحبته ووضعته فى فم أشخاص يستشهدون بأقوالها و يضربون بأشعارها الأمثال : « التيمورية » .

(٨)

شعرها

قالت التيمورية شعرها بالعربية لغة وطنها الجديد ، وبالتركية لغة وطنها الأول ، وهى لغة لايزال التخاطب بها فى بعض الأسر ذات الأصل التركى . وقالتهُ بالفارسية التى هى لفئة من أدباء العرب والترك لغة « مدرسية » ، شأنها عندهم شأن اليونانية واللاتينية عند الغربيين والسبب فى ذلك علاقة الفرس بهذين الشعبين الشرقيين من حيث السياسة والتاريخ . أما من حيث الرقىّ الفلسفىّ والعلمىّ والفنىّ فإن اليونان والرومان قد سبقوا العرب إلى الاقتباس عن تلك الحضارة القديمة والانتفاع بما توحى وما تدّخر .

ليس بوسعى درس شعرها غير العربى لجهلى اللغتين اللتين كُتب بهما . على أنى أذكر هنا شبه شهادةٍ سمعتُها عرَضاً من تيمور باشا ، وهى قول المغفور له السلطان حسين لسعادته : « إنهُ يفكر فيه كلما رأى ابنته قدرية تقرأ فى ديوان السيدة عائشة » . وهناك شهادة مسجلة فى آخر الديوان المذكور « كشوفة » . وهى رسالة من « إيران دولت عليه سى مصر قاهرة قونسولى سعادتلو دوقتور ميرزا محمد مهدى بك أفندى حضرتلرى » .

ولكن هل تعنى الشهادة والإنكار دواماً كل ما يُرصف فيهما ؟ نقرأ أحياناً وصف بعض نتاج الأقلام عندنا فنحسبُ أننا مقبلون على مثل ما أبرز أور بيذس ودانتى وشكسبير ، فنحملق بالعيون والقلوب ، فإذا بنا نطالع شيئاً حسناً قد يجوز « تشجيع » صاحبه ، أو شيئا غير حسن يتحتم أن يُحرم كاتبه من الفاكهة والحلوى طيلة أسبوع على الأقل .

لنكونن إذن من أنصار اللاشهادة ما بقينا فى هذه الفوضى الإطنابية . غير أننا لايسعنا إلا الإعجاب بقلم يعالج الشعر والآداب فى لغات ثلاث .

لا يذهلنا الآن أن يتكلم الشخص الواحد بثلاث لغات أو أربع ، وأن يتكلم

باعة الدكاكين وغلمان البواخر والمقاهى والفنادق بما يربو عليها ، لعلمنا أنهم لا يستعملون إلا الكلمات المألوفة التى تفى بالأغراض السطحية . لا يذهلنا ذلك لتتابع الاحتكاك والاختلاط بين الأمم . بيد أنه ندر حتى بين مشاهير الشعوب من الأفذاذ من عرف أكثر من لغتين معرفة يصح القول عندها إن « كل لسان بالحقيقة إنسان » .

عبقرية اللغات عبقرية مستقلة ، هى حذق عميق رشيق ينفذ فى أرواح الشعوب ويأوى إليها ، ثم يتحوّل اتساعاً وعلواً فيشملها . كأن الفرد الموهوب يتقمص فى كل شعب يدرس لغته فيتوحّد وإياهُ حياً بحياته ، ناطقاً بلهجتهِ ، مدركا منها الخصائص والمستعصيات . ويفسر الروحانيون هذه الموهبة بما يفسرون به المواهب الأخرى والعبقريات ، أعنى نظرية الأعمار المتكررة بالتناسخ والتجسد بين شعوب مختلفة .

وشرح ذلك أن الذى يتناول علما أو فناً أو لغة بسرعة ، لا « يدرس » مايدرسه مرة أولى ، بل يراجع شيئا عرفه سابقا وغاب عن ذاكرته ، بينا غيره من الأذكياء الذين قد يكونون أسبق إلى معالجة تلك المواهب وصقلها ، وأكبر منه سِنًّا ، وأوفر تجريباً دنيويا ، يبدون عند المقابلة به أطفالا فى الآراء والأساليب ، وإنك لترى فى نظراته وملامحه وقرار صوته علامات غريبة جذابة توحى إليك أنه عاش قديماً ، حتى وإن كان خُلُقُهُ مطبوعاً على الصبوة والبساطة والوداعة ، وتوحى إليك أن روحه استوعبت قسطا وافراً من الودائع والأسرار وفرائد الجمال .

نظرية كغيرها لا بأس من الإلمام بها ، ولكل أحد أن يفسر على مايرضيه موهبة اللغات الثلاث التى نالتها امرأة مخدرة سبقت جيلنا بجيلين .

* * *

قبل الإلماع إلى الشعر العربى والكلام عن شعر «عائشة» أعلم أن قولى لن يرضى أنصار القديم ولا أنصار الجديد . وقد يتفق الفريقان للحكم بأنى أنا الأخرى خليقة بالانقطاع عن الفاكهة والحلوى أسبوعاً أو أسابيع . شكراً لغيرتهم على خلاص

نفسى . ولما كنتُ من ألين الطبائع عريكة كنتُ مستعدةً لتغيير فكرى على شرط أن يقنعنى السادة المثقفون . و بعد فلنبدأ متوكلين على الله .

* * *

ليس أعسر من تعريف الملكة الشعرية وتحديد الشاعر . أصحيحٌ أن الشعر كله رقة وعذوبة و إحساس وموسيقى دون تفكير ومعرفة و بحث وقوة ؟ أم هو مزيجٌ من كل ما تفنيه الحياة وتولده من المدركات والمحسوسات ، سُبك فى قوالب متعددة وفقاً لأنظمة بديهية تتملص كالشعر نفسه من حظيرة التفهم والإدراك ؟ .

الشعر أحد أساليب التعبير عن خواطر وعواطف وحاجات ما فتئت الإنسانية تستوحيها وتنفعل بها ، قليلة هى تلك المعانى الأساسية . بيد أن شعبها ومناحيها تذهب كل مذهب ، وتضرب من أعماق البحار إلى أقطاب الأرض ، إلى فسيح السموات ، إلى رحبات الزمن فى الأزل منها والسرمد .

ولقد بدأت المهمة الشعرية عند كل قوم بوسيلة من الوسائل ، عن طريق العبادة أو تعظيم الأبطال ، أو شكوى الآلام و بث الغرام . و يظهر أن الداعى إليها عند العرب هو سير الأظعان فى البوادى وانتقال القوافل فى وحدة القفار ، فاهتدوا إلى الحداء مستحثين الإبل فى مستعر الرمضاء ، فخفّت الإبل سيراً وانتعش منها النشاط ، وارتاح الحادون إلى النشيد يجدون فيه ملهاةً عن المشقة وتسلية للتعب والضجر . وتطرقوا بعدئذ إلى تنويع الموضوعات فتغنوا بمزايا المحبوب وشبّهوهُ بما يعجبهم من خصائص الحيوان فى الفلوات التى يجتازون . ووصفوا وحشة المضارب المتنقلة ، والآثار العافية ، ومرارة الوداع والفراق ، وعدّدوا مفاخر القبيل والنسب ولذائذ العشق والحرب والغزو والتطعين والإخضاع .

وكان من ثروة اللغة فى الألفاظ والاستعارات (لكثرة القبائل المتكلمة العربية) مساعد على التزام البحر والقافية فى تنظيم الحداء ، فأوجد هذا فى الشعر العربى طلاوة وغنى فى الوتيرة الواحدة ، وجزالة ونكهة بدوية ودقة لفظية ، تفرّد بها دون غيره . ومنه كذلك جميع العيوب التى يسبحُ فيها شعرنا إلا القليل كما فى بحر طام .

يصمّم أكثر شعراء العرب على تقليد هذا الشاعر أو ذاك من القدماء بدلا من أن يجروا وراء سليقتهم الفردية ، فينجم لنا « طبعات » جديدة مشوهة من الشاعر المقلّد . ويخاطبوننا بلغة عصورٍ خلتْ ونحن اليوم فى عصر الحيرة والتردُّد والثورة الكبرى . فمن الإعجاب بالجزالة البدوية جاء حب النسخ والتقليد . وعنهُ نجم الفقر فى الخيال العربى ، والتقيُّد باللفظ دون المعنى ، وجمع الفكرة فى كلّ بيت بمفردهِ ، والخلل فى اتساق الخواطر ، والقصور فى تنظيم أجزاء الخطاب . حتى إنك كثيراً ماترى وجوب جعل آخر القصيدة أوّلها ومنتصفها آخرها .

وعن التقليد نتج حصر الشعر فى أبواب المدح والهجو والرثاء والحماسة والفخر والنسيب ، والحكمة أحياناً . وعنهُ ترتيب الدواوين على الحروف الأبجدية لأن التوانى وشيوع الموضوع يفقدان كلّ قصيدة عنوانها كما يفقدان كل ديوان فهرسه وعنهُ خصوصاً نجم إهمال التاريخ فى قصائد الشاعر ومؤلفات الكاتب ، كأن نموّ الفكر ومماشاة التطوُّر دوراً بعد دور شىء لا يُلتفت إليهِ . مع أن معرفة التاريخ ليست دون معرفة الحوادث والمؤثرات والسنّ والبيئة أهميةً فى تفهُّم فصل أو كتاب .

جرى العربى دواماً على الفطرة يتناوبهُ الكسل فى الرخاء وانوثب فى الشجاعة ففقدت أكثر شؤونهِ ميزة التنسيق التى يرينا منها الغربىُّ مُثلاً جميلة تنبّهنا إلى أنه لا كمال إلا باجتماع المادّة والتنظيم . وإلى أنهُ كما قد تذهب المادة الثمينة هدراً فى التشويش وسوء الوضع ، كذلك قد يوهم التنسيق بوجود ما ليس بالموجود ويُظهرُ اليسير كثيراً .

* * *

جميع هذه العيوب فى ديوان التيمورية حيث لا تنظيم ولا تنسيق ، حتى ولا تبويب على الأبجدية ، ولا أثر للتاريخ فى القصائد — إلا القصائد التاريخية فى السطر الأخير منها ! ولئن جرت على عادة العرب فى التعبير ، أى الإفصاح عن عواطفها غالباً باستعارات من سبقها ، فالأمر الذى يسبينى فى شعرها أن شخصيتها تبدو من خلال

المحفوظات كما يبدو الجسد فى لوحة تصويرية من خلال الأنسجة الشفّافة . وقد تفلّتت من عيب « المفاخرة » بذويها وأهلها . ولا هى تبدأ بالتغزّل لتنتهى بالإطناب . وليس للأطلال والمضارب ذكر فى قصائدها . وأما من حيث الصدق فأظنها فى مقدمة الصادقين من شعرائنا . ومعظم استسلامها للغلوّ فى جزء خارج عنها وهو شعر المجاملة . بينا هى فى شعرها الذى يرسم نفسها ساذجة مخلصة عذبة ، تروى حديثها بأسلوب ليس هو بالهندسىّ الذى لايقدرُ أنصارُ القديم سواه . إنما هو كما يقول الفرنجة : روائىٌّ (romantique) يجرى عليه بعض شعراء العصر .

وهذا الشعر الوجدانى بطبيعته ، الغنائى بلهجته ، ينقسم إلى خمسة أقسام كبرى . وهى :

١ً — شعر المجاملة

٢ً — الشعر العائلىّ

٣ً — الشعر الغزلىّ

٤ً — الشعر الأخلاقىّ

٥ً — الشعر الدينىّ أو الابتهالىّ

فى الأقسام الثلاثة الأولى تلقّت التأثر من الناس ، فأعادته إليهم نشيداً . وفى القسمين الأخيرين تلقت التأثر من مختلف الجهات فخاطبت نفسها وناجت نبيها الكريم مبتهلة إلى العزة الإلهية

١ً — شعر المجاملة

لقد حلت المجاملة عندنا مكان الصدق فى أمور جمة ، نخلو آدابنا العربية ومحافلنا الاجتماعية من النقد المنصف الحصيف . فإن نحن استنكفنا هذا التطفل من المجاملة ، وتأففنا لإدمان معالجيها والراضين بها ، فهذا لا يحول دون التقرير بأنها فى حالتها المعتدلة علامة للثقافة النفسية . المرء يعيش فى بيئته فعليه أن يقلع عما يزعج بنى جلدته لغير ما سبب . لذلك هو يضبط خوالج نفسه ، ويحاول الشعور معهم والتلطف إليهم

لا خبثاً ولا كذباً بل تمرناً على الغيرية بتهذيب ذاته فى فن الإرضاء « والدوزنة » واقتبال التضحية الصغيرة التى تسهل بالمران وتتحول شيئاً فشيئاً إلى سرور وقتى مأنوس .

استبدل كلمة « نرجو تشريفكم » فى دعوة بكلمة « احضر عندنا يوم كذا ساعة كذا » . تعلم أن الصراحة ليست هى الخشونة ، وتقدر المجاملة المعتدلة وآداب اللياقة . وتعلم لماذا هذه الملح فى حالة الدقة والإحكام تلقى فى اجتماعات الأنس رونقاً سطحياً مستحسناً .

أما « عائشة » فلديها الوقت الكافى لتتفنن فى تنميق الدعوة على هذا النسق :

لقد من الإله لنا بسعد وأشرقت الليالى بالأمانى
وقام الفوز فى الدنيا خطيباً ودق الحظ أوتار المثانى
وأنتم للمنى عين وروح ومشكاة السرور مع التهانى
لكم صفو المسرة فى انتظار فمنّوا بالتعطف والتدانى
أجيبوا دعوة الداعى فأنتم فرائد والمجالس كالجمان

وفى الوليمة يقرأ المدعوون هذه المجاملة الأخرى على لوحة كبيرة :

قد من فضلا بالصفا الفتاح وضياء توفيق الهنا مصباح
والسعد أقبل والعناية ساعدت دامت لنا بسرورنا الأفراح

وتطرز اسم أحد رجال الإنشاء :

علام الدر ياغواص غالى فبعه بما يُسام ولا تبال
لقد جاد الإله لنا ببحر يجود بدُرّهِ قبل السؤال

وتحيى دولتلو حسين باشا (أليس هو السلطان حسين بعدئذ ؟) لقدومه من السفر فتقول :

لاحت شموس السعد بالأقطار وجلت عروس الأنس للأبصار
واستبشرت مصر المنى بقدومه حسن الخلائق غرة الأنوار

. . . . . .

لو للديار فم لقالت مرحباً بشرى بنيّر عزتى ومدارى
قد أقبلت بالبشر دولتك التى هى تاج آمالى وعين فخارى

أكثر المجاملة فى شعرها لامتداح الخديوين (عشر قصائد تقريباً) . هاك كلاماً حلواً رناناً فى تهنئة الخديو بالعودة :

كللت تاج البدر قرباً بالشرف مذ حلّ فى مصر ركابك وانعطف
طربت بمقدمك السنى بلطفه مصر السعيدة والسرور بها هتف
. . . . . .
وازيّنت بكر الحبور وأصبحت مجلوة بين الرفاهة والترف
وتجملت مصر بما جاد الهنا ورخيم مطربها على عود عكف

فى منتهى اللطف هذان البيتان لا سيما الثانى . وفى الشطر الأخير نفحة شعرية منعشة . وهذا مثله :

وتراقصت مهج النفوس لبشرها كبلابل غرّدن فى روض أنف
أضحى يقول بسعد بابك نيلها أقبل على بحر الوفاء ولا تخف

* * *

أكل هذا محض رغبة فى المجاملة والإرضاء ؟ بل فيه بعض الصدق . إن للأعياد العمومية والاحتفالات بهجة و « جواً » ينفث فى الجماهير فكرة ويبث فيهم توقعاً ويخلق فى ذوى الشعور المتيقظة مختلف العواطف . فكيف لا تتأثر المرأة المحجوبة إذ تمر فى مركبتها المسدولة الأستار بين معالم الزينة والألوية والأنوار وصفوف الجنود وقرع الطبول ؟ كيف لا تهتم بالذات العلية التى تهتز البلاد لحركاتها وهى القريبة إليها بمنصب أبيها ، المدينة لها بعض الشىء بمرتبة أسرتها ، الملمة ببعض أحوالها بالاختلاط بنسائها ؟ فكما تهنىء خديوياً بالعودة تهنىء الخديوى التالى توفيق باشا بالتولية :

تيجانُ يمن الصفا أضحت تكلّلها يدُ السرور بفوز دائم بهج
والسعد أشرق نوراً ، والسما غنيت عن نور أقمارها والأرض عن سرُج

تقلّد النيّر الدرئ تولية ضياؤها لسوى الإصلاح لم يهج

. . . . . .

هذا الخديو الذى قرّت بموكبه عينُ الزمان وقالت للهدى ابتهج

يسوس بالعدل والإنصاف أمّته ويبذل الفضل والجدوى لكل رج

. . . . . .

والدهر رنم بالبشرى يؤرخه يا مصرُ قد زانك التوفيقُ بالبلج

(سنة ١٢٩٦ ٣٤١ ١٠٤ ٧٨ ٦٢٧ ١٤٦)

وإذ يمرّ الخديوى بينها العسل تنظم هذه الأبيات لتكتب على لوحات الزينة :

البشرُ أجرى بينها أنهر العسل والنصر أضحى بتوفيق السعودِ جلى

وافى الخديوى . . . . .

ما ثمّ أرضٌ سقاها غيثُ مقدمه إلا وفازت بزاهى الأنس والجزلِ

تهلّل القطر بشراً من زيارته وأيقن القوم حسن الفوز بالأملِ

وحين مولد ولىّ عهده :

قرّت عيونٌ للسعادة بالصفا مذ بشرت بسمىّ عم المصطفى

عباس أشرق بالمعالى نجمهُ من نير التوفيق سعداً أشرفا

رقصت بمنبتها الغصون بشارةً بقدوم من بوجوده دهرى صفا

قالت ميامن بشره تهنَ الورى فالأمن والتوفيق فوزاً أخلفا

إلّا أن هذه اللهجة تصطبغ بالجد فى قصيدة الترحيب بالخديوى بعد الثورة العرابية :

الله أكبر يوم آب عزيزنا عيدٌ كبيرٌ زانهُ التشريقُ

وافى الخديوىُّ الفخيم المرتضى ربّ الفخار عزيزنا توفيقُ

رفعت لهُ الأعلام يوم قدومه وبدا لها فى الخافقين خفوقُ

وسرت بأرجاء البلاد مسرّةٌ من عطرها روح النسيم عبيقُ

عزفت لهُ الأفراح ألحان الهنا وبدا يشيرُ لحسنها التصفيقُ

ومن ثم تمضى فى إنكار تلك الثورة التى يرض عنها الخديوى :

ولكَ السيادة ليس ينكر أمرها إلا عـــديم العقل أو زنديقُ
قدحت بأكباد العدا نارُ الغضا واشتدَّ ما بين الضلوع حريقُ
كفروا بأنعم فيض جدواك التى تربو على قطر النـدا وتفوق

. . . . . .

ظلموا نفوسهم بخـدعة مكرهم والمـكر يصمى أهـلهُ ويحيقُ
فرّقت شمـل جموعهم فمكانهم فى الابتعاد وفى الوبال سحيقُ

هـذه مصارحة خطيرة ، وهى الغمزة السياسية الوحيدة فى كتابات التيمورية إذا استثنينا مشايعتها للعرش فى قصائد الثناء . مشايعة فيها تتلخّص عاطفتها «الوطنية» وبها تحبُّ جوّ « مصر السعيدة » ونيلها الفياض ، وألحان أفراحها . تريد لمصر الخير والصلاح والهناء بواسطة الخديوى الذى ترى فيه أقدر عامل على ذلك ، ليس لأنهُ مصلحٌ أو خيّر بطبيعتهِ ، بل لأنه صاحب الأريكة . فكما أنهُ فوق رعاياهُ فى المكانة ، فهو كذلك لهم فى الصلاح والعدل المثل الأعلى .

والتيمورية فى هذه « المحافظة » السياسية متفقة وطبيعتها . لأننا رأينا فى مامضى وسنرى فى الباقى من آثارها أنها غير ثائرة .

٢ — شعرها العائلىّ

أليست المجاملة وحبّ التّساهل لتُيسّر العلاقات بين أعضاء البيت الواحد ، وتحلّ من المشاكل ما قد لا يفلح فى حلّهِ الصراحةُ والعناد ؟

تكاد تتوحّد العاطفة والمجاملة فى بعض شعر « عائشة » العائلىّ ، لأنّ الملاينة تتخذ لهجة أقرب إلى النفس فى مثل ترحيبها هذا بولادة شقيقها :

غنّى فؤادُ الأُمّ أهلاً بالذى مذ جاء أشرقتِ المنازلُ بالسنا

وفى قولها يوم بدأ يقرأ ، كأنما هى رأت فى المستقبل المرتبة العلمية التى هو بالغها :

لاح السعودُ وأسفر التوفيقُ وتلا لنا سور العلا توفيقُ[1]
رقم الفقيهُ له على لوح الهدى أقبِل ، فإنك للنجاح رفيق

وفى وصف هدية يعث بها عريس شقيقتها إلى عروسهِ :

تهادينا الزهور فعطّرتنا وللنسمات تعطيرٌ مضاعف
سألنا ما الذى أذكى شذاها فقيل لأنها نفحات آصف[2]

وقولها فى ختان ولدها :

دقّت له العلياء دفّ سرورهِ لما زها عن ثغرهِ البسّامِ
وغدت تعوّذ نجمه لما بدا ودعتهُ فى أفق المسرّة سامى

. . . . . .

رمقتهُ أحداق الورى من بشرها وصفت لهُ الأرواح فى الأجسام

هذا شعور الأمّ . ولأنها ترمق ولدها بالبشر ، وتصفو لهُ روحها ، فهى لا تقبل فى الثناء عليهِ بعدئذٍ معارضةً ولا إنكاراً ، فتكتب إليهِ مرةً تطلب كتاب « درّة المختار » :

طروسٌ حُرّرت فوراً فحاكت نسمة الأسحارْ
سأودعها تحيّات بها عرف الصبا قد سارْ
إلى عالى المكانة مَنْ سما فى المجد والمقدارْ
لهُ همٌ إذا ظهرتْ توارتْ دونها الأقمارْ
بذاك الأمُّ قد شهدتْ فأنّى لابنها الإنكارْ ؟

. . . . . .

وأرجو من معاليكم سريعاً « درّة المختار »

---

(١) اسم تيمور باشا فى الأصل « أحمد توفيق » ثم تغلب اسم « أحمد » على ما قيل لى وبه وحده عرف .
(٢) آصف باشا .

وتكتب إليهِ مرّة أخرى مشتاقةً صادقة ، وفى السطر الأخير مثالٌ من ذكرها لاسمها ، أما الشطر الأول فمن ألذّ أحاديث الأمومة :

قلبى لبعدك لم يحمدْ مجاورتى ... وفرّ نحو حبيب فى حشاهُ ربى
قلْ لى بطلعتك الغرّا وعزّتها ... واحكم بما ترتضى مُتّعت بالأرب
من غير قلب أتبقى روح عائشة ؟ ... .

* * *

أصدقُ صورة من شعرها العائلىّ فى المراثى ، ولاسيما مرثاة ابنتها المحبوبة توحيدة وهى القصيدة الوحيدة تقريباً التى يذكرها الناس من شعرها زاعمين أنها خيرما نظمت التيمورية . وحكمهم فى هذا حكمهم فى كثير من الشؤون : يقرّون رأياً ما ، ويعززونه ويتعصبون لهُ قبل الاطلاع على سواهُ ، بروح التساهل ، وقبل أن يصرفوا ولو دقائق فى البحث والمقارنة .

وأضيف إلى هذه المراثى الأربع مرثيتها للشيخ إبراهيم السقّا الذى يلوح كأنه عضوٌ من عائلتها المعنوية ، فتتوجّعُ لفقدهِ :

الدهر أبدل راحتى بعناء ... واعتاض صفو تنعّمى بشقاء
شجن عرى الإسلام بالظمأ الذى ... حلّ العرى بضمائر العلماء
. . . . . .
أضحت حصيداً أرض أزهرنا التى ... كانت بهِ كالدوحة الخضراء
تشكو الأوام وما بها من مطفىء ... مذ غاب سقّاه العلى بالماء
. . . . . :
قلبى عليهِ غدا لجمرات الغضا ... والوعتى من حرّهِ وشقائى
فلأذرفنّ أسًى عليهِ مدامعى ... مادمتُ عائشةً بخدر فنائى

اسمها من جديد ، يصحبهُ وصفٌ كاربٌ من التحجُّب إذ تدعو خدرها

« خدر فنائها » . أما فى مرثاة والدتها فتطلب للراحلة الرحمة ، وتهنىء القبر بنزيلته المخدَّرة التى لم تسفر لغريب :

يا قبر ، فاهنأ بالتى أحرزتها هى دُرَّةٌ بالدرج لاحت تسطعُ

. . . . . .

يا ربّ ، فاجعل جنّة المأوى لها داراً بطيب نعيمها تتمتّعُ
واسكب على حصبائها سحب الرضى فضلًا ، وإن تكُ قد سقتها الأدمعُ
يهنأ لأرباب النعيم نعيمهم . . . . . .

وبعد هذا الامتثال تنتفض صائحةً بالموت الذى فطّر حشاشتها . إلا أن صيحتها تظلُّ استرحاماً . وما أبلغ وصفها الردى « بمنهل التشتيت » ، على قياس النظرة الدنيوية التى تختبر بهِ الفراق المُرّ ، دون الأمل الروحىّ الذى يرى فيهِ وسيلة الاجتماع والاتحاد :

يامنهل التشتيت ، حسبك ما جرى فعيوننا قد أقسمتْ لا تهجعُ
ذهب الأحبَّة واستقلّ ركابهُم يا ليت روحى ودَّعتْ إذ ودَّعوا
يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه روحى ولكن «ليت» ليست تنفعُ

وفى رثاء شقيقتها :

أحبيبتى ، كيف الرضا بتشتتٍ قد ضرَّ بالإخوان والأولاد

فى هذه المرثاة ترتفع التيمورية لحظةً إلى ما فوق الندب والرثاء :

يا مَن أتى للقبر يقرأُ طرسه مهلًا ، فليس كتابهُ بمدادِ
وأعدْ لهُ نظراً فإنّ حروفه كتبت بذوب العين والأكبادِ

وفيها هذا البيت الذى يسجّل بداهةً وجوب انحلال الصور الكونية ليتسنّى لها أن تتألف وتتشكل مرةً أخرى . فيتمّ بذلك ناموسٌ من أكبر النواميس فى الوجود :

وُجدت ، وأعدمها الزمان حياتها ما أقرب الإعدام للإيجادِ !

تولّد المرأةُ أحيا صنوف التوليد المحسوس . فأحوال حياتها جميعاً تتهيأ لهذه الوظيفة وتتجه نحوها اتجاه الأنهار إلى البحر . ولقد شُبهت الأمّ دواماً بالطبيعة ، تلك الأمّ العظمى . وكان ما يرمز إلى أمومة الطبيعة ووظيفة التوليد الرائع فيها ، أنثى فى جميع أديان الأقدمين : فإيزيس المصريين « تلك الإلهة التى بدأت التوليد الإلهى ، الأمّ الإلهية التى ولدت جميع الأشياء » ، واللواتى قمن مقامها فى الميثولوجيات الأخرى ، يرمزن إلى المرأة القادرة بأمومتها ، الممثلة الطبيعة بوظيفتها القائمة حلقة مغناطيسية بين الحياة والحياة .

فما هو شعورها يوم ترى مخلوقها جامداً فى حضنها هامداً ؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذٍ متهدماً فى نظر الثكلى ، وأن ينقلب الروض قفراً ، وأن يغشى النور ظلام . ولا عجب أن يكون غمها الأكبر الذى لا يحتمل أن أن يظلّ هذا الكون المتهدّم لها عامراً لسواها ، ويظلّ هذا النور منتشراً ينير الناس ويفرحهم فى حين يدلهمُّ الجوّ حولها .

أىُّ مأساة هذه التى تتصدَّعُ من جرّائها الخليقة ؟ أغمضت « توحيدة » عينيها فكلُّ الحياة عند « عائشة » سواد وتهدُّم وتفجّع وتناقض أليم :

سُتر السنا وتحجبت شمس الضحى ... وتغيَّبت بعد الشروق بدورُ
ومضى الذى أهوى وجرَّ عنى الأسى ... .
. . . . . .
طافت بشهر الصوم أكواب الردى ... سحراً وأكواب الدموع تدورُ
فتناولت منها ابنتى فتغيَّرت ... وجناتُ خدّ شانها التغييرُ
فذوت أزاهيرُ الحياةِ بروضها ... وانقدَّ منها مائسٌ ونضير
يا روح روحى ، حلّها نزعُ الضنا ... عمَّا قليل ورقها ستطيرُ

* * *

من أرق قصائد « تنسن » الإنجليزى وأدلها على شاعريته الحنون قصيدة

« ملكة مايو » وهى عادة جرى عليها الإنجليز فى بعض المقاطعات أن يختاروا كل عام من بناتهم ملكةً للربيع .

فإذا شئت أن تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ قصيدة « تنسن » المذكورة "The May Queen" وقابل بينها و بين مرثاة التيمورية لابنتها ضارباً صفحاً عن الانساق التامّ فى قصيدة الشاعر الإنجليزى ، وعن نقيض ذلك فى قصيدة الشاعرة المصرية . تجد العاطفتين تتلامسان فى غير موضع . واذكر أن « عائشة » كانت تجهل الإنجليزية ، وأن هـذه القصيدة لم تنقل فى عصرها إلى العربية . وأظنها لم تنقل بعدئذٍ وقد أكون مخطئة .

فتاة « تنسن » تقول مودعةً والدتها ساعة الموت :

You'll bury me, my Mother, just beneath the hawthorn shade,
And you'll come sometimes and see me where lam lowly laid,
I shall not forget you, mother, I shall hear you when you pass,
With your feet above my head in the young and pleasant grass,.

I have been wild and wayward, but you'll forgive me now ;
You'll kiss me, my own mother, and forgive me ere I go ;
Nay, nay, you must not weep. (١)

و « توحيدة » تقول :

والقبر صار لغصن قدّى روضةً ريحانها عنـــد المزار زهورُ

وتقول :

أمّاه ، قد عزّ اللقاء وفى غدٍ سترين نعشى كالعروس يسيرُ (٢)

وسينتهى المسعى إلى اللحد الذى هو منزلى ، ولهُ الجموع تسيرُ (٣)

(١) « ادفنونى يا أماه ، فى ظل أشجار الزعرور
« وزوريني أحيانا حيث أنا متوارية
« لن أنساك ياأماه ، وعندما تمرين
« سأسمع وقع خطاك على الحشيش الغض اللطيف »

« كنت شرسة عنيدة ، إلا أنك الآن تسامحيني
« قبليني ياأماه : وسامحيني قبل أن أمضى
« لا ، لا . لا ينبغى أن تبكى »

(٢) و (٣) فى توارد اللفظة الواحدة فى بيتين متتابعين مثال لتكرار الألفاظ ذاتها فى ديوان=

قولى لربّ اللحد : « رفقاً بابنتى جاءت عروساً ساقها التقدير ! »
وتجلّدى بإزاء لحدى . . . .
أمّاه ، لا تنسى بحق بنوّتى قبرى لئلّا يحزن المقبورُ

فتاة « تنسن » تذكر حبيبها فتقول :

And say to Robin a kind word, and tell him not to fret:
There's many wothier than I would make him happy yet.
If I had lived—I cannot tell—I might have been his wife.
But all these things have ceased to be, with my desire of life (١)

وتوحيدة لا تذكر اسماً ، إنما تشير إلى الزواج الذى كان قريباً — لولا الموت :

أمّاهُ ، قد سلفت لنا أمنية يا حسنها لو ساقها التيسيرُ !
كانت كأحلام مضت ، وتخلفت منذ بان يوم البين وهو عسير
عودى إلى ربع خلا وماثر . . . . . .
صونى جهاز العرس تذكاراً ، فلى قد كان منه إلى الزفاف سرور

وكما تطلب فتاة « تنسن » الصلاة ، وتبارك الكاهن الذى أسرّ إليها بكلمات الرحمة والسلام فأفهمها عذوبة الغفران ، وحبّب إليها الموت بعد أن كان مخيفاً ، وأكّد لها أن المسيح الذى « مات لأجلها سيبلغها السماء » — كذلك تطلب « توحيدة » أن يزار قبرها ، وأن تتلى الصلوات على روحها لتحظى برحمة الربّ الغفور :

أماهُ لا تنسى بحق بنوّتى قبرى لئلا يحزن المقبورُ
ورجاء عفو ، أو تلاوة منزل ، فسواك من لى بالحنين يزورُ
فلعلما أحظى برحمة خالق هو راحمٌ ، برٌّ بنا ، وغفورُ

* * *

= التيمورية . وأرجح أن هذا التكرار عيب من العيوب الطبعية الكثيرة فيه . لأن « عائشة » لم تكن فقيرة اللغة على سهولة أسلوبها فى التعبير

(١) « قولى لروبن كلمة مواساة وقولى له أن لا يحزن
« كثيرات غيرى خير منى قد يجعلنه سعيداً
« لو عشت لربما كنت أصير له زوجة
« إلا أن جميع هذه الأشياء تلاشت مع رغبتى فى الحياة »

الأم عند « تنسن » لا تسمعنا صوتها . أما « عائشة » فتنتحبُ وتبكينا :

بنتاهُ ، يا كبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفوٌ شانهُ التكديرُ !
لا توصى ثكلى قد أذاب وتينها ... حزنٌ عليكِ وحسرةٌ وزفيرُ
قسماً بغضّ نواظر وتلهفى ... مذ غاب إنسان وفارق نورُ
و بقبلتى ثغراً تقضى نحبهُ ... فحرمتُ طيب شذاه وهو عطيرُ
والله لا أسلو التلاوة والدعا ... .
كلا ، ولا أنسى زفير توجُّعى ... والقدُّ منك لدى الثرى مدثورُ
أبكيك حتى نلتقى فى جنّةٍ ... برياض خلد . . . . . .

إنها تؤمن بالخلود ، لذلك يعقب تفجعها الخضوع . و بينا هى تقول بلسان الجسد :

قد كنت لا أرضى التباعد ساعةً ... كيف التصبر والبعاد دهورُ ؟
ولهى على « توحيدة » الحسن التى ... قد غاب بدر جمالها المستورُ

إذا بها يتجه انتباهها إلى ماوراء الموت ، فتذكر أن الفراق الطويل والانفصال المحسوس لا يجرّدانها من فخر الأمومة واغتباطها . فتقول بامتثال حزين وقد نما أملها بالاجتماع المنتظر :

هذا النعيم به الأحبَّةُ تلتقى ... لا عيش إلا عيشهُ المشكورُ

وتشكر الله على كلّ حال :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى ... راضٍ وباكٍ شاكرٍ وغفورُ

ابنتها إن فقدت بها « كبدها ولوعة مهجتها » فإنها رغم ذلك ، الفتاة الصغيرة التى لا تستطيع أن تكون لوالدتها الحصن الحسى والمساعد الذى يخفف الأثقال ويروّح الأعمال . صدر والدها هو لها ذلك الملجأ فى الحزن واليأس ، ومن قلبه التعزية ومن مقدرته المعونة . فيوم تفقدهُ تفقد الشاعرة هذه الشفقة التى تلذّ لها من أبيها وتذلها من الناس :

ياحسرة ابنتهِ إذا نظرت لها ... بمماتهِ عينٌ من البأساء

يا كنز آمالى وذخر مطالبى وسعود إقبالى وعين شفائى
ياطب آلامى ومرهم قرحتى وغذاء روحي ، بل ونهر غنائى
أبتاه ، قد جرّعتنى كأس النوى يا حرّ جرعته على أحشائى

وهذا الأنين يستحضر لذاكرتى أنين ابن أخيها المرحوم « محمد تيمور » فيما بعد عند ضريح والدتهِ فى ساعة غم متفجّع قانط :

أمّـــاه ، قومى واسمعى أمّـاه ، مالك لا تجيبى ؟
أرأيتِ دمع محـــاجرى وسمعت يا أمى نحيبى ؟
هل رَاع قلبك ما لقيتُ من النوائب والكروب ؟
إن الوجـــود صحيفة ملأى بأسرار القلوب
خلفتنى للهمّ فيـــهِ وللشـــدائد والخطوب
أمّـــاه ، إنى قد طرقـ تُ حماك فى اليوم العصيب
أبكى على ســـعدى كما يبكى الغريب على الغريب
. . . . . .
أفنى الغرام تجلُّدى وفقدتُ فى أهلى طبيبى
هذا جنـــاهُ أبى علىَّ وما جنيتُ على حبيبى

والفرق بين التيمورية وابن أخيها فى هـذا الانتحاب أن الشاعر الفتى همّهُ الشكوى وطلب الشفقة إذ ليس من يسمع لهُ ويواسيه غير الأمّ فى قبرها . أما «عائشة» فتعود إلى انتباه لطيف فى حسرتها ، وهو دليل رقة نسائية حلوة ، تعنى برضى والدها ميّتاً وحيًّا . وفيهِ كذلك دليل على الأثر الذى تركهُ الوالد الصالح الحكيم فى حياتها :

ياليت شعرى ، حين ما حلّ القضا هل كنت عنى راضياً أم نائى ؟

* * *

أسمعتَ القصب يشدو ؟

ذلك القصب الشرقىّ الساذج الذى سبق شـدوه جبروت الفراعنة وجلال

الأهرام وكتمان الهياكل — أسمعتهُ يشدو تحت النخيل على ضفاف النيل عند حلول الشفق ؟

لـكأنَّ شدو « عائشة » شدوه

إنها تجرب مزمارها فى المجاملة ، وتنتحب فيهِ بالرثاء ، لتبلغ منهُ أشجى قرار وأحر زفير فى شكايات الغرام . وتسمو به بعدئذ مرفرفةً كالألحان المجنّحة ، فى الابتهال إلى المهيمن على دوران الأكوان وحظوظ بنى الإنسان .

٣ً — شعرها الغزلى

« الحبُّ عارضٌ فى حياة الرجل ، ولـكنهُ حكايةُ حياةِ المرأة » .

كلمة شهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم فـكراً وعاطفةً واقتداراً ، وهى مدام « دى ستايل » الفرنساوية التى استمتعت بمجدٍ مستحَقٍّ ، وشهرة غير مختلسة ، وحفاوةٍ توافقت وعبقريتها النادرة . على أنها كانت دوماً جائعةَ العاطفة يُبرّحُ بها ظمأُ الحبِّ ، ولم تتبيَّن معنى السعادة — على قولها — إلا بالحبِّ المتبادل الذى تمَّ لها على نحو ما شاءت فى الأعوام الأخيرة من حياتها .

يسير الحبُّ عند المرأة سيره الطبيعىّ من الوالدين إلى الإخوة والأخوات والأقارب والأصدقاء ، ثم يتجهُ فى حينهِ إلى الخاطب الذى ينبغى أن يكون الحبيب ، فالزوج والولد والعائلة الجديدة بفروعها . ورغم أنَّ هذا الحبَّ هو نسيج حياةِ المرأة ، فإن الرجل الذى استسلم طول حياتهِ لإذلالها باسم القوّة والحصانة ، سدَّ فى وجهها باب الانتباه لعواطفها المشروعة ، وأنكر عليها التعبير عما يدلُّ على أنها ذاتُ يقظة مستقلة . فـكلُّ ما اجترأت المرأة على كتابته فى العصور المظلمة كان لوصف النبات والحيوان فى حكايات قصيرة . ولم تنظم إلّا الأناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، أو لتصف حياة الرعاة وعاداتهم . أما النساء العربيات فى الجاهلية وفى صدر الإسلام

فلم ينظمن — على ما أعلمُ — إلّا فى المدح والرثاء وما إليهما . هذا عدا ما نُسب من الغزل إلى بعض الشواعر .

فلو رجعنا إلى أوائل القرن الماضى — وهو عهد مدام « دى ستايل » نفسها — يوم أنشأت المرأة تنزع إلى تحرير فكرها و إطلاق براعتها ، وقابلناهُ بعهد « عائشة » وهى فى خدرها وراء الحجاب ، لوجدنا شاعرتنا فى طليعة نساء العهد الجديد المتعرّفات حقهنّ فى حرية العاطفة ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية ، ليس فى الشرق فقط بل فى العالم المتمدّن أجمع .

***

لا يبعدُ أنها قالت بعض شعرها الغزلى للمحاكاة والتقليد كما اعترفت فى تصدير بعض أبياتها حيث قالت : « وقالت متغزلة فى غير إنسان ، والقصد تمرين اللسان » .

ولكن أتكون الأبيات التالية فى بساطتها « لتمرين اللسان » كذلك ؟ :

أشكو الغرام ، ويشتكى جفنٌ تعذّب بالسهرْ
يا قلب حسبك ما جرى أحرقت جسمى بالشرر
رام الحبيب لك الضنى لِمْ ذا وأنت لهُ مقرّ ؟
لكنّ تعذيب الهوى ما للشجى منهُ مفرّ

إن شعرها يكون فى أصدق لهجاتهِ عندما تذكر هذا السعير الذى يضرمهُ الشوق وقد يثيرهُ الصدّ فى بعض الأمزجة إلى حين ، وهى تذكرهُ فى أكثر غزلها :

حرُّ التهابى ووجدى واحتراق دمى بفيح وادى الغضا عمن سواك خفى

وتجد شيئاً منهُ فى هذا المخمس الذى سمعتهم ينشدونهُ فى سوريا . ومنهُ :

يا ظبيُ فى قلبى عليك حرارةُ تطفى لظاها ، إن سمحت ، زيارةُ
حلو الرضاب ، أفى الوصال مرارةُ أم فى التفاتك للشجىّ خسارةُ
وجميع ربحى فى الهوى أنفقتهُ ؟

ومن مربّعاتها :

لما نأى عنى وبان صدودهُ والقلب أصبح لا يفيق عميدهُ
ملك الهوى رقى وحقّ وعيدهُ والحبُّ خطٌّ بالجباهِ قديمُ

هى تعنى بهذا الشطر الأخير — أو بالحرى الفكرة الأساسية الشائعة فى الشعر العربى والتى نقلتها هنا «عائشة» — تعنى شيئاً واقعاً ، وهو أن بين جماهير الناس أشخاصاً خُلقوا للحبّ أكثر من غيرهم ، فقُدر عليهم أن يعرفوا بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وأن يبحث الواحد منهم عن الآخر للسعادة أو للشقاء ، ولكن للحبّ وفى سبيل الحبّ على كل حال . وتمضى « عائشة » فى إتمام مربعاتها وكلها غنائية تجمع بين البساطة وسهولة المعنى وفتنة الغرام الضرورية لتوقيع الإنشاد :

يا ليلُ ، ها أنا فيك ساهٍ ساهرُ ولعزّةِ المحبوب شاكٍ شاكرُ
يا ليلُ ، قد أيقنتُ أنك كافرُ إذ لم يكن لى من دجاك رحيمُ

يا ليلُ إنك فى الفعال منافق هـذا تسهّدهُ ، وذاك توافقُ
وإذا لضيمٍ أنّ فيك العاشقُ ضاعفت شكواهُ وأنت بهيمُ

وهذا الخطاب لليل يذكرنى أبياتا لابن أخيها المرحوم « محمد بك تيمور » الذى رأى فى الليل عكس ما رأت ، فخاطبهُ بهذه الشكوى وهذا الاطمئنان :

أنا ، يا ليل ، أناجى منك سلطاناً رحيمْ

أنا فى الدنيا وحيد ولىَ الناس خصوم
راقهم ، إن جدَّ أمرٌ ، برقُ غدرٍ لا يدوم
ورأيت الغدر ناراً ورأوا فيهِ النعيم
هدموا بنيان ودّى وانمحت منهُ الرسوم
ومليك الليل برٌّ هو لى أمٌّ رؤوم

وهو لى خـلٌّ أمين ولأفـكارى نديم
أنا يا ليـل أناجى منك سـلطاناً رحيم

***

ارتكبتُ قبل اليوم جناية الصراحة ، فقلتُ إن الخيال الشعرى عندنا من الفقر بحيث نرى المعانى نفسها مكررة فى كل جيل بنفس الألفاظ القديمة . وقد بحث السادة الشعراء عما يزيدهم تقيُّداً بالماضى فأوجدوا ما يسمونه « المعارضة » ليتيسر لهم التزام البحر والقافية كما تعهدوا بالتزام الألفاظ والمعانى ! فلا أرى بعد هذا حقاً لأحد على «عائشة» ، لأنها وقفت عند معالم الغزل المألوفة ، التى قصرت فى شعرنا — إلا المستثنى منهُ — على التغزل بالعين والحاجب والخال وأخواتها . وشهدت جميع الأجيال السالفة تلوم العواذل وترجو أن ترد كيد اللاحى إلى نحره ، ففعلت هى فعلتهم جميعاً ، ولامت العواذل ، ورجت أن ترد كيد اللاحى إلى نحره . وتغزلوا بالخمرة ، ثم قال المتصوفة منهم إنهم يرمزون بها إلى الحب ، فتحدَّتهم التيمورية :

جهل العواذل ما تريد بشربها نفسى وما تلقى من السكرات
وتسلياً عن جفوةٍ أم صبوةٍ لفؤادى المضنى من الحسرات
شتَّان بين ظنونهـم وسرائرى الله يعـلم منتهى غاياتى

كذلك تحدتْ الأندلسيين فى شعورهم السطحىّ واصطناعهم تفهم الطبيعة فوصفت حركات حدثت للزهر والماء ، لأن المحبوب الذى تسميه التيمورية بهذا الاسم الطامى فى الشعر العربى ، أى الغصن ، بدا فى الروض ، فاهتزَّ لظهوره كل ما يمكن أن تهزهُ ألفاظ الشاعرة من الموجودات ، وهى إذن تتساءل :

إن كان ذلك حال الزهر من عجبٍ فـكيف حال أخى وجدٍ وأشواقِ ؟

كل هـذهِ الحذلقة عندها وعند من قلّدتهم كان مقدمة طويلة سبقت عهد « الرومنتزم » الصادق ، أى عهد دخول الشعراء إلى نفوسهم يلمسون جراحهم بأيديهم ويستوحونها ، ويتعرفون حالاتهم النفسية ليتمكنوا من النظر إلى الطبيعة ، تلك

النظرة الرائعة التى ترى فيها فاتن المعانى والألوان فى الحزن والابتهاج جميعاً . وماذُكر الشعور بالطبيعة ونزعة الرومنتزم أى النزعة الوجدانية الصميمة فى الأدب ، إلا ذُكر (جان جاك روسو) موجد تلك النزعة فى الغرب ، فسرت من بُعد إلينا ، وتعلّم الجيل الجديد من شعرائنا تعرُّف ما فى نفوسهم وفى الطبيعة من ظواهر وخواف وتغير وتنوُّع .

ولقد رأينا إلى الآن أنها تتكلم بلهجة الرجل ، وذلك راجع طبعاً إلى أمرين ذكرتهما قبلا ، وهما :

أولاً : عادة الضغط على عواطف المرأة وإخراس صوتها ، فكان أيسر لها أن تتخذ لهجة الرجل المصرَّح له بما يحظر عليها .

ثانياً : لأنها كانت مقلدة ، فقد قلدت الرجل بداهة فى لهجته كما هى قلدته فى معانيه ، فالرجال أساتذتنا ومهذبونا ومكيفونا ، نتلقى دروسنا عليهم ، ونقتبس المعرفة عن كتبهم ، ونستعين بذكائهم لصقل ذكائنا وإنمائه ، ومنهم نستقى كل فكر عظيم وكل عاطفة جليلة . وقد احتكروا كل أنواع المقدرة والتفوّق ، فلا غرو إذا ما فتحنا عيوننا وأذهاننا فرأينا جميع مناحى السلطة والسيطرة ممثلةً فيهم .

بيد أن الطبيعة النسائية تظهر عند «عائشة» بعض الظهور بالخجل الذى يشعر المرأة أحياناً بأنها صغيرة ضئيلة أمام من تحب ، وأن هذا الرجل الذى اختارته هو الذى يملأ العالم حياة ويفيض عليه البهجة والنور :

أنا المسربل بالأعذار من كلفى إذا التقينا ، وأنت الرائق الوسم

وتظهر طبيعة المرأة ظهوراً أتم فى هذا الخجل الصريح :

وهذه كلمات قادها شغف إليك ، لولاهُ لم تبرز من القلم

جاءت ومن خجل تمشى على مهلٍ تخاف عند لقاها زلة القدم

* * *

ولعل خير شعرها الغزلى فى القصائد التى قيلت خلال رمدها أو بعد الشفاء منه يوم تعود إلى مشهد النور ورؤية وجوه الأحباب . ومنها :

بكعبة الحسن إنساناً أرى فسلوا عينى التى طالما ضلّت من الغسق
وخبرونى ، أإنسانى صفا ودنا لمستهام رماهُ البين بالأرق ؟

ثم عاودها الرمد ، فأنشأت تشكو الألم والظلام والحرمان جميعاً :

فوا أسفى على إنسان عينى غدا فى سجن سقم واعتقال
حُجِبْتُ بسجنهِ عن كل خِلٍّ وصرتُ مخاطباً صور الخيال

ثم أرسلت الأمنية الواحدة المتضمنة أمانى أخرى :

فيا إنسان عين غاب عنها وبدَّلنى بهِ طول الملال
عسى ألقاك مبتهجاً ، معافًى ، وأُصْبِحُ مُنشداً « أملى صفالى ! »
لتهنأ مقلتى بسنا حبيبٍ بديع الحسن ، محمود الوصالِ
وأنظم أحرفى كالدرِّ عقداً بهِ جيد الصحائف كان حالى

ثم وصفت ماتلاقيه من عذاب الظلام والأرق :

فكم أمسى بما ألقى حزيناً وبين النوم معتركٌ وبينى
أبيتُ ومؤنسى الخفاش ليلاً وحالى معهُ شرُّ الحالتين
فذاك بنور عينيه مهنًّا ولى أسف بحجب المقلتين
وأبسط للظلام أكفَّ بَغْىٍ وأشقَى لوعةً بالظلمتين
ترانى معرضاً عن كلّ ضوء فهل خاصمت نور النيّرين ؟
ينافرنى السنا فأفرُّ منهُ كأن الضوء يطلبنى بدين
وأجنح للظلام جنوح صَبٍّ دنا لحبيبهِ بالرقمتين

على أنها شفيت نهائياً فأصبحت منشدة : « أملى صفالى ! » على نحو ماتمنَّت :

روحى بقربك قدنالت من الأرب ما ترتضيه ، فمرْها فى الهوى تُجِبِ
فضع يمينك فضلا فوق مهجتها تكف بالكفِّ ماعانتهُ من وصب
لا تنكرنَّ مزايا الحب ، إنَّ له فى الراحتين لراحات من التعب

وهذا معنى آخر مقتبس كسائر معانيها ، إلا أنه ذا مغزى يختفى وراء الألفاظ ،

فإنى أرى، فيه إشارة إلى مغناطيس اليد كم هو مؤثر وفعال بين المحبين والأصدقاء، حتى و بين الذين لا يفرقهم تنافر، وهو قاعدة علمية قامت عليها اليوم بعض تجارب التنويم المغناطيسى. وكيف لا يكون لكفّ الحبيب هذا التأثير، والحب محورُ الحياة :

صبٌّ لقربك بالحياة يجود أنّى لهُ بعد البعاد وجودُ
بختام طبع الحسن قد طبع الهوى فى قلبهِ هذا هو المقصود

ولكن العواذل — لحاهم الله! — عادوا إلى الاصطياد فى الماء العكر، كما يقول كتّابنا السياسيون فى هذه الأيام، فهل من انتقام أتمّ من رميهم بالكفر ؟ :

كأنهم بعنادى عصبة كفروا ماحلّ فى قلبهم صدق و إسلام

أما وهناك ما يفضى إلى خيبة الأمل وخمود العاطفة، فتسخط شاعرتنا وتجنح إلى الإعراض والنسيان، رغم الألم والمضض :

غضضتُ نواظرى عن غصن قَدٍّ وعفت حنين قلبى، وهو روحى
فلو عقب الهوى قلبى، وقالت إذن روحى أروح، لقلت روحى!
وأفكارى تسوح لفرط شوق فأطوى لوعتى، وأقول سوحى!
لظبيٍ قد بكت عينى، وقالت أنوح إلى النشور، فقلت نوحى!
وذاك لميلهِ شرقاً وغرباً لنفحات الغبوق مع الصبوح

* * *

وأذكر قبل الختام أن فى عصر « عائشة » كانت رائجة الأدوار والمواليا، تلك الأغانى العاميّة التى يفهمها الجميع و يستلذونها بلا إجهاد، لأنها تخاطب ألصق العواطف للوجدان بلغتهم اليومية، وهى كمجموعة المغنى العربىّ القديم محصورة فى شكوى الحب، ولوم الحبيب، ووصف جماله، وعبادة مانثر على وجنتهِ من خال وشامة، والتحرق من هجره، والتضرُّع إليه وللأيام والقدر ليروا جميعاً مايحسن صنعهُ لتسوية الأمور... ومجموعة شعر «عائشة» الغزلىّ لاتعلو على هذه الأغانى إلا بكونها منظومة. لذلك سهل إنشادها، لاسيما المربعات التى يغنونها فى «سوريا» لبساطة معانيها وتراكيبها

كذلك سمعت أدواراً وموالياً تنشد فى حفلات الأفراح واجتماعات الأُنس ، ولم يدر المنشدون أنهم يلحنون روح امرأة بإنشادهم ، كما أن كثيرين منا يجهلون عند ماينشدون « قَدَّك أمير الأغصان » و « الحلو لما انعطف » وغيرها أنهم يروون شعراً من « صبرى باشا » وأن كثيراً من الأدوار الشائعة هى من وضع أدباء كبار تحسبهم تحصنوا فى معاقل اللغة الفصحى . وهذا من الأدوار التى وضعتها « عائشة » :

حياتى بعد بعدك نوح ووعدى ضيّعك منى
دا أنت أنت الغذا للروح وليه ترضى البعاد عنى ؟

وغيره :

أنا أحبّ الحب نفس الغرام روحى
وصبحت أول صبّ الناس ترى نوحى
فى القلب من جوّه والسر هو هوّه

وهذا من المواليا :

يا ألف أهلاً ، مليك الحسن اهو قابل وكلّ مضنى بحسن الامتثال قابل
هاروت لحاظه أتى بالسحر من بابل كم من ضنى تاهت أفكارو وقلبو داب
يا قلب تقبل كدا ؟ قال لى نعم قابل

* * *

« كارودتشى » الإيطالىّ كبير فى موهبتهِ الشعرية وموهبتهِ النقدية ، ولقد كان كبيراً بظلمه أيضاً فيما يختص بشاعرية المرأة . ولهُ فى ذلك قول مأثور ، وهو أن اثنين عليهما ألا يقولا شعراً ، لا سيما الشعر الغزلىّ ، وهما : الكاهن المسيحى والمرأة . ولكثيرين من الناس رأى فى مواهب المرأة قد لا يبعد كثيراً عن رأى « كارودتشى » ولستُ أدرى هل كُتب لهم ما كُتب لكارودتشى ليحمله على تغيير رأيهِ تغييراً سجَّلهُ هو على نفسهِ باغتباط ، يوم أن وضع مقدمةً لمجموعة الشاعرة الإيطالية « أنى فيفانتى » . ليس ألطف من اندحار هؤلاء العظماء بعد تألههم فى بعض آرائهم

الصبيانية ، ولا أصرح من اعترافهم بخطأهم اعترافاً خالياً من التحفظات والاستدراكات والمداورات التى تشغل الكويتبين وذوى المدارك المحدودة الذين كأنهم لا يفتأون يقولون : إنى أعترف ، ولكنى لا أعترف . صحيح ، ولكنهُ غير صحيح . حسن ، ولكنهُ غير حسن . جميل ، ولكنه غير جميل ! .

عدّل «كارودتشى» رأيهُ بعد قراءة أشعار اليزابث براوانتج ، ومدام ديبورد فالمور ، وأنى فيفانتى ، وصرّح بأن لدى المرأة شيئاً تقولهُ غير ما تنسخهُ عن الرجل . ولا عجب فى قوله ، بل العجب فى قول المناقضين . لأنه مهما فاخر الرجل بعبقريتهِ التى نحبّها ، ونعجب بها ، ونستحثها فيهِ ، فهو لا يستطيع أن يدّعى أنه الطبيعة البشرية كلها ، لأن الطبيعة لم ترده أن يكون أكثر من النصف الواحد من الذات الإنسانية الكاملة . وهو هذا النصف النشيط الجميل البارع الذى أوجد لنا ما نتمتع به اليوم من حسنات المدنية . . . ومن الباقى الفائض عن الحسنات كذلك . . .

أما النصف الآخر فهو المرأة ، وهو الذى ظلّ إلى اليوم مهملًا ، مكموماً ، مسحوقاً ، بل هو الذى إذا ذُكر قيل إنه غير موجود . أعنى بهذا الحكم القاصر الرأى العام ، وأستثنى الأقلية المنصفة الرشيدة من الرجال الذين هم فى الحقيقة نبّهونا إلى نفوسنا ، ولهم كل الفضل فى تشجيعنا ومساعدتنا وإرشادنا .

طبيعىٌّ أن المرأة فى بادئ الأمر تقلد الرجل تقليد التلميذ للمعلم ، تقليد الصغير للكبير . طبيعىٌّ أن تفعل ذلك فى مجموعها المتيقظ ، وإن تفلتت من كل تقليد صاحباتُ العبقرية منذ نزعتهن الأولى ، مثيلات صافو ، ومدام دى ستايل ، ومدام دى نواى معاصرتنا التى فازت فى العام الماضى بجائزة الآداب من الأكادمية الفرنساوية ، وميتلد اسراوو التى يشبهها پول بورجه ببلزاك الكبير فى رواياتها المشبعة بوصف حياة الشعب وعاداتهِ وانفعالاتهِ وآلامهِ .

إنَّ عواطف المرأة وتأثراتها شىء بشرىٌّ مشروع . وبالمران ستتعلم الاستسلام لطبيعتها النسائية والركون إليها فى التعبير ، بعد أن قضت على خوالجها طويلًا ، فترسل الآن صيحة جديدة ، وتفتح فى إدراك البشر وفى آدابهم أفقاً جديداً .

أقول هذا بمنتهى التعقل و بدون مبالغة .

فنحن الجهة المقابلة فى الذات الإنسانية الواحدة نختبرُ ما لا يعرفهُ الرجل ، كما أن بعض اختبارات مولانا تظلُّ أبداً مغلقةً علينا . و إذا قُدّر للمرأة المصرية أن تلج هذا الباب وتمعن فى المسير كان مرجع الفضل إلى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادّة غير المطروقة ، و بكرت فى إرسال الزفرة الأولى حيث كانت تُكتمُ الزفرات . ويوم ينمو الأدب النسائى فى بلادنا فيجىء حافلًا بحياة فنية غنية ستظلُّ أناشيد « عائشة » ، هذه الأناشيد الساذجة ، لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة التى همهمت لنا بها أمهات أمهاتنا ، شجية مطلوبة كشدو القصب القائل : إن وراء المشاغل يظل القلب البشرى مثقلًا بحنين وظمإ لا يعرفان النفاد .

٤ و ٥ — شعرها الأخلاقى والدينى

أيتها السيدات والأوانس[1] :

كنّا فى المحاضرة السابقة وكأننا فى ليلةٍ من ليالى الأعراس . لأن شعر « عائشة » الغزلىّ كان يستحضر لنا نغمة القصب ، ونقرة الدفّ ، وشدو الملحّن . أما اليوم فأرجو أن لا تشكين عبوس موضوعنا الذى ينتقلُ بنا من « مجلس الأنس الهنى » إلى شبه خطبة يوم الجمعة فى المسجد ، فكأننا اليوم نقول مع « عائشة » :

تركتُ الحبَّ لا عن عجز طولٍ ولا عن لوم واشٍ أو رقيب
ولا من روع زفراتِ التصابى ولا من خوف أجفان الحبيب
ولا حذر الفراق وخوف هجرٍ بهِ تجرى المدامعُ كالصبيبِ
ولكنى اصطفيتُ عفاف نفس تقرُّ بصفوهِ عينُ الأريبِ

(١) هذا الفصل كالفصل الذى سبق عن شعر التيمورية الغزلى ألقته الكاتبة محاضرة على السيدات المصريات فى جمعية الشابات المسيحية .

أما نحن فلم نكن مخيَّرات فى انتقاء موضوعنا، ولـكننا مرغمات عليهِ بحكم سياق البحث وتآلفهِ . وأما « عائشـة » فتزعمُ أنها « اصطفت » ذلك بدافع « عفاف النفس » ولماذا ؟ :

وذاك لأننى فى عصر قوم به التهذيب كالأمر العجيبِ

يمكن أن نتخذ هذا البيت حدًّا فاصـلًا بين ما نظمتهُ التيمورية للمجاملة والتحدّى والرثاء والتعبير عن العواطف ، و بين ما نظمتهُ لتأدية صـورةٍ ما من رأى لها فى أحوال المجتمع ، أو تبصر فى شؤون هذا الناس وأخلاقهِ بين تقلبات الأيام وطوارىء الزمان . ورأيها ذاك رأىٌ شائع لا سيما بين الشرقيين . على أننا يهمنا هنا منهُ أن شاعرتنا أخذت بهِ ولو من وجهة سطحية . إنَّ «عائشة» لم تتعمق أصلًا فى فكرةٍ أو عاطفة ، بل كانت تـكتفى بالناحية المطروقة وترضى لها بالتعبير المألوف . ولـكن لا ننسينّ أنها المرأة المصرية الوحيـدة فى عصرها التى أقدمت على ما لم تدرك أهميتهُ يومئذٍ ألوفٌ من النساء وألوفٌ من الرجال .

ولقد ذكرتْ غير مرَّة فى شعرها وفى نثرها مابينها و بين وسطها من عدم التفاهم . وها كنَّ أبياتاً تدلُّ على مجهودها فى سبيل الانطباق على ذلك الوسط والتفاهم وإياه ، فى حين هو لم يبذل من ناحيته جهداً ولم يبدِ لملاقاتها اهتماماً :

عقدتُ عزمى وهم حلّوا عزائمهم وفى العزائم محـلولٌ ومعقودُ
ما طابقوا حين لم يُبدوا مجانسةً ولا تشابه معـدومٌ وموجودُ
أبدى ائتلافاً و يبدون الخلاف،وقد غدا لهم فى جيوش الهجر تجريدُ
وكم أقابلُهم مسـتنجزاً ، ولهم لسوء حظى فى الإعراض ترديدُ
لو للسـعادة عين فى مساعدتى ما كان لى ساعد بالطوق مشدودُ

هى تعنى أن السعادة لو شاءت أن تساعدها لما أوجدتها مقيدة بقيود هذه البيئة خاضعةً لظلم الوسط الذى يرهقها . وهنا ننشأُ نفهم أنها لم تـكن سعيدة ، وسنفهم شيئاً فشيئا أنها كانت تتألم من هذا الانفراد الأدبىّ ، ومن هذا المجهود الذى كانت

تؤدّيه فى نشاط ورجاء فيثوب عليها مقاومةً وفشلًا . فتراها تعطينا هذه النصيحة غير الجديدة :

لا تفرحنّ بدنيا أقبلت وصفت بكلّ ما ترتضى ، واحذر عواقبها !

وعلام هذا التحذير ؟ لأن لا شىء يدوم ، فيكون خير شىء وسط هذا التحوُّل فى العسر واليسر انتهاج طريق العفّة والصلاح :

ما الحظُّ إلّا امتلاك المرء عفّتَهُ وما السعادة إلا حسن أخلاق

وهى تعطينا بعض النصائح لتقول لنا تقريباً ماهى هذه الأخلاق الحسنة . فمنها عدم الركون إلى الملّقين ، وهو معنى مألوف — ومنها الإقلاع عن البخل وعدم التعلُّق بالمال :

ربُّ الدراهم أحصاها وعدَّدها فى حصن أكياسهِ ألفاً على ألف

والحمد للهِ إذ عَدّى لمسبحتى وعن سواها ترانى قاصر الطرف

ومنها حفظ اللسان لأننا جميعاً بشرٌ تشوّهنا العورات الأخلاقية :

احفظ لسانك من ذمّ الأنام ودَعْ أمر الجميع لمن أمضاهُ فى القِدَمِ

معايبُ الناسِ لا يكبرن عن غلطى إذا نممتُ بها فى محفلِ الهمم

ومنها صيانة النفس :

وما احتجابى عن عيب أتيتُ بهِ وإنما الصون من شأنى وغاياتى

ولو كنا فى مجال المناقشة لأثبتنا أن الصون لا يقومُ باسدالِ الخمار كما أن التبذُّل ليس قائماً بالسفور . وإنما الصيانة والعفّة ملكتان نبيلتان من ملكات النفس تخضع لهما المرأة بصرف النظر عن الزىّ فى هندام رأسها وجسدها . وسنرى عند ما ننظر فى آراء أخرى « لعائشة » أنها إن هى فاخرت بالحجاب فى شعرها فهى تشكوهُ فى نثرها ، وتقول إنه حرمها مجالسة أهل الفضل والأدب وحال دون استزادتها مما ترغبُ فيهِ من العلم والمعرفة . أما الآن فحسبنا الإصغاء إلى بقية مفاخرتها بالحجاب . هى تفاخر ونحن نرضى بهذه المفاخرة التى نحبُّ أن تكون فى صميم معناها نشيداً

للصيانة النسائية النفسية ، ونتمنى وجودها و بأرقى درجاتها عند كل امرأة وفتاة .
وهذه هى أبيات المفاخرة الوحيدة فى شعر « عائشة » :

بيد العفاف أصون عزّ حجابى ... وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرةٍ وقّادةٍ ، وقريحةٍ ... نقّادة ، قد كُمّلت آدابى

ومنها: ما ساءنى خدرى ، وعقد عصابتى ... وطراز ثوبى ، واعتزازُ رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ، ولا ... سدل الخمار بلمّتى ونقابى
عن طى مضمار الرهان إذا اشتكت ... صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتى فى راحتى وتفرّسى ... فى حُسن ما أسعى لخير مآبِ

* * *

هذه نيات صالحة وآراء طيبة ، ولكن لو خطر لامرئ أن يقول للشاعرة : « كلامك ياسيدتى على الرأس والعين ، ولكنى أرى أنه لايتطابق والواقع ، فالشعر الأخلاقى غير الشعر الغزلى . هذا يلقى إلينا بما يريد من العواطف والخيالات والمبالغات فيروقنا ونطرب لأثره ؛ سواء صدقناه أو كذبناه . أما الشعر الأخلاقى فشىء آخر ، إنه يلقى علىّ درسا ويختط لى طريقاً ، فلى الحق أن أناقشهُ عند ما يقول لى : إن السعادة فى حسن الأخلاق ، وأن أحفظ لسانى عن ذم الأنام ، إلى آخر ما أغدقته علىّ من النصائح ، فأنا إنسان صالح لم أجن إثماً ، ولا آذيت أحدا ، أعبد الله وأسالم الناس وأتكل على ذاتى ، وأعمل ليل نهار لأتبادل و إخوانى البشر منافع العمل وحسناته . ورغم ذلك فلست سعيداً ، فى حين أن فلاناً الذى لايراعى فى معاملته عدلاً ، ولاذماماً ، ولا كرامةً ، ولا حقاً — وهو سيئ الأخلاق بشهادة الذين أرغموا على معاشرته ، فهو مع ذلك سعيد تبسم له الدنيا ، ويساعده الحظ فى جميع شئونه . إذن لماذا تثبتين لى مالايتطابق والواقع ؟ وكيف أحتمل السعادة حولى يتمتع بها الجميع وأنا محروم ، وهؤلاء الناس الذين يمزقون نفسى بكلامهم وافترائهم وتطاولهم ، ترين بماذا أجيبهم ؟ .

عبثاً نلقى على شاعرتنا هذه الأسئلة فهى لاتعطينا عنها جواباً ، وإنما تحدثنا عما فعلت هى عند شعورها بمثلما نتألم منه ، فكانت لها النوائب وسيلة للتشدد والتقوى والتغلب على النفس المتألمة وعلى العالم الظالم :

كم قابلتنى ليال ريحها سعرٌ ... بطيئةُ السير ترمى بالشرارات
لاقيتُها بجميل الصبر من جلدى ... وبت أسقى الثرى من غيث عبراتى
كم أقعدتنىَ أيامٌ بصدمتها ... وقمتُ بالعزم مشهور العنايات

وأما كلام الناس ، أغبياء كانوا لايدركون فضلها أم حُسَّاداً يتحرّقون من تفردها ، فإنها تحتمله بتجلد وأدب ، ولاتشكوهم لسواهم ، لأنها على خبرة بالاهتمام المصطنع الذى قد يتكلفونه ، وهم فى سرائرهم غافلون عنه أو مبتهجون ، وإن تعمّلوا الاهتمام والعطف تظاهرت هى بالسرور وحدّثتهم عن « ابتهاجاتها » :

وكم حليفة سعدٍ إذ تعنفنى ... تقول سعيك مذموم النهايات
فأخفض الطرف من حزن أكابدهُ ... وأهمل الدمع من تلك المقالات

ومنها : ومذ أتت عذّلى تبغى مصادرتى ... جوراً ، منحتهمو أسنى الكرامات
وكلّما عدّدوا ذنباً رُميتُ بهِ ... بسطتُ للعفو راحاتِ اعترافاتى
ولم أفُهْ لذوى ردٍّ لمعرفتى ... أنَّ الحبيب حبيبٌ فى المسرّات
أقوم والضيم تطوينى نوائبهُ ... طيَّ السجلّ ، ولم أسمعهُ أنَّاتى
أخفى الأسى إن حسودٌ جاء يسألنى ... لأين تسعى ؟ وأومى لابتهاجاتى

ولكن لماذا هذا الاحتمال ؟ ولماذا يكون بين الناس المحظوظ والمغبون ؟ إنَّ الجواب عندها امتثال كئيب :

أقولُ للصبر لا عتبٌ على زمنٍ ... أعطى لأبنائهِ أسمى العطيّاتِ

فيحدّثها الصبر بملخّص حكاية تقلّب الأيام ، فتتذوّق هذا الحديث كأنما تجد فيه بعض التعزية :

فقال مهلاً ، ولا تغرُرْكِ شوكتهم ... فالصحو يعقبهُ سودُ الغمامات
فليس كلُّ ملومٍ دام مكتئباً ... وما السعيد سعيدٌ للملافاةِ

فدهرهم غرّهم جهلاً وما علموا أنّ الزمان قريب الإلتفاناتِ

وهـذه الموآساة التى تضمها على لسان « الصبر » لم تفلح فى تعزيتها وتطمين خاطرها على ما يظهر ، لأنها فى آخر القصيدة تعود إلى الشكوى والتضرّع إلى الله :

ربى إلهى معبودى وملتجئى إليك أرفع بثى وابتهالاتى
قدضرّنى طعن حسّادى وأنت ترى ظلمى ، وعلمك يغنى عن سؤالاتى

ومنها : فـكيف أشكو لمخلوق، وقد لجأت لك الخلائق فى يسرٍ وشدّاتِ
فيا لها من جراح كلما اتسعت أعيت طبيبى رغماً عن مداواتى

وهكذا نحن من شعر « عائشة » الأخلاقى فى دائرة صغيرة لا نقع فيها على متين الحجة أو مكتمل الرأى القائم بنفسه . ولـكن نلقى فيهـا الـكلمات المسكّنة من الصبر ، والتجلد ، والإنذار بأن الأيام متقلّبة الألوان لا تدوم على حال . ودفعاً للألم تتمنّى «عائشة» أن تتجرّد من كلّ شعور ، فلا ترجو ولا تغتبط ولا تنتظر السعادة كيلا تفاجأ بالفشل والقطيعة ، وتأتى بهذا البيت :

فلا تقل لى متاع وهو عاريةٌ واليأس عندى راحات اعترافاتى

على أن الراحة الـكبرى عندها هى فى الصلاة والالتجاء إلى الله الذى هو وحدهُ يسعد ويشقى . وهذه العاطفة تصل بين شعرها الأخلاقىّ وشعرها الدينىّ فتجعل منهما مزيجاً واحداً كما رأينا .

* * *

لقد تغذّت الإنسانية منذ فجر تاريخها بعواطف أوّلية قليلة منها استدرّت كلّ وحيها ، وما فتئت هى نفسها تسوقها فى جهادها . ومن تلك العواطف الخيّر ومنها السيّء . ومن مظاهرها ما هو صالح ومنها ما هو طالح . وفى مقدمة تلك العواطف نجد حبّ الذات ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وحبّ الاتكال وحبّ المخاطرة . ومن امتزاج هذه العواطف فى نفوس الأفراد وفى نفوس الجماهير تتكوّن الانفعالات والرغبات والشهوات التى تتلاطم فيما بينها ، فينتج عن تباينها ومضيّها

فى استرسالها ما نسميه التطور الإنسانىّ الذى نشهد منهُ هذه الصور الرائعة دهراً بعد دهر فى ازدهار الحضارات ، وفى كلّ مايهتدى إليهِ الإنسان من اكتشاف علمىّ واختراع آلىّ ، وابتكار أدبىّ وفنىّ ، ونظام دولىّ واجتماعىّ .

ومن تلك العواطف الأساسية الميل إلى الأخلاق الطيبة الذى نجد شيئا منه حتى عند أحطّ الجناة غريزة . ومعهُ العاطفة الدينية التى تتلوّن بشتى الألوان على تنوع النفوس ، حتى إنها لتبدو أحياناً فى مظهر نزعهُ « كفراً » . على أنها عريقة متأصلة فى قلب الإنسان الذى يروعهُ هذا الكون العظيم فيتساءل من ذا الذى أنشأهُ ؟ ويذهلهُ النظام الدقيق فى هذا الفلك الدائر فيبحث عن الغاية التى من أجلها ينفذ النظام . ويجزع مما يهدّدهُ من حاجة ومرض وعجز وألم وموت ، فيلجأ إلى قوة عليا تهيمن على عوز البشر وبؤسهم ، ويبتهل إليها مستسلماً لعوامل رحمتها وأحكام حكمتها . هذه هى البواعث الأولية للشعور الدينىّ الذى يسبك فى كلّ نفس بقالبها الخاصّ . ولقد كانت العاطفة الدينية حية كلّ الحياة عند شاعرتنا ، وقد سمعتُ من شقيقها المفضال « أحمد تيمور باشا » أنها كانت تقية تصلى وتصوم وتقوم بكل الفرائض الدينية . على أن لاتعمق فى شعرها الدينى ولاروعة ، فهو كسائر شعرها يتناول الناحية المألوفة للجميع . وهو يمتزج بالعاطفة الأخلاقية من حيث الاعتراف بالذنوب والرغبة فى التوبة . ومن ثم يبدو فيه الاستعداد لساعة الرحيل . وذكر هذه الساعة يحملها على وصف بعض مايجول فى القلب من الأطماع حتى عند سرير المحتضر أمام حشرجة النزع ، وعند هيل الثرى على نعوش الأقربين . وفى هذه الأبيات سخرية طفيفة فى مسّ من الكآبة على مايبذلهُ الحىّ من مجهود لحشد المال :

أراك بلمتى ، ياشيب ، عظنى ... وقد حان الرحيل غداً ، لعلّى !
فأوّل مانرى حدث مهول ... تهيل ثراهُ كفٌّ أخ وخلّ
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى ... وهم نسبى وأبنائى وأهلى
وتشتغل البنون بقسم مالٍ ... أنا من حشده فى عظم شغل

وليست بغريبة عن حيرة النفس وتردُّدها بين مايخالجها من عوامل الإغراء بملذات العالم وبين نزعتها إلى البرّ والتقوى :

كيف المسير إلى أرض المنى وأنا ... بطاعة النفس فى قيد الضلالات ؟

والجواب فى الابتهال الذى ألفناه فى شعر « عائشة » الدينىّ ، والذى جعلنى أن أنعت هذا الشعر بالابتهالىّ :

إن كان عصيانى وسوء جنايتى ... عَظُما ، وصرت مهدّدا بجزائى
فقضاء عفوك لا حدود لوسعهِ ... وعليهِ معتمدى وحسن رجائى
يامن يرى ما فى الضمير ولا يُرى ... إنى رجوتك أن تجيب دعائى
يا عالم الشكوى وحرّ توجُّعى ... دائى عظيم القرح ، جُد بدوائى !
بحبيبك الهادى سألتك دلنى ... لعلاج أمراضى وجلب شفائى

وهذا الشعر الابتهالىّ لشاعرة مسلمة مصرية عربية يرجع إلىّ ذكر القديسة « تريزا » الأوربية الأسبانية المسيحية التى عاشت فى القرن السادس عشر وأسّست رهبنة الراهبات الكرمليات . وهى التى لُقِّبَتْ « بالعذراء الساروفية » نسبة إلى الملائكة الساروفيم ، لفرط تقواها ، ونقاء نفسها ، وروحانيتها الحارة ، وشغفها بالسيد المسيح الذى كانت تتخيل أنهُ يتجلى لها فى ساعات الانخطاف والرؤيا ويخاطبها . وقد نظمت شعراً ابتهاليا جميلاً فى لغتها الأسبانية الجميلة ، أشهره نشيد قصير ترجو فيهِ الله أن يمن عليها بالمنون لتتجرد من ثوبها الترابى فتراه وجهاً لوجه . فهى فى ذلك النشيد الملتهب تقول :

نشيد القديسة « تريزا »

التعريب	الأصل الأسبانى
أحيا دون أن أحيا فى نفسى وأنتظر حياةً هكذا رفيعة حتى إنى لأموت لأنى لا أموت ! . .	Vivo sin viver en mi Y tan alta vida espero Que muero porche no muero !..
وإنى ليزيد فى كلفى أن أرى إلهى لدىّ سجيناً حتى إنى لأموت لأنى لا أموت ! .	Mas causa en mi tal pasion Ver a dios mi prisionero Que muero porche no muero !..
انظر كيف أذوب شوقاً لرؤياك ، ولا طاقة لى على الحياة بدونك ، حتى إنى لأموت لأنى لا أموت ! .	Mira que muero per veret Y vivir sin ti no puedo Que muero porche no muero !..
ثمتى يتيسر لى ، يا إلهى ، أن أقول القول الفصل بأنى أموت ، لأنى لا أموت ؟ . .	O mi Dios ! quando sera Quando yo diga de vero Que muero porche no muero !..

ولكن الفرق بين الشاعرتين أن القديسة المسيحية واثقة برضى الله عنها ، عالمة بحبهِ لها ، وإنما تعذبها قيود الجسد التى تشدُّ وثاقها بالأرض وتحول دون فناء روحها فى روح الله . ففى صيحتها شىء من التدلل على المحبوب ، وفيها كذلك صدحة الشوق ونشوة الظفر . أما التيمورية فذليلة فى لهجتها ، ولكأنها كانت تيأس لولا رحمة الله الواسعة ، ولولا شفاعة النبىّ الكريم الذى تلوذ بجاه ، وتترنم بمدحهِ وبتمجيد أمّتهِ :

طه الذى قد كسى إشراق بعثتهِ ... وجه الوجود سناء الرشدِ والكرمِ
طه الذى كلّلت أنوار سنتهِ ... تيجان أمتهِ فضلاً على الأمم

نعم الحبيب الذى منّ الرقيب بهِ ... وهو القريب لراجى المجد والنعمِ
روحى الفداء ، ومن لى أن أكون لهُ ... هذا الفداء ، وموجودى كمنعدمِ
وما هى الروح حتى أفتديه بها ... وهى البغاث بغار الظلم والظُلَمِ

ومنها :

ولا يحيط بهِ مدح ولو جُعِلَت ... جوارحى ألسناً ينطقنَ بالحكمِ
وما سوى عزّ كونى بعض أمتهِ ... ذخراً أفوز بهِ من زلّة الوصمِ
إلاّ التماسى عفواً بالشفاعة لى ... من خاتم الرسل خير الخلق كلّهمِ

***

رأينا من هذه المقابلة الصغيرة ، أيتها السيدات ، كيف أنهُ كما يتلاقى البشر فى أبحاث العلم وضروب الفنّ والفلسفة والحكمة ، و يتفاهمون بالحبّ و بالمعانى الإنسانية الرفيعة ، كذلك تتشابه عواطف البر والتقوى فى قلوب الصالحين .

امرأتان مختلفتان ديناً وأمة ، تعيشان على تباعد ثلاثمائة عام فى بيئتين إحداها غريبة عن الأخرى كل الغربة ، وهما رغم ذلك تناجيان إلهاً واحداً لا إله إلاّ هو ، وتصليان صلاةً واحدة حافلة بالأمل والاتكال فى لغة الغرب والشرق على السواء .

وبين ما يبرز الآن فى الشرق من العوامل الجديدة نجد الدعوة إلى وحدة قومية ووحدة إنسانية مع احترام العقائد الدينية ، وترك الحرية لكل أحد يتمتع بها دون التعدى على حرية أخيهِ ، ودون أن تكون هذه العقائد واحترامها عاملة فى تفريق الكلمة وتمزيق الشمل . و إنى لأحسبها لعائشة مفخرة أن تكون جاءت بقول لهُ فوق قيمتهِ الأدبية والتاريخية ، ما يستمد منهُ هذه المقابلة القيمة ، وقد أتاح لنا فرصة للإلماع إلى هذه الوحدة النبيلة التى يتفشى الآن حبها فى المشرق ، والتى يتصافح عندها بنو الإنسان فضلاً عن بنى الأوطان .

٩ — نثرها

(١) كتاب « نتائج الأحوال »

أمَّا الشعرُ فقد قرضتهُ « عائشة » تحدّياً لبعض مَن سبقنها من « ذوات الخدر والأحسابِ » أو كما قالت :

ما قلتُه إلَّا فكاهة ناطقٍ يهوى بلاغة منطقٍ وكتابِ

وأمَّا النثر فقد عالجتهُ لملء ساعات الفراغ الطويلة التى لم تكن لتستنفدها محبَّةُ الأبناء ، وفروض العبادة ، وقرض الشعر . وقد شعرت قليلًا قليلًا بأنها تحبُّ أن يكون لديها بلاغ تؤديه إلى قومها . وأمَّا هذا الكتاب خاصَّة : « نتائج الأحوال » ، فهى تبسطُ لنا فى مقدمتهِ ما الباعث على إنشائهِ . وتخبرنا كيف كانت دواماً تميل إلى استقصاء أحاديث السلف ، وتحبُّ مسامرة الكبار ومجالس العجائز لتسمع أخبارهم « والتقط من تلك النوادر أعاجيب القدر » . ولما تمَّ لها ذلك وأنشأت تطالعُ « من التواريخ ماقدرت قدرتى أن تدانيه ، وما أمكن فكرتى الخامدة أن تصل إلى فهم معانيهِ » . « ولمَّا تأمَّلتُ فى سيْر سِيَر الأُمم ، وتحقَّقتُ أن السعد والنحس منوطان بالقَدَرِ من القِدَم ، وقد شاهدتُ والله فى نفسى صدق هذا الخبر » . « فدعتنى الرأفة بكلّ مغبون لقى ما لقيتُ ، ودُهى بما بهِ دهيتُ ، إلى أن أُبدع لهُ أحدوثةً تسلّيه عن أشجانهِ عند تزاحم الأفكار . . . »

إذن فلتعمدنْ إلى تخيل الخيالات ونسج الحكايات . وذلك لن يكلّفها أكثر من جمع شتات ماقرَّ فى ذهنها من حكمة العجائز ومايتطابق وإياهُ من تجربتها الشخصية ، لتدوين آراء شائعة مقبولة فى أحوال هذا الناس : فى السعد والنحس ، فى الصبر والمؤاساة ، فى الخيانة والوفاء ، فى الحبّ والمقت ، فى القضاء والقدر ، وفى التربية الصالحة والأخلاق الحسنة ، وما يستتبع المصائب والرزايا فى النفس الغنيّة الرشيدة من التقويم والرجوع عن الغىّ والضلال .

هذا هو « نتائج الأحوال » . هو حقًّا من رواسب تلك القصص التى سمعناها جميعاً فى طفولتنا ، خلال الليالى الساهرة فى زمهرير الشتاء ، وهزيم الرعد ، وتدفُّق

الأمطار . فتمتَّعنا منها بلذاذتين اثنتين : لذاذة التحرُّز من غضب الطبيعة وصقيعها فى ملجإٍ دافىء ، ولذاذة استماع سير الملوك والجانّ والأبطال والعاشقين وأحكام القضاء والقدر ، لينتهى بنا الأمر فى الغالب إلى اندحار الشرّ وفوز الصلاح .

وإذا رمت مجملًا من « نتائج الأحوال » فهب أنك تستمع إلىَّ فى ليـلةٍ ممطرةٍ صاقعة وأنت فى ثوب الطفل المتطلع الغرير — فى هذه الحال تتذوَّق حكايتى ويروقك أن أُكرر على مسمعك ما عرفتهُ من أقاصيص الماضى الساذج .

***

هذه كـكل قصة قديمة تحترم نفسها ، فيها ملك وابن ملك ووزير ونديم . وإليكَ أسماء أهم الأشخاص :

العـادل — « ملك عظيم صالح منصور » .

الممدوح — ولىّ عهده ومحور ومطمح آمالهِ وآمال الشعب . وهو بطل القصة .

عقيل — الوزير . وهو رجل واسع الإدراك ، حاذق التدبير ، وقد فوَّض إليهِ الملك أن يدبر شؤون الدولة .

مالك — النديم . ويظهر أنهُ عدا ما يستحسن فى النديم من براعة الظرف ، ولطف السمر (وهى مواهب لم تبدُ منه خلال قصتنا) وعذوبة النطق ، فهو ذو مواهب خلقيَّة كالوزير من حيث الاستقامة والحصافة وسعة الإدراك وحسن التدبير . قد يطلب علماء النفس إيضاحاً عن هذا التقسيم السيكولوجى ، ولـكنَّ استفهامهم هذا لا يغيّر الواقع .

دشنام — قيّم على خزينة المـال .

غدور — قيّم على خزينة السلاح .

أما « حيلة » القصة فمنشؤها أن الملك مولعٌ بولدهِ ، وهو شأن كثيرين من الآباء الشرقيين يسىء فهم المحبَّة الوالدية ، ويحسبها قائمة فى إنالة الولد جميع مطالبهِ وعدم التعرُّض لصدّ أهوائهِ . وقد بدأت تظهر نتائج هذه التربية السيئة فى سـلوك الولد وفساد أخلاقه . ولم يجرؤ على لفت الملك إلى ذلك إلا الوزير والنديم . ففعلا

فى حديث رمزىّ متبسّط ذكرا فيهِ غضناً فى حديقةٍ لم يحسن تقليمهُ . فأدرك الملك اللبيب غرضهما ، وأفحمتهُ حجتهما ، وندبهما لتثقيف ولىّ عهدهِ وتعليمهِ . فقاما بذلك خير قيام ، وظهرت نتيجةُ مجهودهما فى وقت قصير بتحوُّل التلميذ النجيب عن وجهة الطلاح والجموح إلى وجهة الصلاح والسجاحة . ولا تسل عن سرور الملك ! فإنهُ عبَّر عنهُ تعبيراً فاخراً بالطريقة التى ألفها ملوك الحكايات فى عطفهم على من يحسنون فى سبيلهم البلاء ، ويخدمونهم بصدق ووفاء .

و إزاء هذين الرجلين الوفيين لمولاهما ، ولوظيفتهما ، وللمصلحة العامة (إن جاز مثل هذا الوصف فى الحكايات القديمة) نجد مثالا شنيعاً للحسد والخيانة والدسيسة فى القيمين «دشنام» و «غدور» ، فقد أخذهما الاستياء من فلاح الوزير والنديم ، فدأبا ليفسدا عليهما الأمر بتملُّق الأمير الصغير و إيغار صدره على هذين اللذين يقصيانهِ عن أندية اللهو والمرح ، ويبعدان بينه و بين والده بحجة التهذيب والتعليم ، وهما فى الواقع يكيدان لهُ لانتقاص سطوتهِ ، وكرامتهِ ، وتنغيص حياتهِ .

واستتبع ذلك جهاد صامت عنيف بين هؤلاء الأربعة : فتارة ترجح قرب الأمير كفة الاستقامة والإخلاص ، وتارة يستسلم لصوت الوشاية والافتراء . وتم الفوز للدساسين فى النهاية ، لأن الحقيقة كثيراً ما تتخاذل وتتوارى فى تعمُّل التفادى والغيرة ، وكثيراً ما يظفر المحتالون والكاذبون ! فخرج الفتى على أستاذيه الصالحين وتوعَّر خلقهُ ، وتفاقمت شراستهُ . وأراد الوزير أن يتلافى الأمر بالتى هى أحسن ، فاقترح على الملك أن يزوّجهُ ، فقبل الملك الاقتراح ، وأنفذ وزيره إلى إيران لمفاوضة ملك العجم فى خطبة ابنتهِ « بوران » ، المشهورة بسداد الرأى ، وذكاء العقل ، وحُسن الإدارة . ومضى النديم إلى الشين (الصين ؟) لإحضار جهاز العروس وأمتعة الزواج .

وخلا الجوُّ للدساسين قرب التلميذ المنقلب عريساً بين ليلة وضحاها ، فحزن الملك جدَّ الحزن لشراسة ولده ، وتعاون الغمُّ والشيخوخةُ على إتلاف صحتهِ ، فأشرف على الموت . وماذا عسى يصنع المشرف على الموت ؟ إنه يستدعى إليهِ ولدهُ ليزوّدهُ

بالنصائح . وذاك مافعلهُ الملك العادل . بيد أن المنية عاجلتهُ قبل أن يمعن فى الكلام ، فقضى بين ذراعَىْ ولدهِ مأسوفاً عليه من هذا الولد المسكين .

وهنا ، وقد سنحت للدسَّاسين الفرصة التى تربَّصَا لها زمناً طويلا ، فإنهما يقومان بتمثيل الفصل الثانى والأهم من دورهما ، فيوهمان الشعب بأن الملك ما زال على قيد الحياة ، غير أنه لضعفه ومرضهِ عهد إلى القيّمين بشئون الدولة وشئون ولدهِ. وينفذان الفتى إلى المجلس و بيده كتاب مزوَّرٌ فى هذا المعنى ، وهو فى حزنهِ مشرَّد الفكر لايعرف مضمون الكتاب . ومن ثمَّ يجهدان للتخلص من هذا الفتى فيفوضان أمر القضاء عليه إلى عبدين يسيران به إلى خارج المدينة للقيام بمهمتهما الغادرة ، ولكنهما تأخذهما الشفقة عليه ، فيكتفيان بإبعاده على أن لايحاول العودة .

ولا يفوت الخائنين إبلاغ الوزير فى إيران أن الأمير عشق صبيةً من بنات الإفرنج ، وجرى فى أثرها ، فعلى الوزير أن يمضى للبحث عنهُ . ويكتبان إلى النديم أن الأمير خرج إلى الصيد فشرد به الجواد « وانساب ذاك الفرس إلى ضيعةٍ حرسها عبيد » . فليجدَّنَّ إذن فى طلبه . . أين ؟ هنا على مقربةٍ منا ، ياسادتى ، فى السودان ! نعم ، فى السودان الذى هو ومصر « جزء لايتجزأ » ، كما تعلمون .

* * *

وهاهوذا صاحبنا الوزير يطوى البرارى والقفار ، وينتقل من دار إلى دار ! وهاهوذا صاحبنا النديم يذرع شواطئ النيل فى أعاليهِ ، ويفتّش فى أقاصى السودان وأدانيه ! وينقضى زمن غير قليل وجميع أقطاب القصة — بما فيهم أنا التى أقرؤها لِأَلَخِّصها — يعمهون فى مثل تيه بنى إسرائيل ! . وليس من سبيل يُسْلَكُ فى « نتائج الأحوال » غير اشتباك القصة الصغيرة بأختها ، وهذه بقصة غيرها ، على نحو حكايات « ألف ليلة وليلة » و « كليلة ودِمْنة » . وإذ كنت أنا وأصحابى أشخاص الرواية نجوب الكتاب لنعثر بعضنا على بعض ، فلا نفوز إلا بالتطوُّح والتنائى ، كم ذا سألتُ الله أن يأخذ بيدنا فيلمَّ شملنا ، ويردّ لهفتنا ! لاسيما الفتاة العروس « بوران » التى بعد أن علمت بما جرى لخطيبها المجهول طلبت الاعتزال عن الناس . وأراد والدها أن يزفّها إلى

ابن أخيه ليتدارك الحال فيحوّل مجرى أفكارها قبل استفحالها فى الجوى . ولكنها أبت وهربت إلى حيث لا يُعْثَرُ عليها ، لأنها على نحو ماينشد الشيخ « سلامة حجازى » فى « الفونجراف » :

عرفتُ هواكم قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وكم كنت أغتاظ ، إذ أذكر أننا بينا نحن (أى أنا والصلّاح من أهل الرواية) تعبث بنا الأقدار وتجدُّ بنا النوى فنتقلّى على مثل جمر الغضى فإذا بالغاصبيْنِ يسرحان فى بغداد ويمرحان ، ولهما تُضْرَبُ المدافع ، وتُنشر الألوية ، وتقدم الرعايا فروض العبودية والإكرام .

بيد أن الأيام دارت دورتها وحالت الأمور على أتم مايرام ، فتلاقى بديًا الأمير والنديم ، فعجّلا بالذهاب إلى إيران إلى حيث كانت تسوق الفتى أشواقهُ ، لأنهُ مثل عروسهِ ، قد وقع الهوى من نفسهِ مكاناً بعيداً ، وظلّ فى مصائبهِ ويأسهِ تلازم خاطره الفتاة التى وُعد بها دون أن يعرفها . وكان للأمير والنديم فى إيران رحلات عديدة غير موفقة . إلى أن أقبلا أخيراً على جبل شاهق ، فإذا هناك إشارة تركها لهما الوزير فيما لو اهتديا إليها أن يعودا مباشرة إلى العراق .

فعادا مباشرة إلى العراق ، وتلاقيا والوزير فى زىّ ناسك . ولك أن تطلق هنا العنان لمخيلتك وتتصوّر ما يحلو لك من سرور وحبور ، وبكاء وإغماء ، يعقبهُ يقظة وسلام وكلام يناسب المقام ، وانضمّ إليهم العبدان اللذان أبقيا على الأمير ، وكان القيمان المختلسان قد أرادا الإيقاع بهما لانكشاف فعلتهما ، ففشلا ونجا العبدان الوفيّان . وكان هذا التلاقى منشأ لمؤامرةٍ طويلةٍ ، وقد آلى كلٌّ منهم على نفسهِ ليصرعنّ الآفة بآفة ، ويفلنّ الحديد بحديد مثلهِ . وآزرهم طبيب الملك ، ودبر لهم الحيل ، فكان الفوز حليفهُ فى كلّ ما دبر . فأوفد إلى أصحابهِ المتآمرين عدداً من الرجال ، وحفروا نفقاً يمتدُّ حتى المدينة ويفضى إلى خزينة الدولة ! وأبى السعد إلاّ أن يتوّج مساعيهم ويهيىء لهم الأفراح والليالى الملاح ، فلمّ شملهم بالعروس . وإنى لأكفيك مؤونة الوصف لاجتماع العاشقين السعيدين . حسبى أن أتمنى لك مثل تلك الساعة مع من

تهوى . وعند ما آن الأوان ليثوب كلٌّ من الحبيبين إلى رشـدهِ ، جاهرت الفتاة برغبتها فى العودة إلى الوطن ، ليزفها أبوها إلى خطيبها بالأبهة اللائقة بالملوك !

— « لابدّ لى أن أتوصّل إلى بلادى بشرفى — تقول بطلتنا الباسلة — وأدخل قلعة أبى بصيانتى . ثم يبعثنى هو إلى هذا العزيز بسيادتى » .

وكذلك كان .

وعاد الأصحاب بعدئذٍ إلى إتمام أعمالهم ففاجأوا البلاد بدخول الأمير والقبض على الخائنين . وتتابعت المشاهد والحوادث بمثل سرعة الصور المتحركة . منها : موكب الملك — المدافع تدوى والطبول تدقّ — هيجان « بغداد » وفرحها — فوز الحق والصلاح ، واندحار الخيانة والطلاح — مجىء العروس فى موكب بديع — المناداة بالممدوح خليفة وجلوسه على « التخت » — أفراح — أنوار — أهازيج — زينات — شموس مجلوة — بدور منيرة — وفوق كلّ ذلك خطب وقصائد . وبات العروسان « يديران كؤوس المواد السكريّة ، ويتداولان أقداح الوداد العبقرية » .

وفى الغد أُقيمت بالطبع حفلة « تشريفات » لمناسبة الجلوس المجيد ، والزفاف السعيد . فوفد المهنئون ، وتُليت رقاع التهانىء ، ووزعت الهدايا من العروس على أرباب الدولة . وألهم الملك الفتى ، فانبرى يخطب فى الجموع شاعراً ناثرا ، ويمتدح النوائب التى هذّبتهُ وعلّمتهُ الصبر والحكمة . وها كم مثالاً من نظمهِ :

واشتاقنى عزّى كشوق للمنى ... مذ كنتُ ألقى لاعج اللوعاتِ
قلّدتُ سيف الصبر كى بجرازهِ ... أسطو على محن الزمان العاتى
حتى قطعتُ بهِ حبائل محنتى ... وسلكتُ نهج الرشدِ فى طيّاتى
وأنا المقرُّ بما جنيتُ ، وليس لى ... عذرٌ سوى أسفى على هفواتى
فلأشكرنَّ شدائداً لو لم تكن ... ما كنتُ أدرى زلّتى لمماتى

***

أدركنى التعب فى مطالعة هذه القصّة المكتوبة بلغة « المقامات » ذات الحذلقة والكناية والسجع والتطويل ولكنها تتحتم قراءتها وقراءة أمثالها على الباحث

عن مصدر التطوُّر . وهذا الكتاب بارقة للفنِّ القصصى الحديث عندنا ، ذلك الفن الذى ما زال فى لغتنا جنيناً ، ولم يبلغ قط عند العرب طور النضج والقوَّة .

إن تاريخ الفنّ القصصى عند العرب قد يُلخَّص فى سطورٍ وجيزة . فقد نشأ فى القرن الأول للهجرة مستنداً إلى تاريخ الجاهلية ، وظلّ فى نموٍّ يقتبس من التاريخ ومن الخيال معاً حتى القرن الرابع . فجاء بتلك القصص أمثال « الجمهرة » و « عنترة » و « بكر وتغلب » و « شيبان وكسرى أنوشروان » . وغيرها من قصص الغرام مثل : « مجنون ليلى » و « جميل بثينة » وما إلى ذلك من شتى القصص التى دخلت بعدئذٍ فى كتاب « ألف ليلة وليلة » .

وقد أَلَّف العرب كتباً لا أصل لها فى الواقع ، إنما استمدَّت موضوعها من العلم والخيال والحكمة جميعاً . وربما كان أنفس تلك الكتب « أسرار الحكمة المشرقية » الذى قال ابن طفيل الأندلسىّ إنهُ لخصهُ عن كتاب كبير من وضع الرئيس ابن سينا وصوَّر فيهِ نشأة الإنسان وألمع إلى نظرية التطوُّر .

أما كتاب « ألف ليلة وليلة » فهو فارسىّ الأصل . وقد وضع أصلهُ فى القرن الرابع ، فتناولتهُ أيادى النساخ بالإضافة والتحريف ، فكان كلٌّ منهم يزيد عليهِ وينقص فيهِ ما يشاء ، وذلك حتى القرن العاشر .

ووقف الفنُّ القصصى بجمودِ اللغة مدة ثلاثة قرون . فحكاية «عائشة» بعيوبها ورواسبها تجربة أولى من النزعة المتجددة ، لا سيما فى ما يختصُّ بالأدب النسائى . إذ لا أعرف أن امرأةً عربية وضعت قصة تامة قبل «عائشة» . فهى بتجربتها هذه من روَّاد المنهج الجديد .

والقصة بعيوبها ذات مغزى أخلاقى . لأنَّ واضعتها جعلت سوء تربية الممدوح وعجزهُ عن معرفة العدوّ من الصديق منشأ مصائبهِ . فهو رأى العدوَّ فى مَن يُحسنُ إرشادهُ ، ويعلمهُ كبح أهوائهِ ، وينبّههُ إلى واجباتهِ ومسئوليتهِ . وحسب صديقاً من أهاج طيشهُ وغرورهُ ، وملّق منهُ الزهو والعجرفة ، وشجعهُ على العبث بكرامة الناس وكرامتهِ الشخصية . فعوقب بنتائج ضلالهِ . ولكنهُ يوم ثاب واعترف بخطئه

بعد أن أتمّت المحن تهذيبهُ وتهيئتهُ لمنصبهِ ، عادت إليه حقوقهُ ومسراتهُ ، ونال جميع رغباتهِ . ومن ثم اسم : « نتائج الأحوال » .

أما أنّ الحياة تتصرف معنا على هذا النمط فقد يحدث ذلك أحياناً ، ولكنّ سواهُ يحدثُ أيضاً . قد يتفقُ أن يعلو صوت الحقِّ ، ويفوز الصلاحُ ، ويظفر المرء بما هو لهُ بحكم الطبيعة والشرع والكفاءةِ أو عمل الخير والتضحية . ولكن كم ذا يفوز الشرُّ ، ويغلبُ الظلمُ ، ويُجار على صاحب الحق بجميع القوانين البديهيَّة والمشروعة ، فيتألبُ الناسُ على سحقهِ وإهلاكهِ ، وكلُّ ذنبه الإخلاص والتفادى !

وما كان أعدل الدنيا وأنصف الأقدار لو كوفئ كلٌّ بما يأتيهِ ، وكان الجزاء حقّاً من نوع العمل !

على أنهُ لا مندوحة لنا عن نشر المبادئ الأخلاقية والأخذ بها . وحسن أن تُلقَّن الناشئة دروس الصدق والاستقامة والصلاح مهما عصفت حولها الشرور والأكاذيب وصنوف المفاسد . يحسن ذلك لأنهُ ينطبق على مبادئ الأخلاق العالية ما قالهُ فولتر « الجاحد » عن الألوهية : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب أن نخترعهُ ! »

كذلك الأخلاق العالية لو لم تكن موجودة لوجب أن نخترع مبادئها ، لأن تلك المبادئ الأخلاقية ، مع المواهب الفكرية والذهنية ، إنما هى لبابُ الفضلِ فى الإنسانية ، وهى التى لا يتغلَّب عليها مذهب سياسىٌّ ولا تعبث بها ثورة اجتماعية . فعلى من يستطيع تأييدها ونشرها أن يفعل ليذكّرنا على الدوام أن تلك لدينا ذخيرة من أنفس ذخائر المثل الأعلى الذى لا يتناول جيلاً أو فرداً ، بل تتعاونُ الدهورُ والجماعاتُ على تمثيلهِ وتحقيقهِ .

(ب) « مرآة التأمّل فى الأمور »

لقد شاع أن « باحثة البادية » أوّل مصريةٍ عالجت الموضوعات الاجتماعية . وإنى لا ستدركُ بأن التيمورية كانت أوّل من فعل فى مقالاتٍ مختلفة نُشِرت

فى صحف زمانها ، وفى « مرآة التأمّل فى الأمور » وهى رسالة وجيزة فى ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخ يُوقّتُها . إلاّ أن منشئتها ختمتها (على طريقة ذلك العصر الكتابىّ) بامتداح سموّ الخديو السابق عبّاس حلمى باشا . فهى نُشرت والحالة هذه بعد توليته ، أى بعد ١٨٩٢ ، وفى السنوات العشر الأخيرة من حياة التيمورية .

لغة هذه الرسالة ككلّ ما نثرتْ « عائشة » ، هى لغة المقامات ذات السجع والتطويل . وهى تستهلّها بالشكوى وتفكّر « لعلى أرى لسماء الصفو هلالاً ، ولعقد الأزمة انحلالاً . . »

و يظهر أنها عثرت على « انحلالٍ لعقد الأزمة » أو ما يشبههُ ، لأنها : « فنادانى زعيم الجسارة هلمىّ إلى مقصورة السلامة ، ولا تحذرى الانتقاد والملامة ، وعليكِ بإيضاح الدعوى . . . »

وهنا قامت و « زعيم الجسارة » المشار إليهِ ، ولعلّهُ صديق خيالىٌّ — بتخاطبٍ حافلٍ بالتبجيل المسجّع شغل صفحتين اثنتين ، فوصلنا أخيراً فى أوّل الصفحة الرابعة إلى « إيضاح الدعوى » . وماهى إلاّ انقلاب الأدوار بين الرجال والنساء ، وتسرّب الفساد إلى داخل الأسرة . ومنشأُ ذلك فى تقديرها أن جماعةً من الشبّان « غرّهم الله بالغرور حتى إنّ كلّ إنسانٍ همّ بالاقتران من وضيعٍ ورفيعٍ وخاملٍ ونبيهٍ كان كلٌّ بحثهِ عن الحلى والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتديُّن والعفّة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تمتلكهُ ربّات الجمال « ويريح أفكارهُ من الأتعاب ، و يستغنى عن الجهد فى الاكتساب ، ويسلّم الزمام للهوى » مكتفياً « بتلك الثروة المستعارة ، وما يدرى بأنهُ واقع فى حبائل الخسارة . فتحتاط بهِ أقرانهُ » « ويقوم جيش المداهنين بين يديهِ . . . »

و يظلُّ الزوج بين لهوٍ وتبذير حتى ينفد من يدهِ الدينار والدرهم . وإذ يعود إلى البيت تقابلهُ الزوجة بالنفور ، وينتقل النفوذ والسيطرة إليها ، لأن الزوج عاجز إلاّ عن القصف والإسراف . « وحقُّ الزوجية لا يتمّ إلاّ إذا كان كلُّ واحدٍ منهما

يرعى الآخر فيما لهُ وعليهِ ، فعلى الزوج أن يقوم بكلّ حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعتهُ والانقياد لأمرهِ » . فإذا انقلب الرأس عقباً فكيف تستقيم الأمور وكيف « لا تلقى المرأة وشاح الحذر وترمى برقع الحياء ؟ »

أتكون الزوجةُ صابرة كتوماً دفعاً للشماتة وحذراً من ذيوع الفضيحة «فدفنت هذا الويل بجدث قلبها الحزين والولهان » ؟ إلاَّ أنَّ الكتمان لايداوى عِلَّة ، والتجلُّد لا يَفْنَأُ غلَّة ، بل تجدب فى نفسها مادّةُ الحياة ، و« بدّلت القصور بالقبور » ! وإذن فالبشرى للزوج الذى لا يرثى ليتم الأطفال « بل يأخذ من الميراث ما لقى وأبقى ، ويجعلهُ صداقاً لمن يلقيها فى أكُفّهِ الشقا » .

أم تكون المرأة سليطة اللسان وتضيق حيلتها فتعمدُ إلى اللوم والمشاجرة ؟ إذن تبدأُ حياة هى الجحيم ، إذ لا مقدرة للرجل على زجرها وإسكاتها . فيهجر بيته إلى الحوانيت والحانات « وإذا أتى المنزل نام فى الحال ، خوفاً من المرافعة فى القيل والقال » .

فكيف تصمت النساء على ضياع شبابهنَّ ونضارتهنَّ وأموالهنَّ وآمالهنَّ فى الهناء والسعادة ؟ إن الحزن والأسى ليلهب قلوبهنَّ ! فتمضى الواحدة منهنَّ إلى الجارات وتستجير من عذابها وكربها . فإذا هى وقعت على امرأةٍ فاضلة هوَّنت عليها الأمر صمتت لحين استئناف الأزمة الجديدة . أما إن هى ساقها سوء الطالع إلى تلك الدور التى تبدَّل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية ، فهناك تغويها من سفلت أخلاقها ، فتستسلم المرأة وتخرج عن جادة الحشمة . فيغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد ولكن كيف تعبأُ بهِ وبكرامتهِ ، وهو لم يعرف لنفسهِ واجباتٍ ولم يقف فى شروده عند حدّ ؟

هذا منشأُ الشقاء على ما بدا للتيمورية . لذلك ناشدت الرجال فى آخر الرسالة أن يستمعوا لها ، ورجتهم « أن لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ، ولا تقيسوه بأقوال النساء السخيفة » .

وقد لبَّى الرجالُ هذه الدعوة بداهةً أو اختياراً . فالنقدُ الاجتماعى الذى سيعالجه

« قاسم أمين » بلوذعيةٍ وحصافةٍ سبقَتْهُ التيمورية بهذه الدعوة إلى الإصلاح . لأن الكتاب الذى وضعهُ قاسم بالفرنساوية ردًّا على الدوق دار كور صدر سنة ٩٤ ، وعقليتهُ لم تنفتق فيه عن تلك الثورة النبيلة الكامنة. ولم يصدر كتاب « تحرير المرأة » الذى بسط فيهِ نظرياته الجريئة إلا بعد أربعة أو خمسة أعوام ، وعقّب عليهِ بكتاب « المرأة الجديدة » الذى صدر سنة ١٩٠٠ .

(ج) لا تصلح العائلات ، إلا بتربية البنات

يقول ابن أخى الشاعرة « محمود بك تيمور » إن التيمورية نشرت مقالات فى جريدة « المؤيد » . وأرجح أن خير تلك المقالات أدرجتها « زينب فواز » فى كتابها « الدرّ المنثور » وقالت إنها اقتبستها عن جريدة « الآداب » الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٠٦ هجرية ، أى سنة ١٨٨٨ ميلادية ، وقبل أن يكتب قاسم أمين فى هذا الموضوع باثنتى عشرة سنة تقريباً .

أرجح أن هذه خير مقالاتها ، لأنّ « عائشة » كانت و « زينب فواز » على اتصالٍ وائتلاف . وقد ترجمت زينب لعائشة فى حياتها ، واستقت منها مصادر تلك الترجمة بما فيها تراسلها و « وردة اليازجى » نظماً ونثراً . كما أنها صدّرت كتاب « الدر المنثور » بخطابٍ من عائشة كلّهُ ثناء وتقريظ على طريقة ذلك العصر . وحيث إنها أدرجت هذا المقال دون سواهُ ، فأكبر الظن أنها فعلت بإشارة التيمورية ، أو أنها فضّلتهُ على غيرهِ نسبة لما فيهِ .

وإنهُ لأثر نفيس حقًّا ، لأنه بكر فى لمس موضوع خطير . وخير ما تنتهي إليه الآن مباحثنا ليس بأصدق نظراً ، ولا هو بأصوب حكماً ، مما جاءت بهِ « عائشة » منذ ٣٧ عاماً .

عنوان هذا المقال هو « لا تصلح العائلات ، إلا بتربية البنات » . وكما أنها فى « مرآة التأمّل فى الأمور » تجعل منشأ الشقاء فى بحث الرجل عن الثروة ليسيء التصرُّف بها ويهدم بيته بيده ، ففى هذا المقال تلوم المرأة على مبالغتها فى الزينة دون الانتباه إلى واجباتها ، وترى فى ذلك مبعث الخلل والفساد ، وتعجبُ « من مدنيةٍ

تشغف بتزيين فتياتها بحلي مستعار ، وتستعين على إظهار جمالهنّ بزخرف المعادن والأحجار ، وتتخيّل أنها زادتهنّ بسطةً فى الحسن والدلال . والحال أنها ألقت تلك الأحداث فى أخدود الوبال ، لأنه لم يعد عليهنّ من تلك المستعارات إلاّ العجب والغرور ، المؤدى بهنّ إلى ساحات المباهاة والفجور . وذلك لكفّ بصيرتهنّ عن الإدراك ، وعدم علمهنّ بنتائج الأحوال وعواقب الأمور » .

قلّ ما ناقشتُ آراء «عائشة» فى هذا الدرس لشعرها ونثرها ، وإنما اقتصرتُ على إبراز أوجه خواطرها . ولولا ذلك لا تّسع المجال للإسهاب فى ما يشقى العائلات ويسعدها . ولتوافرت المادة فيما يتعلق بتربية المرأة وما ينطوى تحتها من الحقائق والفروض . ولئن علقتُ أحياناً على نظرية منها فلتعذّر السكوت على ما يحتملهُ ذلك من إبهام وتأويل .

وموضوع زينة المرأة قد يشغل كتاباً أو كتباً لمن يريد أن يتناولهُ من وجههِ المهمّ ، دون الاكتفاء بالإرشاد أو بالتهكم ، أو بالنقد الجارح . لذلك ألقى هنا بكلمةٍ فقط .

أعتقدُ أن من طبيعةِ وجود المرأة أن تكون جميلةً ، كما أن من طبيعة وجود النوع الإنسانى أن يكون ذكيًّا نشيطاً . وكما يصقلُ المرء ذكاءهُ بالمعرفة والتجربة والاطلاع ، كذلك تصقلُ المرأةُ جمالها بالزينة والأناقة والكياسة . الفتاةُ معدَّة لتكون ربة منزل ، وأمّ عائلة ، وسيدة مجلس زائرةً ومزورة ، لا لتنزوى فى حياة الزهد والرهبانية . فيجب أن تُنشَّأ على ماهُيّئت لهُ من إبهاج المنازل وتزيين المجتمعات ، وبثّ اللطف والأنس فى كلّ نادٍ تحلُّ فيهِ . ولما كان عليها أن ترضى برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها ، كذلك عليها أن تروق النظر بحسن هندامها . فالعيب إذَن ليس فى ميل المرأة (والرجل كذلك !) إلى الزينة ، ولكن فى المغالاة بإرضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع لقواعد الذوق السليم فى التصرُّف بمظاهرهِ . والغلوّ عيبٌ فى كلّ أمر ، كما أن سقم الذوق نكبةٌ دائمة .

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها يجب أن تتعوَّدها الفتاة منذ الصغر . بعكس ما تجرى عليه أكثر المدارس إن لم نقل كلها ، فى تجريد البنات من كلّ حلية ،

و إفهامهنَّ أنَّ الزينة جائزة بعد الخروج من المدرسة . فينلن حُريتهنَّ من هذه الناحية متأخرات ، كمن يستأنف تربية نفسهِ على غير الوجه الذى ألفهُ سابقاً . ومن هنا عدم التوازن ، وعدم وضع الشيء فى مكانهِ ، والإغراق فى إسراف الوقت والدرهم ، والغلوُّ فى تفسير أهمية الزينة ، والتظاهر الذى تحبُّبه أكثر النساء من أنهنَّ لايتجمَّلن على الإطلاق . والواقع أن أكثرهنَّ تنصُّلاً أوفرهنَّ تجمُّلاً — إلا إذا كنَّ من اللائى يَأْبى التجمُّل أن يتوافق و « طرازهن » وشكلهنَّ الطبيعى .

ولو شبَّتْ جميع الفتيات على اعتبار الزينة المعقولة الفنية جزءًا من ترتيب هندامهنَّ على ما يناسب شكلهنَّ وقالبهنَّ بحكم الذوق والزى الجارى ، لما أنفقن فى سبيل ذلك وقتاً ، ولا كان ذلك لهنَّ تكلفاً وعملاً مستثنًى ، بل لاندمج فى عاداتهنَّ وصار طبيعيًّا . و إذن لما رأينا المرأة فى كثير من الأمم الشرقية بأثوابٍ رثة قذرة بين زوجها وأولادها بلا لياقةٍ ولا كرامة ، حتى إذا خرجت للزيارة ارتدت أفخر الأثواب وازدانت بأنفس الحلى ، فبدت فى كل أولئك غريبة بطيئة الحركات ، مرتبكة السكنات ، وكل جارِحة فيها تنطق بأنها « مُطقَّمَة » بزى الآحاد والأعياد على نحو مايقول الفرنسيُّون .

لو شبَّت المرأة على الزينة المعقولة لأدركت أن هذه الزينة لنفسها لا للناس ، ولامتدت عنايتها تلك إلى منزلها ، فلا تقصر ترتيبهُ على يوم الزيارة وتبقيهِ فى الأيام الأخرى على أسوإ ما يعهد من التشويش والارتباك . ولامتدت تلك الأناقة إلى أفكارها و إلى آرائها ، و إلى نظرتها فى الحياة ، و إلى ميولها الأخلاقية . فالمزية الواحدة تستطيع أن تكون ذات تأثير على نواحٍ شتى من الأعمال ، كما أن العيب الواحد قد يهدم حياةً بأسرها . ومواعظ المرشدين لم تُجْدِ نفعاً على طول الأجيال ، لأن حب الجمال أعرق فى الإنسان وأحيا من تطيُّرهم و إرهابهم . وليتهم يستبدلونه بالإرشاد إلى الوسائل المرضية من الزينة الواجبة .

طويلة حاشيتى هذه بعد كلام التيمورية ، ولكنها غير دخيلة ولا تافهة . فمن

حقّ الجميل أن يطمع فى المزيد ، ومِن حق غير الجميل أن يقلّلَ من دمامتهِ و يسترها ، و يحاول إظهارها بالمظهر غير المستنكر .

ورغم إنكار الغلوّ فى الزينة الفارغة ، فإن التيمورية ترى أن أعنف العتب يقع على الرجل — و « باحثة البادية » ستقول هذا القول فيما بعد — لأنه القويُّ ، وفى وسعه النهوض بالمرأة إلى حيث تتسع مداركها فتشاركهُ ، فإذا بها تنادى :

« فيارجال أوطاننا ! لِمَ تركتموهنَّ سُدًى ؟ ! وهُنَّ بين أناملكم أطوع من قلم ؟ » ، « فعلامَ ترفعون أكفَّ الحيرة عند الحاجة كالضالّ المعنَّى ، وقد سخرتم بأمرهنَّ ، وازدريتم باشتراكهن معكم فى الأعمال ، واستحسنتم انفرادكم فى كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود » .

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت « عائشة » اشتراك المرأة مع الرجل فى الأعمال ، ولم هذا الاشتراك ؟ لأنهُ طبيعىٌّ « من حكم بارى النسمات ، وموجد المخلوقات » ولأنه الأساس الأصلى « لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين ، ولو أمكن الانفراد لخصَّ عالم الأسرار أحدهما دون الآخر ، وهو الأفضل ، ولم يفقرهُ إلى ما هو دونهُ ، فكان التأمل فى هيولى هذا الكون موجباً على الهيئة الرجولية العناية بتعليم المرأة وتهذيبها لينالوا بذلك أرفع مجد وأهنأ جد ، ولتعتاض الفتيات عن قبق الجهل براحة العرفان » أى ليقمن بواجبات التدبير فى منازلهنَّ ومحيطهن ، ويأتين بالمطلوب من عطف ووقايةٍ وحكمة نحو نفوسهنَّ وذويهن دون شعوذة ولا شرود عن الصواب .

إنها تقول بلغتها بالمساواة بين الرجل والمرأة ، تقول بذلك لفظاً لا تلميحاً : « إذ لو أمكن الانفراد للرجل لخصَّهُ الله بالوجود دون المرأة . فهما ضروريان كلٌّ كل منهما للآخر ، موجودان معاً تحت شمس واحدة وأحكام واحدة ، ليأتى كلٌّ بقسطهِ من واجباتٍ متعادلة » .

لقد قالت هذا فى الشرق ، ورأت أن يتساوى الرجل والمرأة وأن يتشاركا فى الأعمال ، وهى محجوبة رهن جدران الخدر . . ومتى ؟ فى حين هذا كان يعدُّ بدعةً فى « أوربا » ، إذ لا يفوتنى أن لفظة « ذكر » لم يُتَّفَق على حذفها من قوانين إنجلترا

والاستعاضة عنها بلفظة « رجل » أو « أحد » إلّا منذ سنة ١٨٥٠ ، وكان ذلك عنوان تحرير المرأة عندهم وإدخالها فى طائفة بنى الإنسان ! .

* * *

التربية تنطوى على فروض كثيرة ، وتحتمل إيضاحاتٍ وتأويلاتٍ شتّى . ومن تحت قلم « عائشة » مزيد من الإبهام والمرونة . إلا أنها يغلب فى معناها بقولها : « تأديب البنات ، وتهذيب العائلات » وجوب تنشئة الفتاة لتكون أهلاً للسهر على مصلحة الأسرة والقيام بالمطلوب فى سبيل تقدُّمها وراحتها وهنائها ، لأن فى حجرها تشبُّ الأجيال ، ومن كان مُهَيَّئاً لإعداد العظماء والنبلاء والصُّلَّاح وجب أن يكون على عظمةٍ ونبل وصلاح .

والمساواة . . . ؟ هى معنًى عارض فى كلام « عائشة » رغم أهميته بالنسبة للوقت الذى أورد فيهِ . أما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وشاع معناها لدى من يفهمهُ ومن يدَّعى أنهُ يفهمهُ جميعاً . ولكنَّ أكثرية الرجال ، حتى المتعلم والراقى منهم تُكهربهم هذه الكلمة ، وتثير سخطهم وتهكمهم ، ولا يقرُّون ما يقرُّونهُ منها إلا بقائمةٍ من شروط الحصر والتقييد .

وأنا أرى فى إنكار المساواة على المرأة ما هو تكريم لها ، أيًّا كانت الصيغة واللهجة المعبَّر بها عن ذلك الإنكار . إنه لدليلٌ على أنَّ الرجل يجهده كفاح الحياة فلا يريدهُ للمرأة ، ويطمع فى ادّخارها للراحة والهناء والرخاء والمواساة ، بل هو دليل على محبته التى تتلوَّن بشتى الألوان ، وعلى احترامه ولو مُسخ أحياناً بشكل الاستخفاف . أذلك الإنكار محض أنانية كما يزعمون ؟ وماذا لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خاليةً من الأنانية ؟ وما أحب أنانية أحبابنا إلينا ! أما الأنانية الممقوتة من القريب والغريب على السواء فهى الأنانية التى تنتفخ على حسابنا ، ولا تجعل لنا فى إحصائها مكاناً وقدراً . ومن هنا منشأ كل ثورةٍ وكل فتنة وكل ظلم .

إن المرأة التى تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحباً ، لاتثور ولا تشكو ، حتى ولوعسرتها المسئولية . وإنما هى المرأة المظلومة من ناحية العواطف التى تصيح وتلجُّ ، يطلبون منها ألف ألف واجب ، ويقيدونها بألف ألف قيد ، ويرهقونها بألف

ألف وقر ، ومقابل ذلك ماذا ؟ مقابل ذلك لارعاية أحياناً ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . إذن لماذا تحتمل ، وفى سبيل أى غاية تحيا ؟ لقد سنَّ لها هذا المجتمع دون الرجل ، قانوناً حتى للعواطف . وركَّز لها ضمن حدود العائلة مسرَّات الحنان وهناء القلب . ولم تقدِّر تلك القوانين أن ما فرضته قد لايتحقق ، فى حين تُرْغَم المرأة على الواجبات الباهظة وتعذبها لحاجة العيش ووخز الحاجة . وليست كلُّ أُسْرَة تقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو أفرادها ، ولا كل رجل زوجاً كان ، أو أباً ، أو أخاً ، ليعلم ويدرك أن الرجولة لاتقوم بترأس العائلة وبالأمر والنهى ، بل بتأدية واجبات يسهلها لهُ المجتمع ويجعلها على المرأة أعسر ماتكون .

قيود واستدراكات وحدود فى كل جهة من حياة المرأة ، وعلى هذه الضعيفة أن تذعن لها جميعاً ، وأن ترى فيها الفضل والبرّ والكمال ، وأن تأتى بما لايخجل أن أن يهمله الرجل بشرط أن تظل ضمن حدود الفضل والبرّ والكمال ، وللرجل كل الحرية فى الحلال والحرام ، فى الممنوع والجائز ! أيمكن أن يسكت على هذا الجواز قلبٌ يحس وينبض ؟ إنه ليتأكله الجوى ، ويكظم عذابه إلى حين ، ولكن لابد أن يتفجَّر عن الأسى يوماً ، لاسيما إذا رأى أن لامنفعة لهُ من جهادهِ ، وأن خيوط حياتهِ تبلى عبثاً ليجنى ثمرة تعبه من ليس لذلك أهلا .

واهاً ، أيها الرجال الفضلاء ، أنتم الذين تسعدون النساء العائشات تحت رعايتكم لو علمتم كلَّ ما يكنهُ النداء إلى المساواة من نصال مغمدة فى سويداء القلوب ، لو علمتم ذلك لعملتم ليس على نقض معانى المساواة كما تفعلون أحياناً ، بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحةً لجميع أفراد المجتمع .

لستُ لأُبرّر المرأة ، إنّ المرأة المهدمة فى المنزل والبيئة لأكبر نقمات الله ، والمرأة الشريرة شرٌّ من أخبث الشياطين ، ولكن من ذا يحمى الأبرياء منها ؟ من ذا يحمى المرأة النشيطة الصالحة النافعة فى ممكناتها من خمول الخامل وبطش المبطاش وغرور المغرور

ليس هناك غير الجواب الذى لاتحبُّون سماعهُ ، ولكنه لاحلَّ عن غير طريقه : فإما ما يزيد عن المساواة من الرجل المحبّ للمرأة المحبوبة ، وإما المساواة عن طريق القانون من الرجل المنصف للمرأة الغريبة .

حِلية الطِراز

ديوان
عائشة التيمورية

عائشة التيمورية

المغفور لها السيدة عائشة التيمورية

عائشة التيمورية تقدم ديوانها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أطلع شموس البلاغة المشرقة ، من سواطع مطالع العبارات ؛ وأينع غصون الفصاحة المورقة ، بأحاسن محاسن البراعات ؛ أحمده على أن جعل من البيان سحراً تملك القلوب نفثاته ، ونشر من الأدب أرجاً تروح العقول نفحاته ؛ وأشكره شكراً أدخل به من باب الزيادة ، وأستجدى به من جوامع النعم كل نافلة ومعتادة ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة يقينى بها من النار ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسولهُ النبىّ الأريحىّ المختار ؛ والصلاة والسلام على رسوله المجتبى من أرومة العربية الباسقة السابقة ، الحال من شوامخ آل عبد مناف فى الذروة السامية السامقة ؛ سيدنا « محمد » الذى عجزت عن معارضته فوارس اللسن من العرب العرباء ، وحارت دون مباراته فطاحل البلغاء ؛ وعلى آله مظاهر التطهير والتقديس ، وأزاهر رياض الشرف ومعادن جوهره النفيس ؛ وعلى أصحابه أمراء ديوان الكلام ، وأئمة علماء الإسلام ؛ ما لاح بدر وتم ، وافتح مُنشئ وختم .

(أما بعد) فتقول ذات القريحة القريحة والجناح المكسور ، عائشة عصمت بنت المرحوم إسماعيل باشا تيمور ؛ عفا الله عنها وعن والديها ، وأحسن إليهما وإليها : لايخفى على النبيه الألمعى ، واللبيب اللوذعى ، أن الشعر ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، وبستان الأذهان ، وحلية الإنسان ، بل ريحانة الألباء ، وزهرة

أولى الفضل والذكاء ، به تتميز القرائح ، ويتبين البغاث من الصادح ، وأن العدد الوافر من الفضلاء قد عانى الشعر تأدُّباً لاتكسباً ، وتفكهاً لا تطرباً ، وقد سبقتنى من ذوات القناع من رسخ لها فى الآداب أثبت قدم ، وأصبحت بحسن مطالعها فى دولة الأدباء كالعلم ، كليلى الأخيلية ، وبنت المستكفى ولادة ؛ وسمّيتى عائشة الباعونية ، ذات الفكرة الوقادة ؛ ومن معاصراتى ربة الأدب الباهر والقدر الشريف ، السيدة وردة بنت الفاضل البارع الشيخ ناصيف . فما منهنّ إلاّ من بدأت فى الشعر وأعادت ، وأجادت فى مضمار البيان وأفادت . وقد كنت وزهرة الشبيبة غضَّة ، وجيوش الهموم عن فكرتى منفضَّة ، أهصر من فنون الأدب كل فن ، وأصرف فى نظم القريض على سبيل التأدب برهة من الزمن ؛ فكنتُ أنظم الشعر باللغة الفارسية والتركية ، وآونة فى اللغة الشريفة العربية ، حتى اجتمعت عندى منه جملة كافية ، ولصدر المحب شارحة شافية . وقد أحببت أن أجمع منه ما كان فى اللغة العربية حذراً من دخوله بالتشتت فى خبر كان ، ورغبة فى تخليد ذكر أستجلب به الرحمة والغفران ؛ عالمة أنى مهما بلغت لم أزل قاصرة عن درجة أهل الفضل والاطلاع ، وهيهات أن تقاس بأفاضل الرجال القاصرات من ذوات القناع ؛ واثقة بإغضاء من سيقف عليه من أهل الذكاء ، والعفو عما عسى أن يجدوه من تقصير أو خطاء . فالكريم من عفا وصفح ، والسيد من تسامح وسمح ؛ والعفو من ذوى الأدب مأمول ، والعذر عند كرام الناس مقبول .

وها أنا أشرع فى المقصود معبرة بقالت دون قلت ، تفادياً من وصمة التبجح وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت .

شعر المجاملة

١ — قالت تُهَنِّئُ « الخديوى » بقدومه إلى « مصر » : —

بُشْرَاكِ يا « مصر » فالإقبال قد منحا ... وكلل البِشْر تِيجَانَ السعود ضُحَى

ولازمَ الأُنْسُ وردَ اليُمْنِ مغتبقا ... وَرَنَّحَ الفوز عِطْفَ الدهرِ فاصطحبا

وشرف القطرَ مولاهُ ومالكه ... وقدم الدهرُ للإقبال ما اقترحا

تمنطقت بالبها لَيْلَات مَقْدَمِه ... واليوم أصبح بالأضواء مُتَشِّحا

نِعْمَ التَّهَانى بإقبال السرور فقد ... سَمَا سَنَا بارِقِ الأفراح واتَّضَحا

سماء صفوِ المُنَى أبدت كواكبَها ... وغيثُ غَوْثِ الهنا حَيًّا بما سمحا

فيَا لَهُ مَقْدَماً فادت بشائرهُ ... مغانمَ الدَّهر للراجى وقد رَبِحَا

وَعَمَّ إشراقُهُ كلَّ الورى فغَدَا ... نورا يسرّ وبرقا زَنْده قدحا

عاد العزيز الذى جادت لعودته ... أيامُنا فاغتنمنَ الأنس والمِنَحا

لو قيل للشرف : اختر ، قال : خِدْمَته ... أو قيل للدهر : سابق عزمه ، افتضحا

لا زال ذو العهد مصباحَ العُلَا أبدا ... ما اُخْضَرَّ عُودٌ وَشَادِى أيْكِهِ صَدَحَا

ولا خلا من ضوافى ظِلِّهِ زمن ... به حباهُ الجليلُ اليُمْنَ فانشرحا

فأحرف سُطِّرَتْ تزهو بِمِدْحَتِهِ ... تَتَوَّجَتْ بِلآلٍ نُورُها وضحا

وَأَقْبَلَتْ لمعاليهِ مُؤَرِّخَةً : ... وَافَى الخديوى فأولَى الجدَّ والفرَحا

١٢٨٩ هجرية

***

٢ — وقالت تهنئ الخديوى السابق : —

كللتَ تاجَ البدرِ قرْبا بالشرف ... مُذْ حَلَّ فى « مصرٍ » ركابُكَ وانعطف
طَرِبَتْ بِمَقْدَمِكَ السنىِّ وعطفه ... « مصر » السعيدة والسرور بها هتف
لما عزمتَ عزمتَ يصحبُك الثَّنَا ... وَالْعَوْدُ جَدَّدَ بالهنَا ما قد سلفْ
وَازَّيَنَتْ بِكْرُ الحبور وأصبحت ... مَجْلُوَّةً بين الرَّفاهَةِ والترف
وتجملت « مصر » بما جادَ الهنا ... وَرَخِيمُ مُطربها على عُودٍ عكف
وبك الأمانى قد تبسَّمَ ثَغْرها ... والصفو مال بقَدِّهِ حسنُ الهَيَف
وتراقَصَتْ مُهَجُ النفوس لِبِشرها ... كبلابل غَرَّدْنَ فى روض أُنُفْ
أضْحَى يقول بسعد بابك نِيلُهَا : ... أَقْبِلْ عَلَى بحرِ الوفاء ولا تخف
واللهِ يامصباحَ مِشْكَاةِ الْعُلَىٰ ... بك سُرَّت الدنيا ومن فيها شُغِفْ
رَقَمَتْ جَمَالَ بَهَا قُدُومِكَ « عصمةٌ » ... بمداد تحبيرٍ سَناهُ شَفَى وشفّ
وبمعجَمٍ فى معرَبٍ قد أرّختْ : ... « كَلَّلْتَ تاجَ البدرِ قرباً بالشرف »

* * *

٣ — وقالت ليكتب على ألواح تعلق فى زينة قدوم الخديوى : —

أتىٰ لبابك هذا النصرُ مُذْ خَفقتْ ... رايات وَفْقِكَ يا « توفيق » بالْفَلَكِ
وَعَمَّ ذا البِشْرُ مَنْ فى الأرض مِنْ بَشَرٍ ... حظاً وفوزاً وما بالأُفْقِ من مَلَكِ
نعمَ افتتاحُ الهنا يا « مصر » فابتسمى ... وَاسْتَبْشِرِى فرحاً فالسعدُ تمَّ لَكِ
آبَ الخديوى ونصرُ الله يَقْدُمه ... وَعَرْفُ آثارِه بين الأنامِ زَكى
رفعت بدرَ الأمانى فى الورى علماً ... أضاء بالنور ما فى الأرض من حُبُكِ[1]

* * *

(١) الحبك جمع حبيكة وهى الطريقة فى الرمل ، والطريقة من طرائق النجوم ، ولعلها محرفة عن « الحلك » بمعنى الظلمة .

٤ — وقالت عند عود مولانا الخديوى إلى « مصر » بعد حادثة الثورة : —

لاحَتْ بآفاق السعود بُرُوق ... وبهـا لأقمار السرور شُرُوق
وَبدَا إلى الأحْدَاق بعدَ تغيُّب ... نجمٌ لهُ فى الخافِقَيْنِ بَرِيق
قَرَّتْ عُيُونُ أُولِى النهىٰ بظهوره ... فى الأفق لما أسعف التوفيق
اللهُ أكبرُ يَوْمَ آبَ عزيزنا ... عيدٌ كبيرٌ زانَهُ التشريق
والدهرُ هَنَّأنا بِعَوْدِ مُلَكَّ ... هُوَ بالمَفَاخِر واثق وحقيق
وأتىٰ وكلٌّ بالسعادة جازم ... وبدا وكلٌّ بالْفَلاح وثيق
وَافَى الخديوىّ الفخيمُ المُرْتَضَىٰ ... ربّ الفخار عزيزنا « توفيق »
رُفِعَتْ لهُ الأعلام يومَ قُدُومه ... وَبدَا لها فِى الخافِقَيْنِ خُفُوقُ
وَسَرَت بأرْجَاء البلاد مسرّة ... مِنْ عطرها رَوْحُ النسيم عَبِيق
عَزفَتْ لهُ الأفراحُ أَلْحَانَ الهنا ... وَبدَا يُشِيرُ لِحُسْنِهَا التَّصْفِيقُ
وَعُطارِدُ الأفلاك أصبح كاتباً : ... أَقْبِلْ فإنكَ لِلْقَبُولِ رَفِيقُ
وَاللهُ قَلَّدَكَ المَهَابَةَ وَالْبَهَا ... مِنَّا وَأَنْتَ بِما حُبِيتَ خَلِيق
طابت عناصرك الكرام فأنت لا ... ريبٌ أصِيلٌ فِى العَلا وعريق
وَلَكَ المزَايا ليسَ يحصرُها امْرُؤٌ ... إنَّ اللَّبِيبَ بحصرها لَيَضِيق
وَلَكَ السِّيَادَةُ لَيْسَ يَكْفُرُ أمرها ... إلاَّ عَدِيم العقل أوْ زِنْدِيق
قدِحَتْ بأكباد العِدَا نار الغضَا ... واشْتَدَّ مَابَيْنَ الضلوع حريق
كفرُوا بأنعم فيضِ جَدْوَاك التى ... تَرْبُو على قَطر النَّدَا وَتَفُوق
وعلوتَ لُجَّ البحر إذْ بَطِرَ الذى ... هو قبل ذلك فى نداك غَرِيق
وَغَدَا الأُجَاجُ بِيُمْن سَعْدِكَ حَالِياً ... فكأنَّه للشَّارِبِينَ رَحِيق
ظلمُوا نفوسَهُمْ بِخُدْعَةِ مكرهم ... وَالمَكْرُ يُصْمِى أهله وَيَحِيق
مَزَّقْتَ شملَ جُمُوعهم فمكانُهُمْ ... فى الابتعاد وفى الوبال سَحِيق
فالنصرُ عزمك والزمان مطاوع ... والسعدُ عبدٌ والكمال صديق

وَزَهَتْ عدالك فى البريةِ كلَّهَا فغدَتْ تَزُفُّ لكَ الثَّنَا وَتَسُوق
أثنَوْا بأوصافٍ أبَتْ عن حصرها لكنها تحلو لنا وترُوق
كثناء مثلى فهو أقصرُ قاصرٍ هيهاتَ يصلح سيدى ويليق
لكِنْ عَلَى قَدْرِ الفتَىٰ أعمالُه تَبْدُو وَمِنْ ذا كانَ ذا التنسيق

* * *

٥ — وقالت فى مولد ولىّ العهد « عباس بك » نجل الحضرة العلية الخديوية :

قَرَّتْ عيونٌ للسعادة بالصَّفا مُذْ بُشِّرَتْ بِسَمِيِّ عَمِّ المُصْطَفَى
« عباس » أشْرَقَ بالمعالى نجمهُ مِنْ نَيِّرِ التوفيقِ سَعْدًا أشْرَفا
رقَصَتْ بِمَنْبِتِهَا الغُصُون بِشارةً بقدُوم مَنْ بوجُودهِ دَهْرِى صَفَا
قالَتْ مَيَامِنُ بِشْرِهِ : تَهْنا الورى فالأمْنُ والتوفيقُ فوزاً أخْلَفَا

* * *

٦ — وقالت وقد تولى الخديوية مولانا الخديوى المعظم « محمد توفيق باشا » : —

بُشْرَاكِ يا « مِصر » عَمَّ الفيضُ فابتهجى وَزَالَ ما بِكِ مِنْ إثْمٍ وَمِنْ حرج
وساعدتك الأمانى بعد ما امتنعتْ حيناً وَحُقِّقَ أمْرٌ للصَّلاح رُجِى
تيجان يُمن الصفَا أضْحَتْ تُكللها يد السرور بفوز دائم بَهِج
والسعدُ أشْرَقَ نُوراً والسما غَنِيَتْ عن نور أقمارها والأرض عن سُرُجِ
تقلدَ النَّيِّرُ الدُّرِّىُّ تولية ضياؤها لسوى الإصلاح لم يهج
لَقَدْ سَرَى البدرُ يَسْعَى بالبشارة مُذْ رأى السعودَ بهِ فى أرْفَعِ الدَّرَجِ
فانظر تجد عصرنا مرآته صُقِلَتْ تهدى أهاليه صُبْحاً مِنَ البَلَج
هذا الخديوى الذى قَرَّتْ بِمَوْكبه عينُ الزمان وقالت للهدى : ابتهج
يَسُوسُ بالعَدْلِ والإصلاح أُمَّتَهُ وَيَبْذُل الفضلَ وَالْجَدْوَى لكل رَجِى
فالقطر يدنو إلى عليائهِ شَغَفاً و « مصر » تَفديه بالأرواح والمُهَج
سِوى سعادة « مصر » ليس يشغله وغير أبواب فِعل الخيرِ لم يَلِجِ

لله مَوْكِبُهُ الزاهى ونضرته ... وما تضمَّنَ مِنْ حُسْن وَمِنْ بَرَجِ
سَرَى ضُحى والرعايا نَيْلُ مأربِهَا ... بهِ وَعُطِّرَت الأرجاء بالأرَج
تَيَمَّنَ الناس منهُ الخير وابتهجوا ... وَاسْتَبْشَرُوا بعد طولِ اليأس بالفَرَجِ
تلا « عُطارِدُ » منشوراً لدولتـه ... وقال للسعد : فى أعتابهِ اندرج
والدهرُ رَنَّمَ بالبُشْرَى يُؤَرِّخه : ... يا « مصر » قد زانك التوفيق بالفَلَج

١٢٩٦

* * *

٦ — وقالت :

حَلَّ الخديوى بعالى السَّعد مُبتهجاً ... وَازَّيَّنَتْ « مصر » إذْ نالت أمانيها
والقطرُ أفْصَحَ يَشْدُو عِنْدَ مَقْدَمِه : ... مولاى سُرَّتْ بك الدنيا وَمَا فيها !

* * *

٧ — وقالت :

حَلَّ السعُود بمصرنا وَازَّيَّنَتْ ... والموكب السامى سِرَاجُ سرورها
قَدْ شرَّفَ القُطْر الخديو فمصره ... سَمَت البدورَ بل الشموسَ بنورها

* * *

٨ — تاريخ قدوم الخديوى من « الإسكندرية » إلى « مصر » — من المخطوط — :

نَشَرَ السرورُ البِشْرَ بالأرجاء ... وَمَحَا بذاكَ العذر كلَّ عَنَاء
مُذْ قِيلَ أعلام الخديوى أقْبَلَتْ ... تَسْمُو بِرِفْعَتِها عَنِ الجَوْزَاء
إقبالك العالى يقولُ لمصره ... لما بدا بسواطع زهراء :
شمسُ ابتهاج الدولة العُظمى به ... سَادَتْ وَزَادَتْ رَوْنقاً بِبَهَاء
فانظر تَرَى بالأفق حُلَّةَ سُنْدس ... رُقِشَتْ بأنجم سَعْدِه الغَرّاء
وَانْظُرْ ترى البُشرى تُدِير كُؤوسَها ... تسقى المصفَّى من لُجَيْن صفاء
والنصر قادَ رِكاب عِزِّكَ قائلاً : ... هـذا « أبو العبَّاس » بدر سماء
لازالَ ذا النُّورَيْنِ مِصْباح الرَّجا ... ما أشرقَ الإصْبَاح بالآلاء

وَيَدُوم نجم عُلَاهُ دُرِّىّ السَّنا وشهابه يَسْطُو على الأعداء
قد كللت تيجان طالع سعده بكواكب الإجلال والنَّعماء
فهى السعادة للأنام وظلها مأوى الوَفا ومحط كل ولاء
وتراب أرض أشرقَتْ بسموِّه لبصائر النُّجَباء كحل جلاء
وعلى اعتذارى بالقصورِ وأننى لم أُحْصِ عَدَّ صِفاتك العلياء
ما زلت أعلن بالمديح ولم أزل فى الناس «عائشةً» لخير دُعاء
والشمسُ ما سطعت بنور صباحها إلاَّ بهِ علقَتْ خيوط هَبَاء
فالله يُبْقِى مُلْكَهُ سامى الذّرَى وَيَمُدّ طلعته بطول بقاء
تاريخُ مَقْدَمِه تعززَ واعتلى من أن يُخَطَّ بمهمَلٍ للراء
فالسَّعْدُ قالَ مُؤَرِّخاً : جاء العُلَا وَتَتَوَّجَتْ «مصر» الْهَنَا بِسَناء

١٣٠٨

***

٩ — مرثية الخديوى السابق «توفيق باشا» — من المخطوط — :

هل مُنْذِرٌ بالقطر أعلن بالثبورْ أم ساق جَيْشَ خطوبه دهرٌ غدورْ
أضْحى الورى مافيه من جسم غدا ذا رُوح إلاَّ وهْو مُختل الشعورْ
فَزَع ألمَّ بآل «مصر» ونكبة إنذارها عَمَّ الفيافِى والبحورْ
نَبَأٌ بصدمة شؤمه الأرواح قد شقَّتْ مرائرها وإن كانت صخور
فقد الخديوى الرفيعُ سموه وتطايرت نقط الشرار فى الدهور[1]
«توفيق» أُفْق مراحم العطف الذى تتلوهُ كالآياتِ ما برحتْ ثغور
وَتَفَجَّرَتْ مُهج النفوس بحسرة حرقت بحرّ الجمر أكبادَ الصدور
قمرٌ علاهُ المَحْق ليلةَ بدره وكسا سماء الصفو بالظلماء سُور

(١) الأصل غير واضح

شمس تعالت فى الضحى فأصابها غَسَقُ الخسوف وصدَّها دهر غدور
لما توشَّحَت السَّماء بحزنهـا نادت كواكب فطرة السعد القبور[1]
بدرٌ تلاشى بالمحاق وإنمـا مصباح نَيِّره بآفاق يَدُور
حقق أبا العباس عصرك لم يزل بسموٍّ صِنْوِ عُلاك نور فوق نور
مُحِيَ العزاء ببشر تهنئة غَدَتْ لشجون أفئدة البرية كالطهور
والدهر تاب عن الخطوب ولم يَعُدْ فاقبل بفضلك عذرَ ملتمس شكُور
أحييت يا « عباس » مصر وآلهـا ودنت لطوع وَلاك من شوق نحور
أنْعَشْتَ بالظلّ السمىّ رعيَّة ورددت أرواحاً لهـا كادت تبور
فاحكم نقىَّ العنصرين لك الولا وَأُنْعِمْ وَسُدْ واعطف ودم طول الدهور
فالعصر ممتاز العصـور بِسَيِّد والدهر من تشريفه[2] فَرِحٌ فَخُور
بالفـوز مصر تجوهرت أرقامها وَتَتَوَّجَت ببهائهـا بالنصر نور

١٣٠٩

* * *

١٠ — مذهب موشق لصاحب الفخامة الخديوى عند إيابه من السفر — من المخطوط — :

إقبالُ سموك بدرُ ولاح عَمَّ السَّنا هَنَّى المواطن بالأفراح دام الهنا
ومصر بالسعد تنادى ذات السعود نَوَّرْتْ ياروح الأرواح ياعين المنا

دور :

تشريف خديو يناخَلاً بشرف القدوم الكل فى عدله مرتاح ونال مايروم
والمجد فى ركابه قادم بِبِشر اللقا فى كف إشراقُه مصباح يضىء للعموم

---

(١) الأصل غير واضح ، وكلمة « القبور » تحتمل أن تقرأ : « الغيور ».

(٢) فى نسخة مخطوطة أخرى : من سودوده ، وفى اللغة : السودد ، وهو السيادة ورفعة القدر .

دور :

انعم وَسُد واسعد دوماً وكيد العِدا يَاأعز أرواحنا فينا وهُمْ لك فِدَا
لازال لسان حالنا قايل بأفصح نِدَا اِحفظ إلٰهى خديوينا ليوم النَّدا

***

١١ — وقالت تهنئ الخديوى « عباس » بمقدمه — من المخطوط — :

أَبَدْرٌ بِأُفق السعد لاح بهاؤهُ أم الصُّبحُ يَهْدِينَا بنورٍ ذُكاؤه
وذى نفحات الروض طاب أريجُه أم الحظ من بشرٍ تجلَّى علاؤه
فياعزةَ البُشْرَى تباهى بِمقدَم كَسا القُطْرَ بالتشريف عزاً صفاؤه
ويادولة الإقبال دام لك العُلا يلوحُ بأقصى الخافِقَيْن ضِيَاؤه
وَيَاقُطْرُ تِهْ عُجْباً وَدُمْ وَاعْلُ وافتخِر بعصرٍ على الأعْصَارِ صحَّ ولاؤُهُ
بنور من التوفيق والأمْن ساطع أضاءت لهُ الدنيا وجلَّ سَناؤهُ
تَوَجَّه محبُور السعادة ظافِرًا وعاد مَعَادَ النيل عَمَّ وفاؤهُ
خدِيوِيّنا « العباس » آبَ وَنَصْرُه على هامة الأفلاك يعلو لواؤه
وقابل بالإقبال وجه خليفة يُتَوِّج فَرْقَ الفرقدَين عطاؤه
وَعَادَ لِقُطْرٍ طالَ منهُ اشتياقه إلى النعمة العُظمى فَطَابَ لِقاؤه
سموُّك يابن النَّيِّرَيْنِ مُؤَيَّدًا يفوق على زُهْرِ النجوم ارتقاؤه
وفكرك مِرْآة يرى الدهر حُسنه فيزهىٰ مُبَاهاةً وَيَسْمُو ضِياؤه
وحبك للأرواح رَيحانُ طِيبها وظلك للأشباح رَوح رُخاؤه
وفضلك مشهود وسَعْيك شاهد بِأَلْسِنَة الأيام يُتْلىٰ ثناؤه
فَلَا نَفْسَ إلاَّ مِنْ نفوسك روحها ولا قَلْبَ إلاَّ مِنْ عُلاك رجاؤه
بإشراقكَ العالى غدا قُطْرُ مِصْرِنا عَرُوساً زهى حُسْناً وَطابَ جِلاؤه
تقلد من أسْنَى الجواهر حِلية يميس دَلالاً فى السرور رُواؤه

لدولتك العظمى بصدر أولى المرا سفير الغضا داء عقيم دواؤه
فكل صميم ، للسعادة مبغض بأعتابها العليا تراق دماؤه
فلا زلت للصولات ليثاً مؤيد وأمرك للآفاق يرقى مَضَاؤه
ولا زالَ يجْرى بحر فضلك بيننا وكان لنا عزا وجودك ماؤه

***

١٢ — وقالت ، وقد كتب فى لوحات الزينة بمدينة « بنها العسل » عند مرور « الخديوى » عليها :

البِشْرُ أجرى « بينها » أنهر العسل والنصر أضحى « بتوفيق » السعود جلى
وافَى « الخديوى » فأضحى نور بهجتها كالبدر فى التمّ أو كالشمس فى الحَمَلِ
والأرض قد ألبست أبهَى مطارفها وازّينت فى بديع الحُلْى والحُلَلِ
ماتَمّ أرض سقاها غيث مَقْدَمِه إلا وفازت بزاهى الأنس والجَذَل
تَهَلَّلَ القطر بشراً من زيارته وأيقن القوم حُسْنَ الفوز بالأمَلِ

***

١٣ — وقالت تهنىء « الخديوى » بعودته :

بالخديوى القُطر أضحَى مشرقاً وبه « مصر » على الدنيا تسودْ
قد أضاء القطر لما حَلَّه وازدهت فى الكون تيجانُ السُّعُودْ

***

١٤ — وقالت ترثى العلامة المرحوم الشيخ « إبراهيم السقا » :

الدهر أبدلَ راحتى بعناء واعتاضَ صَفْوَ تنعُّمى بشقاء
وبدا الزمانُ إلى العيون بمظهرٍ يقضى بمَزْج دموعها بدماء
آلَى ليختطفنَّ أفئدة الورى يوم المُصاب وبَرَّ فى الإيلاء
مرآته طُمست وأصدأ وجهها من بعد ما سعدت بطول جلاء

ولطالما اكتحلت عيون أولى النهى ... من غدره بمصائب وبلاء
ولكم يُفوّقُ للقلوب نِبالَه ... ولكم يشق مرائر النبلاء
حُجِبَتْ بوارق غيثِ أنواء الهدى ... عن عين كلّ مؤمّل أو رائى
كذبتْ لوامع كل صبح صادق ... مذ غاب شمس العلم فى الضيراء
فلتحزن العلماء ولتأسف على ... يَنْبُوع فضل العلم والعلماء
وليفرح الجهلُ المبيد وأهلُه ... وليجعلوا مَسْرَاهُ ليلَ هناء
وليسعد المغرور من أعوانهم ... فاليوم راق الحيُّ للجهلاء
تَبّتْ يدا زمن دهانا صرفُه ... بفراقه فى ليلة ليلاء
لما تغيّب نَيِّرُ الدين الذى ... أنوارُهُ ينبوع كل ضِيَاء
صَدَّقْتُ أن «الشافعىّ» قضى، وما ... صدَّقْتُ قبلَ تغيُّبِ السَّقَّاء
بَحْرُ التفقه، كنز إرشاد الورى ... رَبُّ الفخار وواحد البُلَغاء
شَجَنٌ عَرَا الإسلام بالظمإ الذى ... حَلَّ الْعُرَى بضمائر العلماء
وشعائر الدين القويم بَدَا بها ... أثر الهلوع، فَمَنْ لها بعزاء؟
أرْوَى أفانين العلوم بغيثه ... وَلكمْ سَقَىٰ من رَوْضَةٍ غنّاء
ولطالما قد أبرأتْ أفكاره ... أمراض قلب بالضلالةِ ناء
أضحت حصيداً أرضُ «أزهرنا» التى ... كانت به كالدوحة الخضراء
تشكو الأُوَامَ ومالها من مُطْفِىء ... مُذْ غابَ سَقَّاه العُلَىٰ بالماء
ماحالُ آماقِ العيونِ وقد رأتْ ... شَيْخَ المشايخِ غابَ فِى الْغَبْرَاء؟
لم لا تُفِيضُ غَزِيرَ مَدْمَعِها الذى ... يُزْرِى بِسَحِّ المُزْنَةِ الْوَطفاء؟
حَقٌّ على الآماق يومَ فراقه ... ألاَّ تَضَنَّ بذائب الأحشاء
عين العلوم بكت دماً لما رأت ... إنسانها مُتَهَيِّئًا لخفاء
لو أن كُتْبَ العلم تَقْدُرُ فَقْدَه ... لتبدّدَت من لوعة وعناء
وأرى «عُطارِدَ» بات يكتب جاهداً ... آثار فُرقته على الجوزاء

دَهِشَتْ عيون أُولِى النُّهَى مُذْ أبصرت ... شمسَ العلوم تَغِيبُ فى الدأماء
كم قلبته يَدُ السقام ولم يَقُلْ ... أُفٍّ لما يَلْقَىٰ من الضَّرَّاء
ولطالما لاقَى الصروفَ ولم يَسَلْ ... مِنْ معشر الحكماء كيف دوائى ؟
أدَّى فريضة عِلمه بحقيقة ... حتى قضى متوشحاً بثناء
نادى بشير القُرْب : طب نفساً فقد ... طاب الرحيلُ إلى دِيار بقاء
سمِعَ النداء دُجَى فسلَّم نفسه ... عن طيبها لِمُبَشِّرٍ بلقاء
أرواح عشّاق العلوم تهيأت ... لقدومهِ ببرازخ السُّعَدَاء
وتعطرَت غُرَف الجِنان وغرّدت ... فيها بلابلها بِحُسْن غِناء
وَرَقَىٰ إلى أعلى منازل حظّه ... لما استوى بمراتب الشهداء
هو فى نعيم دائم لكننا ... لِبُعَاده فى شدة البَأْساء
قلبى عليه غَدَا كجمْرات الغضا ... وَالوعتى من حرّه وشقائى
فلأذرفَنَّ أسًى عليه مدامعى ... ما دُمت « عائشة » بخِدر فِنَائى

***

١٥ — وقالت فى دعوة :

بحمد الله أقبلت التهانى ... وَتَمَّ الحظ واكتمل السُّعُود
وقال العزّ للراجين : بُشْرَى ... بِصَفْو العيش ، شأنك ما تريد
وأنتم للصَّفا رُوحٌ ولبٌّ ... وطلعتكم يَطِيبُ لها الشهود

***

١٦ — وقالت مؤرِّخة ولادة صاحبة العصمة « عزيزة هانم » كريمة دولتلو « حسن باشا » :

جاء العزيزُ بَشِيرًا قبل مقدمها ... « عزيزة » فى بهاها حيرة العَيْن
وأقبلت مع صِنْوٍ طاب عنصره ... أنعم بإقبال هٰذَيْنِ الشقيقين
لا زال بدر المعالى سامياً بهما ... وَنَيِّرُ العزّ مِصباح العزيزين
وفى تهانيهما أشدُو مُؤَرِّخَةً : ... رَاقَ الصَّباح لهُ بِشر بِنُورَيْنِ

١٢٨٨ هجرية

١٧ — وقالت تمدح :

يامَنْ له قال الورى لما غَدَتْ عين الزمان بنور مظهره تسودُ
ربّ السعادة والسيادةُ والعُلَا لا زال بابك كعبة لِأُولِي السجود
أَلْبَسْتَ فَرْقَ العصر تيجان البَهَا حتى غدا لك شاكراً كل الوجود
لا زلتَ فى أفق المعالى كوكباً يقضى عَلَى الدُّنيا سَناؤكَ بالسُّعُود
وبقيتَ فى شرف ومجد باهر تسمو مواكبُه عَلَى رَغْمِ الحُسُود

* * *

١٨ — وقالت فى رسالة لبعض العلماء :

عَلَّامَةَ البُلغاء هل من نظرة تُشْفَى بِحُسْن شمولها الأرواحُ ؟
ولك المفاخر فى البريَّة حِليةٌ كل الأنام لحسنها ترتاح
فلأنتَ مَنْ شَهِدَ الزمانُ بمجده وَلأنْتَ بين أُولى الهُدى مِصباح
وَلأنْتَ رَوْضٌ فى الفضائل مُزْهِرٌ دارت عَلَى نَفَحَاته الأقداح
أبداً يميلُ لِعَرْفه متعطِّر ميْلَ الغوانى قد شجاها الرّاح
بنسيمها تُنْسَى الصَّبابة نشوة ما ناحَ أَيْكِىّ وفاح أقاحُ

* * *

١٩ — وقالت تهنئ بالعيد بعض الأمراء :

بِحُسن طلعتك الدنيا تهنيِّها فإنها بِكَ قد نالت أمانيها
والعيدُ أصْبحَ من علياك مُبْتسما والدَّهر والنَّاس والدُّنيا ومَنْ فيها
ماالعيدُ إلاَّ هِلال منكَ مُقْتَبسٌ نوراً لعين الورى يجلو أماقيها
أدار لى الدهرُ من صفو المنى قَدَحاً ياحسنَ راحٍ نديمُ الدهر ساقيها
و«مصر» أمست تباهى الكون من طرب إذ أنت بدرٌ مُنِيرٌ فى لياليها
والبشر يَبْسِم فيها عن صفا دُرَر تزدان فى نظمها الزاهى لآليها

فاقْبَلْ ثناء دعاهُ حُسن تهنئة ... بمدح أوصافكم تحلو قوافيها
لا زال كوكبك العالى يضىء على ... كل البريَّةِ قاصيها ودانيها
ودمتَ روحاً لصدر الدهر تنعشه ... طُوبىٰ لأيام عيدٍ أنت مُجْليها

***

٢٠ — وقالت مهنئة :

عين المُنَى قَرَّتْ بِكَ الأعيان ... واستبشرت بسعودك الأعيان
مُذْ غَرَّدت بِرُبىٰ الهناء بلابل ... وتمايلت طرباً لها الأغصان
والبِشر عمّ على البَرِيَّة نَشْرُهُ ... وَبِدُرِّهِ قد كُللتْ تيجان
حق بمثلك للزمان تفاخر ... يا من لعين سعوده إنسان
تَهْنَا المناصِب والنفوسُ بأسرها ... والقُطْرُ بل تهنا بِكَ الأزمان
دامَ الزمان لسعد بابِكَ خادماً ... ما دام ينبت فى الرُّبىٰ الريحان

***

٢١ — وقالت مهنئة بقدوم :

جاء البشيرُ ونورُ الصبح قد لَمَحَا ... لدى القدوم وباب اليُمْن قد فُتِحَا
أهْلًا بِنُور عَلَى نورٍ بطلعته ... عاد السرور وصدر الدهر قد شُرِحا
فَيَا لَهُ قادماً قَرَّتْ بِهِ مُقَل ... حتى بدا الدمع فى آماقها فَرَحا
وَيَا لَهُ مُقْبِلاً سُرَّتْ بِهِ مُهَجٌ ... كادت تذوب بنيران النَّوَى تَرَحا
وَافىٰ فأوطانُهُ بالبشر باسمةٌ ... تهتزّ أُنْسًا وتزهر بالهنا مرحا
وأصبحت أَلْسُنُ الإقبال ناشدة : ... هذا العزيز أتى والدهر قد سمحا
بأىِّ شُكْرٍ أُوَفِّى حقَّ مِدْحَتِهِ ... وَانْجُلّ والخصم فى تفضيله اصطلحا ؟

***

٢٢ — وقالت مهنئة بالشفاء :

قم بالسناء فإن الله عافاكا ... وكُلُّ ثغر بفوز البُرء هَنَّاكا
ودم بصحتك الغراء منشرحا ... ودام فى السقم من عادَى سجايا كا
قد باشرتكَ العوافى بالشفا سَحَراً ... فاسمح لها بشَذىً من طيب رَيَّاكا
جَيْشُ القُوى قد أباد الضعفَ مبتدِرا ... إلى رِضاك وبالآمالِ حَيَّاكا
وَذِى ثغورُ التهانى بالمنى ضحكتْ ... والمجدُ أصبح مسرورًا لبشراكا

* * *

٢٣ — وقالت لقدوم دولتلو « حسن باشا » :

لاحت شموس السـعد بالأقطار ... وَجَلَتْ عروسَ الأنس للأبصار
واستبشرتْ « مصر » المنى بقدومه ... حسن الخلائق غرّة الأنوار
كم ذا توشَّحَ بالدُّجُنَّةِ صبحها ... مذ كان من شمس المكارم عارى
لو للديار فم لقالت : مَرْحَباً ... بشرى بنَيِّر عزتى ومدارى
قد أقبلتْ بالبِشْر دولتُك التى ... هى تاج آمالى وعين فخارى
لا زلتَ بدرا بالسعود متوَّجاً ... ما اهتزَّ غصن فى صَبا الأَسْحَارِ

* * *

٢٤ — وقالت لقدوم دولتلو « حسين باشا » :

لاحت بمصر مشارقُ الأنوار ... والليـل أبدلَ ليلَهُ بنهار
فانظر ترى للأنس صبحا مُشْرِقا ... يلقى « الحسين » مواصل الأسفار
« مصر » المُنَى قالت لطيب قدومِه : ... أهلاً بكوكب زينتى وفخارى
أهـدَى قدومك بالسعود مسرّةً ... توَّجت منهـا ساطع الأنوار
قَرَّتْ عيونُ أُولِى النهى لما بدت ... آياتُ ذاتِ المجد للأبصار
قد طالما رفعتْ أكفَّ ضراعة ... لرجاء هـذا العَوْدِ بالأسـحار

عادت بهِ لِلقُطْر أعظم حليـة يزهى بهـا شرفاً على الأقطار
وَغَدَا بهِ بَدْرُ التهانى كاملا فَلْتَفْتَخِر « مصر » على الأمصار

* * *

٢٥ — وقالت مُطرزة اسم أحد رجال الإنشاء — وهو الشيخ « على الليثى » — :

عَلامَ الدّر يا غواص غالى فَبِعْه بما يُسَام ولا تُبالى
لقـد جاد الإلٰه لنـا ببحر يجود بِدُرِّهِ قبـل السؤال
يَميناً بالبراع لقـد غَنِينـا بِمَنْطِقِهِ الشَّهِىِّ عن اللآلى
أرَانا فى بدائعـه عقودا وأطلعنا على السحر الحـلال
لهُ قَصَب السَّباق إذا تجارى مع البُلغاء فى هـذا المجال
لعـمرى ما لفرسان القـوافى لحاق ، إن ذاك من المحـال
يَرَى المجـد الذى عَزَّ اقتِنَاهُ فَيُوقِن أنهُ سـهل المنـال
ثَنَى عن لَهْوِ دُنيـاه عِنَاناً وَمَالَ بعزمه نحو المعـالى
يَجِلُّ مقـامه الأسمى ويأبى عُلَاهُ أن يُحِيطَ به مقالى

* * *

٢٦ — وقالت فى ضمن رسالة :

حَلَّ الرحابَ نزيلٌ سافَه شَغَفٌ لِلّٰهِ راحات مولًى خُصَّ بالهمم
وجئت والشـوقُ واف نحو سُدَّته وفى يقيـنى أن ألقَى أخا شِيَمَ
فَتِهْتُ كالنون فى بحر لهُ ثَبَجٌ مُذْ هَزَّنى لاعج من صدرىَ الضَّرِم
وإن حظى عَقِيـل بالنـكول ولى نجم إذا قلت : دم يا نجم ، لم يدم
والله لو أن لى بالشمل طائلة لمـا قعـدت عصيبَ الـكف والقدم
تبّت يدا سائقِ الأظعـان ما رَسَمَتْ يداهُ للعِيس سـير الأينُقِ الرُّسُمِ
باحَت ليَالى النوَى بالوَجْدِ وهْوَ عَلَى ضـعفى كتَمتُ لظاهُ أىّ مكتَتَمِ

مَوْلاى لى مِن بَسِيط العفوِ وافرهُ ... وَأَفضلُ العُتْبِ ما يُبْنَى عَلَى العَشَم
رَبطت بالتِّيهِ أمراسى بلا سبب ... وكَان عَهدى مديد الفَضْل وَالكَرَم
عَجِبْتُ إذْ يزْدَرى المولى بِتابعه ... وَيعلن الصدَّ للمحسوب فى القِدم
تؤُم مُزْنُ الوفا أمَّ الرِّضا فتفى ... عطشى وَوِرْدُكَ صافى الماء لِلأمم (١)
يَسْعَى لساحِلك الصادى فتحرمهُ ... وَوِرْدُكَ العَذبُ يشفى الجسمَ منْ سقم
هَبْ أن عبدك قد فاقت جريرته ... رَضْوَى وأربتْ مساويه على العَلَم
أليس قد قيل : خير الناس عاذرهم ... وأحسن الخلق من يعفو عن اللَّمَم ؟
لا زالَ قولك قسطاساً ومَعدلة ... وَلَا بَرِحْتَ تقودُ الرشد بالحِكَم
وهذه مِدحة تمشِى على وَجَل ... وفى الإشارة ما يُغنى عن الكَلِم

* * *

٢٧ — مرثية سعادة أحمد فارس (مخطوط) :

توشحتْ ساطعاتُ الفضل بالظُّلَم ... وباصِرَاتُ الدُّ كا عُمَّتْ بِسُحْبِ دَم
وحبة القلب ذابت بالفِرَاق أسًى ... وانحط كل لسان بالبيان سَمِى (٢)
وخالص الضوء قد أوْدَتْ ببهجته ... عواطفُ الحزن حتى صار فى عدم
وأعين العلم قد كُفَّتْ بلا رَمَد ... من فجعة عمَّت الأحشاء بالألم
أمَا تراها وقد باتت على غَسَق ... وغاص إنسانها فى مدمَع النَّدم ؟
وذاك لما توارَى بدرها وخلت ... أنحاء ميدانها عن فارس الأُمَم
ربّ المكانة لم تبلغْ مكانته ... أئمة الفضل والعِرفان والحِكَم
فما اليراعة إلا طىّ ما سطرت ... أقلامه الغرّ فى تأليفه العَمَم
كم نظّمتْ من جُمَانٍ لا يقاس به ... مشرّف الدّر مهما جلّ فى القِيَم
هيهات يُدْرَك فى مجد وفى شرف ... مَنْ صارَ تدوينه المشهور كالعَلَم

---

(١) فى الديوان المطبوع : فتسق ، مكان « فتفى » والوزن بها لايستقيم .
(٢) السمى : السامى .

« سرّ الليالى » شهيدٌ صادق أبدا بأنهُ عَلَمَ العِرْفان والكرم
وانظر « لجاسوسه » حتى ترى عَجَباً فالدهر عن مثله لا شكّ فى عُقُم
كم فاخرت من أنيق الدرّ فكرته غُرَّ القواميس واستجلَتْ عن الكلم
ياالهفَ قلب الليالى بابن بجدتها فقد تغطى سَناهُ اليوم بالرَّجَم(١)
حقّ الأفاضل أن تبكى معارفه وتسكب الدمع ممزوجاً بفيض دم
وأن تُشقّق أكبادَ الأسَى بدلا عن الجيوب فحُولُ العُرْب والعجم
جَلَّتْ مناقبه عن طول قَوْلِىَ إذْ أشعة الشمس لا تدنو لمستلم
لكننى لم أُطِقْ أشجان رِحْلَةِ مَنْ قامت لِفَقْدَانه الدنيا على قَدَم
فجدتُ بالوُسْعِ والمأمول معذرتى لدى سَلِيمِ المعالى كامِلِ الشِّيَمِ
أدامه الله فى دَسْتِ العُلَا خَلَفاً لذلك الشهم مشكوراً لدى الأمم

* * *

٢٨ — مرثية المرحوم حسن باشا البرنس (مخطوط) :

عطفتْ خطوبُ الحزن والحسرات فَسَرَى الأسىٰ فى المُدْنِ والفَلَوَات
وَأَلَمَّ بالأقطار هَوْل فادح أَصْمَى جيوشَ الصبر بالغارات
مادَتْ لشدَّة وقعه الدنيا وقد أَوْهَى الجبالَ الشمَّ بالصدمات
شُقَّ المرائر لا الجيوب ، أما ترى مُهَجَ النفوس براحة السكرات ؟
ياليلةً ليلاء أورث شؤمُها حسراتِ أنفسنا بلا غايات
نادى منادى البَيْن يُعلن بالرَّدى أنْ غاب بدرُ المجد بعد ثبات
ويشير أنْ فُقِدَ المُشِيرُ أخو العُلا سامى المكارم سابق الرايات
صنو « الخديوى » فرع أرفع دَوْحَة حَسَن الفعال ومعدِن الحسنات
لَهْفِى على كبد تفطَّرُ دونَهُ سُمْرُ القنَا وتنال بالآلات
أعْيَا الأُساةَ دواؤها فتراجعوا عن طِبِّهَا بالوَيْل والخيبات

---

(١) فى الأصل : نجدتها ، بدلا من : بجدتها .

كيف النجاةُ لمن سَقَتْه برغمنا ... أيدى المنونِ مرائر الجُرُعات
يا راحِلاً عنَّا وقـــد خَلَّفْتَنَا ... تبكيك أعيننا بطول حيـاةِ
أقسمتُ لو يرضَى الزَّمانُ بفديةٍ ... لافتـــادت الأرواح لِلْفِديات
مَنْ للشجاعة بعد فقد وحيـدها ... وقرين عزّ النصر فى الغزوات ؟
ومجرِّدِ البيضِ الصوارمِ فى الْوَغَى ... وَمُفِلِّ جيش الخطب بِالْعَزَمات
لَيْثٌ بميـدان النِّزَال وفارسٌ ... أبدًا يُذِلُّ الْأُسْدَ فى الغابات
غدرتْ طباعُ الدهر منـه بماجدٍ ... فاغتالهُ غُصناً حميـدَ صـفات
حتى غدا بين الْوَسَائد آيِساً ... يَنْعَى الزمانُ شبابَه بالذات
سَمِـع النـداء أن ارجعى مَرْضِيَّةً ... لِذُرَى النعـيم وموطن اللذات
أو ما ماترى الْحُورَ الحسانَ تأهَّبَت ... لقـدومك المشهور بالغُرُفات
ولسان أهـل الْخُلْدِ قال مُؤرِّخا : ... « حسن » تعالى فى عُلَا الجنَّات

١٣٠٥ هجرية

***

٢٩ — وقالت مهنئة (مخطوط) :

هَنَّوْكَ بالمنصب السامى سرادقُه ... وأنا أهـنِّى سُمُوَّ المنصبِ السامى
قال الزمانُ وأنتَ المستشارُ بهِ : ... بانت مَسَاعِدُ أوقاتى وأيامى

***

٣٠ — وقالت مهنئة (مخطوط) :

هَنَّتْكَ رُوحى لما قد نلتَ مِنْ رُتَب ... وَصَبَّحَتْكَ الأمانى فى مَسًا وَغَدِ
لا زِلْتَ تَرْقَى معالى الفوزِ مُبْتَهِجًا ... وَأَنْتَ بالسَّعْد فِى عِزٍّ وفى رَغَدِ

***

٣١ — وقالت مهنئة (مخطوط) :

تَهْنَا المناصبُ قد نالَتْ أَمَانيها والبدرُ أضحَى بسوق السَّعْد عاليها
منازلٌ للبَهَا تشتاقه قِدَماً أضحت ثُغُورُ السنا منهُ تُهَنِّيهَا
قالتْ بنات الدَّرَارى بهجة وصفا : تلك البضاعة قد رُدَّتْ لشاريها

* * *

٣٢ — وقالت أيضاً (مخطوط) :

زارتكَ ربَاتُ المعالِي فاغتنمْ لاح السعودُ القابلُ المرغوبُ
إنْ شَبَّ سعدُ المرء ساعده الورى وَدَنَا لهُ المحبوبُ والمطلوبُ

* * *

٣٣ — وقالت فى رثاء إسماعيل باشا يُسرى (مخطوط) :

نام الأميرُ بأرض خُلد بعد ما قد غَسَّلَتْهُ من الدموع بحور
لَيْثُ السعادةِ والمهابةِ والعُلا ضمَّته باكيةً عليهِ قبور
سمع النِّدَاء بأَرجعي مرضية وطوى بساطَ حياته المقدورُ
شقَّ المرائر كأس فقده فَجْأَةً وبأشنع الحسرات قام زفير[1]
هدم التيتّم سقف سبعة أنجم لبس السَّوَاد إناثها وذكور
فالموت شامَةُ كُلِّ حىّ فى الوَرَى والقبر مَأْوَى والرَّحِيم غفورُ

* * *

صدر المعالى غاب عنهُ النور فالدهرُ باغ والزمان غدور
والقبر « لإسْمَاعيل يسرى » قد غدا بَيْتاً وباتت تنتحبه قصور[2]
بدرٌ تَنُور بفخره رتب العُلا و « بِمِيرميران » سمى المنشور
طعنت سهام الفقد قلبه فجأة والسنّ سِنّ نبيّنا المشهور[3]
فهو الشفيعُ لهُ إذا سمع النِّدَا وَرَحِيمه يوم النشور غفور

---

(١) ، (٢) ، (٣) : هكذا الأصل

مَنْ بَعْدَهُ فى الحىّ يرحَمُ سبعة ... وَأبو اليتامى قد علته صُخورُ ؟
لما مضى لِلْخُلْدِ تاريخى : دعا ... بشرى « بإسماعيل » سُرَّ الحُورُ

١٣٠٦ هجرية

* * *

٣٤ — مرثية زكى أفندى (مخطوط) :

زفَّ العروس بقدّ للبِلى ربى ... وضمهُ القبر لم يبلغ من الأربِ
فقلت : رفقاً بأعضاء الغريق فقد ... أضحت جُذاذاً بما لاقت من الخَطب
فالماء عين حياة للورى ، فَلِمَا ... أراع بالموت فى عهد الشباب صبى؟[1]
كم قال مُذْ خمدت أنفاس قُدْرته: ... فأين أُمّى تُغِثْ كربى ؟ وأين أبى ؟
لا تغسلوهُ بماء البحر يفزعه ... إنّ الدموع لتكفى الغُسلَ بالصَّبَب
وَعَطِّرُوا بالشذا قبر الزكىّ ، فها ... أتى يقول : بنات الحُور فى طلبى

* * *

٣٥ — شعر لدولتلو هانم أفندى (مخطوط) :

ضحك الزمان بفوز لاح فى الأُمَمِ ... فانهض لنيل المنى ياعصر واستقم
مُذْ كللَتْ بِلآلِى عطفِ دولتها ... مليكةُ العصر تاج العزّ والهمم
بلوحة الأفق آياتٌ لِرِفعتها ... أجاد فى رَقمها العطارُ بالقَلَمِ

* * *

٣٦ — مذهب لصاحبة الدولة (مخطوط) :

فى دولة السعد العـــالى ... نادى الطربْ زاهى مسرور
والعصر قال : يا إقبـــالى ... حَرِّرْ بِدِى الرقعـه منشور

دور :

شمس المعـــالى والأزعان[2] ... مليـكة العصـمه والشان

---

(١) هكذا الأصل . (٢) الأزعان ، هكذا بالأصل ، وورد مرة أخرى بهذه الأحرف مخطوطاً أيضا (انظر القطعة المرقومة ٤٥) .

عِين العنـــايه والبرهان مَنّت على الدنيا بالنور
نادى الطرب ناطق للناس إذا تعطّر بالأنفـاس
أنا الغَنِي عن وَرْد وآس لـكن هنـا سائل معـذور
دا نور مجسّم سبحانى وأصـل أمجـد سـلطانى
يحْـيِي فؤاد من كان عانى من عطفها السامى المشهور
من نفسها أوتار العـود غَنّتْ بألحان المقصـود
يحفظ شمايلهـا المعبـود والـكون بعزّتها معمُور

* * *

٣٧ — تاريخ سبيل المرحوم « يُسرى باشا » (مخطوط) :

نَبَعَ الزُّلالُ لـكل حَيّ سائغاً يَشْفِي الْأُوَامَ كأنْهُرِ الجنّات
فاشرب هنيئاً من سبيلٍ كَوْثرا وَهَب التلاوةَ رحمةً لرُفات
وَارْجُولإسماعيل يسرى العفو من حَيّ قضىٰ بفَناء كل حياة
وانظر لهذا السلسبيل مؤرّخاً : رقّ السَّبِيل أتى بمـاء حياةِ

١٣٠٦ هجرية

* * *

٣٨ — وقالت مهنئة (مخطوط) :

للبـدر فى أفق العُلاء منازل وقد ارتقى فوزاً إلى الأفق الجديد
قالت تُهَنّيه السـعادة والمُنَى : دُمْ نَيِّرًا بالسعد فى البُرْج السعيد

* * *

٣٩ — تاريخ وفاة حافظ باشا (مخطوط) :

لِصَبَا النعيم صَبَا « محمد حافظ » واشتاق من ذاك النسيم شميما
ترك الفناء بأمر من قال : ارجعى وَلَقِي بغفران الرحـيم نعيما

لما سَعَى هذا الهمام لِخُلْدِه مَأْوَى المكارم واستقرَّ زعيما
من معجم لا مبهم أرختُ : قُلْ قدجاء « حافظ »ياجِنَانُ كريما
١٣٠٦ هـ

* * *

٤٠ — تاريخ وفاة حسن البارودى (مخطوط) :

لابهجةً للعيش واللحدُ الوطنْ حَقِّقْ تَرَ الدُّنيا وزُخرفُها شَجَنْ
هذا الأميرُ نَفَى الحياة إطاعة وغدا بجوف ثراه ملحوداً « حسن »
سمع النداء بأرجعى مرضيَّة فطوَى بساط العيش فى دار المِحَن
فاجْعَل لهُ الغُفْرَانَ رَبِّى رَحْمَةً وشفيعه يوم النَّدَا جَدّ « الحسن »
بِمُجَوْهَرٍ أرختُ : زار رحابَه « حسن » نفى دُنياهُ واختار العَدَن

* * *

٤١ — تهنئة قدوم (مخطوط) :

نادىٰ البشيرُ : سَناء البدر قد لاحا فانظر ترى فى سماء الفوز مِصباحا
والقُطْرُ حَيَّا بِأَلْفَىْ مَرْحَبٍ وَغَدَا بِشْرُ القدوم بنور النيل وضَّاحا
لِلّٰهِ دَرُّ همام سَعْد طلعته أحيا بنعشته الغَرَّاء أرواحا
وناولَتْ بِأَيادِى الالتفاتِ ضُحَى آلَ الظَّمَا من فُرَات الصَّفْو أقداحا
فيالها نعشة ضمنت توجهه ونَشْرها المِسْك بالأرجاء قد فاحا(١)
فأيَّدَ اللهُ دولتَهُ وَرِفْعَتَه ماغَرَّدَا لأيك بالأغصان أو صَاحا(٢)

* * *

٤٢ — وقالت أيضا (مخطوط) :

لهم هِمَّة غَرَّا تغار من الصَّبَا رجال بأبواب الشهامة رُصَّدُ

* * *

(١) ، (٢) : هكذا الأصل .

٤٣ — تقريظ لجريدة السيدة « هند » (مخطوط) :

فتحتْ فتاة الحيّ أبواب المُنَا ... فلفضلها من كل ناطقةٍ ثنَا
أنشتْ بسَعْى فاحَ نفح ذكائهِ ... غُرَفاً لمَعْشَرها مُشَيَّدة البِنا[1]
للهِ درّ مَصُونة قد جَدَّدَتْ ... بمحافل الأتراب مِصباح السَّنا
وغدت لليل الوقت فجر سروره ... ولصبح عصر سُعودها شمس الهنا
فانظُرْ ترى لِبَهَا الفتاة جريدة ... قرّتْ بها آل العصابة أعْيُنا
نالتْ سَوَاعِدُهُنَّ مُتَّكَأً بهِ ... يَعْدِلْنَ قَدًّا بالخمول قد انحنا
كم بِتنَ فى أرقٍ لنيل تفاخر ... وَغَدَوْنَ والأقوالُ فى أنا لنا[2]
يا قلب قد جاد الزمان بِهِنْدِهِ ... فاسْعىٰ بمنشور البِشَارة مُعلناً
«هند» محت تَذْكار «هند» حبَّذا ... عِوَضٌ به ربُّ البريَّةِ أحْسَنا
حسبى افتخاراً للكواعِبِ لم تزل ... تتلوهُ ما نطقت بشكرٍ ألْسُنَا
فإليكِ يا عين الذكاء تحيَّتى ... تسحَبْ وشاحَ العُجْب فى طُرُقِ المُنَا[3]
ولديكِ — يا « هند » البراعة — أبْكم ... من قال فى سُبُل الفصاحة : ها أنا

* * *

٤٤ — ولها مفرد (مخطوط) :

قالت فتاةُ الحيّ : تلك جريدة ... بل نخل أذعان له طَلْعٌ نضيدْ

* * *

٤٥ — ما أنشدته لحرم «الخديوى» بطريق الموشق (مخطوط) :

مذهب :

فى دولة السَّعْد العالى ... كل الطرب باهى ممنون
وَنَيِّر العِزّ الغالى ... دا بهجة الرَّبْع المسكون

---

(١) فى الأصل : غرف . (٢) و (٣) هكذا الأصل .

دور :

شمس المعـالى والأزعان ... مليكة الشهره والشان
عين العنـايه والبرهان ... فريدة الدرّ المـكنون
نادى الطرب ناطق للناس ... إذا تعطّر بالأنفـاس
أنا الغنى عن ورد وآس ... لـكن هنا سائل مفتون
دا نور مجسّم سبحانى ... ونسل أمجد سـلطانى
دوح المراحم للعـانى ... فى عطفها السامى مرهون
من نفسها أوتار العود ... غنّت بألحان المقصـود
يحفظ شمايلها المعبـود ... مارنّ فى الرَّوْض القانون[1]

***

٤٦ — وقالت فى دعوة فرح :

لقد مَنَّ الإلٰهُ لنا بسـعد ... وأشرقت اللَّيـالِى بالأمانى
وقام الفوز فى النادى خطيباً ... وَدَقَّ الحظ أوتارَ المثـانى
وأنتم لِلْمُنَىٰ عَيْنٌ وَرُوحٌ ... ومشكاةُ السُّرُورِ مع التهانى
لـكم صِنْوُ المسرّة فى انتظار ... فَمُنُّوا بالتَّعَطُّف والتـدانى
أجيبوا دعوة الداعى فأنتم ... فرائدُ والمجالسُ كالْجُمَانِ

***

٤٧ — وقالت أيضا :

بِمَنِّ اللهِ قد وَافَى الْحُبُور ... وَنَضَّرَ مَحْفِلَ الْأُنْسِ السرورُ
وَإِنْ بَزَغَتْ بطلعتـكم بُدُور ... يضىء على أعالى البيتِ نور
فأنتم فى رياض الأُنس زَهْر ... وأنتم فى سما العَلْيا بُدُور
فَزُورُوا ساحةَ النادى وَمُنُّوا ... فَسَعْد الحظّ يَعْقُبُ مَنْ يَزُور

---

(١) انظر القطعة المرقومة (٣٦)

٤٨ — وقالت ليرسم على لوحة فى وليمة أنس :

قد مَنَّ فضلاً بالصَّفَا الفَتَّاحُ وضياءِ توفيق الهنا مصباحُ
والسعد أقبل والعناية ساعدتْ دامت لنا بسرورنا الأفراح

* * *

٤٩ — وقالت وقد كتب فى لوحات الزينة بمدينة « بنها العسل » عند مرور « الخديوى » المعظم :

البشر أجرى « ببنها » أنهر العسل والنصر أضحَى بتوفيق السعودِ جَلِي
وَافَى « الخديوى » فأضحى نورُ بهجتها كالبدر فى التَّمِّ أو كالشمس فى الحَمَلِ
والأرض قد أُلبست أبهَى مطارفها وازَّيَّنَتْ فى بديع الحُلْى والحُلَلِ
ماتَمَّ أرضٌ سَقَاهَا غيثُ مَقْدَمِه إلَّا وفازتْ بِزَاهِى الأُنْسِ والجَذَلِ
تَهَلَّلَ القطر بِشْرًا من زيارته وأيقنَ القومُ حُسْنَ الفوزِ بالأملِ

* * *

٥٠ — وقالت :

أحياكم اللهُ هٰذا مَحْفِلٌ مُلِئَتْ أكوابُه بكُمَيْتٍ مِنْ مَسَرَّاتِ
مِنْ لطفِكم شَرِّفُوا النادى يفوز بكم فإنَّ طلعتَكم أُنسِى ومِرآتى (١)
قوموا إلى الراح كى أُحْيِي بها سَقَمِى وصافحونى بِرَاحَاتٍ وراحات (٢)
فَحُلْوُ راح الهنا من كفكم نَبَعَتْ نَبْعَ الشِّفا لصفا قلبى وراحاتى (٣)

* * *

٥١ — وقالت (قصيدة الست « وردة ») — من المخطوط — :

أباحتْ حبَّها « ليلَى » لقلبى ولم تسمح حواجبُها بقُرْبى

---

(١) فى الديوان المطبوع : ناد ، بدلا من : النادى .
(٢) راحات جمع راحة ، وهى : الكف . وراحات جمع راح ، وهى الخمر .
(٣) فى الديوان المطبوع : خلوا ، بدلا من : خلو ، وراحات جمع راحة وهى الارتياح .

وقد صَبَّتْ لِوَامِقِها كُمَيْتاً ... به الأكوابُ لم تُسْبَقْ لِصَبِّ
إذا مست شفاهُ شافياتٌ ... جباهَ الكوبِ يوماً حينَ شُرْبِ
تَرَى حَبَبَ الصبابةِ كوثريًّا ... به المَفْؤُودُ يَبْرَا دونَ طِبِّ
وباللهِ ذيّاك الثنايا ... إذا اتجه البسام إلى مُحِبِّ
فذره بشوة المرات حيّ ... وَمَيْت فى بدائع صنع ربى[1]
وخذ عنى وحىّ التفاتا ... إلى فيح سما قدسىّ ترب[2]
نما ورد الشقائق فى رُبَاهُ ... وأشرق عَرْفُه فى كل غَرْبِ
وفى نَشْقِ الأريج بأصغَرَيْه ... حقيق بالشهادة للمربىّ
بأن الصفو يَعْدِل ألفَ روض ... بذاك النَّشْر فى بُعْدٍ وقرب
فمن شِيَمِ الحدائق طَرْحُ وَرْدٍ ... تَشَكَّلَ زَهْرُهُ فى كل شعب
و« وردة » وقتنا للدهر أنْشَتْ ... حديقةَ بهجةٍ مازال تُنْبِى
بأن خلاصةَ « اليَازْجِىّ » نِدٌّ ... سَمِىٌّ للندا بصحافِ سحب
أتاهتْ فى بديع الفنّ منها ... دهاةَ الفنِّ من عجم وعُرْبِ
وكم شبَّت لقطف لم تنله ... فحول العزم من كهل وشبّ
رعاك الله زهرةَ صُبْحِ عصر ... سَرَتْ نفحاتُه فى كل قُطْبِ
أقول لعاذلى : دَعْنِى فعذرى ... أنا العُذْرِىّ فى « الذَّلْفَا » بحُبِّ
فأنَّى لى الهجوعُ ومَنْ لصدرى ... بِرَدِّ وَلُوعِهِ وسكونِ شبِّ ؟
وكيف لمهجتى سلوان ذِكْرٍ ... جَرَى مجرَى الحياة بكهف لبى
أخاطب طيفَ « وردة » وهى وِرْدِى ... إذا اشتدَّ الأُوام ولم يهن بى[3]
إلى ناد حباه لها أقرت ... بقسط الإعتراف بغير ذنب
ولم أرَ عينَها باللحظ ، لكن ... رأيت خيالَها فى عينِ قلبى

---

(١) ، (٢) هكذا الأصل

(٣) فى المخطوط : يهنى .

بأبكار الفنون خُلِقْتُ صَبًّا وما تحت البراقع ليس دابى
تَمَحَّضَ ودّها عندى فإنى به مازلت « عائشة » وربى
أهيم بذوقه شغفاً وقولى : أباحتْ عشقَها « ليلى » بقلبى

* * *

٥٢ — وقالت (من المخطوط) :

ماشَنَّف الساق للندمان راحات ما طيّب الأنس للخلان أوقاتا[1]
لك البقاء ومن تَهْوَى فعِشْ بهجا فليت صبرى بوادى الهجر قد ماتا

* * *

٥٣ — وقالت فى دعوة اقتران (من المخطوط) :

صبح المسرة نورُه قد لاحا والأيْكُ غَرَّدَ بالسرور وصاحا
وهَزَارُ أنس الحفل رَوْنَقُه غدا طَرِباً بدعوة شوقه وَضَّاحا
فتعطفوا بإجابة وتكرَّمُوا وهَبُوهُ بالشرف البَهِىِّ براحا
بعزيز طلعتكم يضىء سعودُه وينال فوزاً الاقترانُ نجاحا
وبشائر الأفراح عقباها لكم فأشارَ نجمٌ بالسَّنَاء ولَاحا

* * *

٥٤ — وقالت تهنئ السيدة زينب فوّاز بكتابها الدر المنثور — من المخطوط — :

سجدت « لِعزَّةَ » بالبطيح فحول لمَّا تَبَدَّى جيدُها المَصْقُولُ
لمَعَتْ لآلِى العقد تزهُو نَضْرَةً كصفا جَبِينٍ راقَ فيه شَمُولُ[2]
دَعْنِى وما التقطوه من بَحْرٍ طَمَا مَنْ قالَ ذا نِعْمَ المتاعُ جَهُولُ
هذا هو الدُّر الذى غوّاصه بعزيز آيات الثنا مشمول
إذْ ذاك من صَدَفٍ ، وهذا جوهر لفظَتْه أذهانٌ ذكَتْ وعقُول

---

(١) هكذا الأصل

(٢) فى المخطوط : نضارة ، بدلا من : نضرة .

دُرّ كَدُرِّيّ زَهَتْ أنواره ... يشهد بها المعقول والمنقول[1]
هَنِّى ذوات الخِدْرِ بالقَدْر الذى ... يعلو على سُحْب البَهَا ويطول
ولقد علت طبقاتهنّ وزانَهَا ... بتفاخر بعد الخمول قَبُولُ
طبقات مَنْثُورٍ بريق ضِيَاؤها ... كشعاع شمس بالسُّهَا مَوْصُولُ
كم أمطرت غَيْث الدموع بقولها ... قصر الفخار وهل إليه وصول ؟
نالت سواعد عزّها ما لم يكن ... رُؤْياه فى سِنة الكَرَى مأمول[2]
لِلّهِ دَرّ طِبَاق « زينبَ » أصبحتْ ... بَدْرًا لهُ بينَ الأنامِ هُلُول
قد أسفرت عن أصل جوهر عفةً ... قد كان قبل وجودها مجهول[3]
فعلى العفيفات الثناء لفضلها ... مَا جُدِّدَتْ فى الخافقين فصول[4]

* * *

٥٥ — تهنئة قدوم — من المخطوط — :

لاحَتْ بمصر لوامِع اللألاء ... وتكمَّلتْ عَيْنُ المُنَى بِبَهَاء
وقد انجلت شمس الضحاء وأشرقت ... بعد لَمَغِيب بِغُرَّةٍ وَسَناء
ياصفو قل للبِشْرِ عند قدومها : ... أَهْلاً بسارية الصَّبا الغرّاء
كم أهدر الأحْدَاقَ حرّ فِرَاقها ... كم ذا أراقت أدْمُعاً بدماء
كم نوَّرَتْ عند التلاقى أعيُناً ... واستبدلت ظُلَمَ النَّوى بضياء
هى ربَّة العزّ الرفيع وَدَوْحُه ... هى شامة للفوز والعليـاء
يُبْقِى الإله بَهَاءَهَا وَسَناءها ... ما لاحَ إشراق بأُفْقِ سماء
أُهْدِى رفيعَ رِحَابِ دولةِ عِزّهَا ... ما دمتُ « عائشةً » بخيرِ دعاء

* * *

---

(١) ، (٢) ، (٣) هكذا الأصل .
(٤) فى الأصل : الفيفات ، بدلا من : العفيفات

٥٦ — وقالت أيضاً (من المخطوط) :

قَبِلْتَ رَجَاءَ بِوَعْدِ الأَمَلْ وَوَعْدُ الكريم قَرِينُ العمل
عزيزُ ختامِكَ فى نَقْشِه ثَبَاتُ الوفاء وَمَحْوُ الْمَطَلْ

* * *

٥٧ — وقالت أيضا فى تاريخ وفاة موسى بك (من المخطوط) :

لَحَدُ الأمير مشوَّب بالنور زُرْ واهْدِ صالح روحه بالطور[1]
«البيك موسى» قد نفى دار الفنا وَسَعَىٰ لروضة خُلْدِهِ المعمور
قد طالما جَدَّتْ بهِ آلامُهُ وهو الصَّبور بسعيه المشكور
سمع النداء بِأَرْجِعِى مَرْضِيَّةً فأجابه طَوْعاً بكلِّ حُبُور
جَوْهَرْتُ أرقام الرَّحِيل مُؤرخاً : جَنَّاتُ عَدْنِكَ تُوِّجَتْ بِسُرُورِ

* * *

٥٨ — وقالت أيضا (من المخطوط) :

بحدائق الأبشار لاح بريق وسما بأرجاء الوصال عَبِيق
وتمهد النادى بذيَّاك الشَّذَا وقد اكْتَسَىٰ بالنَّدِّ كُلُّ وَرِيق
وَتراهَنَتْ أكوابه سَعْياً وقد سَبَقَ المصفَّى لُؤْلُؤٌ وَعَقِيق

* * *

٥٩ — ما سُطر على الثياب (من المخطوط) :

الثوب سترك لا تقل ببهائه حُسْنِى الْتَحَفْ
فجواهِرِ الْحُسْنِ البَهِى هِمَمٌ وَذوقٌ وَشَرَفْ

* * *

(١) الأصل : زور واهدى صالح روحه بالطور .

٦٠ — مثله (من المخطوط) :

ثَوْبُ العَوَافِي مثمنٌ لو كان من قطن وَشَاشْ
ما كان يُلْبَسُ فِي الهَنَا فقماشه أغْـــلَى القماشْ

* * *

٦١ — تهنئة بعيد لأحد الأكابر (من المخطوط) :

بسعدك العيدُ قد ضحكت نواجذه مُذْ عَمَّ إقْبَالُكَ العالى ضَوَاحِيه[1]
أتَى رِحَابك للتشريف مُلْتَمِساً فَحَيِّـهِ بالتفاتٍ مِنْكَ يُحْيِيه
لا زال عطفك مشهودًا ولا برحت أخصام عليك من كمد أضاحيه[2]
فالعيدُ من لامعات الفخر مقتبسٌ ثغر الأمانى بما نالت تهنِّيه
لازال أمرك فوقَ السُّحْب نَيِّرُهُ والسعدُ فى بُرْجِهِ بالطَّوْع يلبيه[3]

* * *

٦٢ — تهنئة لوالدة فخامة « الخديوى » مُذْ عادت من « الآستانة » :

فى طالع السعد «بامصر» المُنى ابتهجى وكَلِّلِى رايةَ الأفراح بالبَلَجِ
ويامَعَـــانى الهنَا كُونِى مُهَنِّئَةً وَياسعودَ[4] الصفا دُومِى ولا تَعُجِ
سَمَا سَنا البِشْرِ عَمَّ القُطْرَ أجْمَعَه حتى غدا الشرقُ يستغنى عن السُّرُجِ
ياشرق قد أشرقت شمسُ السعادة فى أُفُقِ الجلالة فاسمو وَازْهُ وابتهجِ
نالتْ مليكتُنا العلياء منزلَةً خُصَّتْ بها يالَها فِى أرْفعِ الدَّرَجِ
مُرَصَّعٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الخِلافةِ قد تلألأ الكونُ من إشراقه البَهِجِ
عادت أعادت إلى الأوطان بهجتَها واسترجعتْ راحة الأرواح بالمهَجِ
عادت أعادت إلى الأوطان رفعتها وأثبتت دائمَ الإقبال بالحججِ
ترنَّحَتْ شامخات الصَّخْرِ من طَرَبٍ ومَاتَ كلُّ حقُودٍ منهُ بالفلَجِ

---

(١) ، (٢) ، (٣) هكذا الأصل .

(٤) الأصل : وسعود .

وأعلنت صامتات السهل قائلةً : ياسعدُ شر لسعيد العصر واختلج
وعزة الدولة الغرّاء آمنـــة من صولة الدهرِ لا تخشى من الحرج
مناقب العزّ فوقَ السُّحْب قَدْ سَطَرَتْ آياتِ فضلك تستجلى لكل نجى
مَا رَبّة الجاهِ لَوْ جَادَتْ لِمَقْدَمِهَا عِبَادُ عطفك بالأرواح لم تَعُجِ
يا قطرُ قل مُعْلِناً : أَهْلاً بنجدتنا ، أهلاً بِعَوْدِ المُنَا وَالْعِزّ والْفَرَجِ
تخلدت بسماء الصفو دولتُهَا ماعطّرَ الزهر وادى الشرق بالأرَج
مادمتُ « عائشةً » فى ظِلّ ساحتها أتلو الثّنَا بلسانٍ مخلصٍ لَهِجِ
وَمُذْ غَدَتْ بعظيم اليُمْن مُقْبِلَةً يَاقُطْرُ أَرِّخ : دَوَامًا خير مبتهج

١٣١٢ هـ

* * *

٦٣ — وجدت القصيدة السابقة فى ورقة أخرى من المخطوط معدلة مهذبة ، ونحن نثبتها هنا للموازنة ، ونشير إلى أن هذه الورقة الأخرى ليست بخط الأوراق التى تضمنت القصائد المخطوطة :

يا « مصر » فى طالع « العباس » فابتهجى وكلى غرة الأفراح بالبَلَج
سَنَا سماء الصفا عمتْ أشعتُه حتى زَهَا القطر واستغنى عن السُّرُجِ
ياشرقُ قد أشرقتْ شمسُ السعادةِ من دار السعادة فاسمُ اليومَ وابتهجِ
نالتْ مليكتُنا العليـــاء منزلةً حَاكتْ نجومَ العُلاَ فى أرفع الدَّرَجِ
نالتْ وسامَ عُلاً يزهو مرصّعُهُ من الخليفة فى إشراقِهِ البَهِجِ
« عبد الحميد » أمير المؤمنينَ ومَنْ زانَ الممالكَ زَيْنَ العين بالدَّعَجِ
مازال يمنح « عباساً » وشيعَتَه فضلاً يُبَارى عُبَابَ البحرِ واللُّجَجِ
عادتْ فعادتْ إلى الأوطانِ مهجتُها واسترجعتْ راحةَ الأرواحِ للمُهَجِ
عادتْ فعادتْ إلى الأقطار رفعتها وأثبتتْ دائمَ الإقبالِ بالحجَجِ
تموجتْ شامخاتُ الصَّخْرِ من طَرَبٍ ومات كلُّ حقود منه بالفلَجِ
وغُرّةُ الدولةِ الغرّاء آمنـــةٌ مِنْ صَوْلَةِ الدهر لا تخشى من الحرَجِ

يا ربةَ العز يَفْدِيكِ الأُلَى طَمَحُوا ... لبـاب عِزِّكِ من فَرْدٍ ومُزْدَوج
أقمارُ فضلكِ تُجْـلَى كلَّ آونةٍ ... كما تجلتْ بدورُ الأفقِ فى البُرُجِ
يا قطر قل معلناً : أهلا بنجدتنا ... أهـلا بعـود المُنَى والعزِّ والفرجِ
دامتْ لنا فى سَمَاءِ العزِّ دولتُها ... مَا عَطَّر المَدْحُ قطر النيلِ بالأَرَجِ
مادمت « عائشة » فى ظل ساحتها ... أتلو الثنا بلسانٍ مفصحٍ لَهِـجِ
وإذْ غدتْ فى ثيابِ اليُمْنِ رافلةً ... بالقطر أَرِّخْ : دَواماً خيرَ مبتهِجِ (١)

١٣١٢هـ

* * *

٦٤ — وقالت فى زفاف « نعمة هانم أفندى » (من المخطوط) :

« بنعمة » السعد هَنِّى الشرقَ هَنِّيه ... قد نال حقًّا كما يرجو أمانيـه
طوبىٰ لعصر إذ « العباس » نَيِّرُهُ ... وطالعُ المجـدِ بالبشرَى يناجيه
لا زال طَالعُه الدُّرِّىُّ كوكبه ... فى دولة السعد بالآمال يهـديه
رُوح المعالى ازدهت فى بدر شوكته ... ورونقُ االفوز سامى المجدِ عاليه
فيالها نعمـةً ما نالها أحدٌ ... لها الجميـلُ قرينُ العزِّ ساميه
كواكب السعد فى صَحْو قد انتظمت ... نالت من الفخر ما جَلَّتْ معانيه
قد قلد الـكونَ إشراقاً زفافُهما ... وشَمَّرَ الأنسُ عن ساقَىْ مساعيه
وباتَ معنىَ الصفا يهدى لنا نعما ... والجـاه تُوج بالإسعافِ ساعيه
قالت ليالى الهنا : أهلا ببهجتنا ... تقلَّدَ الشرقُ أفراحاً وَمَنْ فيه
قدم السـعود مبارٍ والمنا بسم ... واليُمْنُ من مشرق الإقبال تاليه (٢)
وشمس دولتنـا بالأفق آمنةٌ ... قد زاد بالنور زهواً فى تجليه (٣)
فعزة الشأن والإجلال لا برحتْ ... فى غُرَّةِ الدهر ترقينا معاليـه
وبارك الله فى « عباس » دولتنا ... ما جَسَّ أُنْسُ الصفا طَرباً مثانيه (٤)
ومجد إقباله ما زال ينشـدنا : ... « بنعمة » السَّعْد هَنِّى الشرقَ هنِّيه

---

(١) فى الأصل : فالقطر (٢) الأصل غير واضح . (٣) فى الأصل : و . بدل : فى
(٤) هكذا الأصل .

٦٥ — وقالت (من المخطوط) :

يا « مصر » لاحَ على سمائك نورُ ... وسما له فى الخافقيْنِ سرورُ
فتتوَّجِى شرفاً وتيهى نشأة ... لاح السعودُ المقبِلِ المشهورُ
لله ما أدَّى الفخار لا كلى ... بقدوم « فاطمة » وعم سرورُ[1]
لبتول فخر الكائنات شجيَّة ... بِوُجودها فوزُ الزمان فخورُ
قد ضاعف السّعد الجلىّ بشارةً ... إقبال شمسٍ واقتران بدور[2]
دامت لدولتها المسرةُ والهنا ... ما غردت فوق الغصون طيور

***

٦٦ — وقالت (من المخطوط) :

آلُ العلومِ لأحداث المنى نورُ ... وفضلُهم بسماء النور مشهور
لا زال إرشادهم مصباحَ رونقنا ... وسعيهُم بفم الأرواح مشكور
الله فى معشر أغنت مناطقهم ... عن كل دُرّ بجوف الدوح مذخور
نور العلوم قد استثنى بصائرهم ... وبات يتلو لها : نور على نور
قلبى فَرَاشُ هُيَامٍ فى أشعتهم ... لكن عينى بحصن الخِدْر ماسور
هَزَارُ شوقى وإن جلتْ مَرَاصِدُه ... جناحُه من هبوط الجدّ مكسور
فكيف أشكو حرى ظمأ بزاويتى ... وبحر علامة الإفصاح مشهور[3]

***

٦٧ — مرثية العالم العلامة المرحوم الشيخ شمس الدين محمد الإنبابى (من المخطوط):

إياكَ أن تبتهج بالعيش إيا كا ... ما دام كأسُ الفنا فى كف دنيا كا[4]
قل للذى أغمضت عينَيْه غَفْلَتُهُ ... فزع المنايا بِفَقْدِ الروح أضحا كا[5]
روح لقلب مُتُونِ العلم قال له ... فَمُ الصحيحين : ضاع العلمُ لولَا كا

(١) ، (٢) الأصل غير واضح .
(٣) ورقة هذه القصيدة تدل على أنها كانت مسودة يعوزها إصلاح الوزن وبعض التهذيب .
(٤) ، (٥) : هكذا الأصل .

« محمد » أنتَ شمسُ الدين ، وانتقلتْ تُضَاعِفُ النور فى أرجاء مأواكا
قد كنتَ فى الشرق مصباحاً فأطفأه ريحُ الفناء فكف النور من ذاكا
تُتْلَى مآثرُكَ العُظْمَى وترْفَعُ فى أحداقِ شوق هَمَتْ دَمْعاً لمرآكا
تَقَرَّا مناقبَ عليك الدهور على آذانِ أزمانِهَا فَخْراً بتقواكا
مصباحُ إسلامنا مشكاةُ تقوانا نُعماكَ من نَيِّرٍ فى الشرقِ نُعماكا
قد أوسعَتْنَا دروسُ الفقهِ تعزيةً وكلٌّ من فى نعيم الخلد هَنَّاكا
« جمع الجوامع » قد أمسَى يبدِّد فى مسائلٍ مالها فى الحلِّ إلَّاكا
وحَقَّ فضلك قد شقَّت مرائرنا وأنت مستبشر ، « رضوان » ناداكا
آلُ الجنان تقول اليوم مفصحة : يا خلدُ بشراكَ بالأبرار ، بشراكا
كُتْب العلوم رثتكَ اليوم نائحةً علَّامةَ الدهر عَيْنُ الدهر تَنْعَاكا
وبات « أزهرنا » بالحزن متشحاً لما عَدَلتَ إلى الفردوس مَسْعَاكا
يا شمسَ إيماننا يا بدر حجتنا لا يهدأ الحزنُ إلا يوم نلقاكا
يا ألف حسرة نادى عند محمله تاقت إلى اللحد أنفسنا وإياكا
وكل قلب قد انفطرت حشاشته لو كنت تفدى بها حيًّا لفاداكا
وقد أضَعْنَا جميل الصبر مغتصَبا منا بيوم نَوًى فيه أضعناكا
يا جَفْن غِثْنَا بطوفان الدموع وإن بكيت رضا فما أكرمت مثواكا
من بعد فَقْد فقيه العصر وَاحَرَباً إياكَ أن تبتهج بالعيش إياكا[1]

* * *

٦٨ — وقالت تهنئ بالعيد :

من كوكب الإقبال لاحَ سعودُ سَحَراً وعمَّ ضياؤه المشهود
وتبلَّجت درر العلا وتبرَّجَتْ وتنظمت من حسنهنّ عقود

---

(١) فى بعض الأبيات يختل الوزن كما رأيت ، وفى الأصل غموض فى بعض المواضع .

وتلألأت فى الأفق أقمار الهدى ... وتفتحت فى الروض منه ورود
نور له فى الخافقين توهّج ... ويروق للأبصار منه شهود
والعيد أقبل والمسرة أشرقت ... وبدا إليك سرورُه المعهود
الله أكبر عيدُ مجد مقبل ... شَغفاً ويوم بالهنا مسعود
عيد بيُمنِكَ قد بدت آياتهُ ... والعيد إنْ تكُ فيه فَهْوَ سعيد
لما غدَت أيامُكم غُرَرَ الْمُنَى ... وافَى ليَشْرُفَ باللقاء العيدُ
والدهرُ يَجْهَرَ بالتهانى قائلا : ... نلت السعود وسرك التأييد
مُتِّعْتَ ما هَبَّ الصَّبا ويكون فى ... أضعاف أمثال له التعييد
وبدا بك الإسعادُ والإفضالُ والـ ... إقبال ، كلٌّ فى حِمَاكَ عَبِيدُ
يا من سَرَتْ فى العالمينَ صفاتُه ... أنتَ الْمُنَى والعَوْنُ والمقصودُ

الشعر العائلى

(أ) تتحدث عن نفسها

٦٩ — قالت :

يا مَنْ أتَى لِلْجسم يُبْرِئُ سُقْمَهُ ... وَيظنُّ « جالينوس » بعضَ عبيده
أفنيتَ بالطبِّ الذى تَهذِى به ... أمماً وَقرَّبتَ الرَّدى ببعيده
وَزَعَمْتَ أنَّكَ أنتَ قد جدَّدتَه ... وَلقد أضَعْتَ قديمَهُ بجديده

* * *

٧٠ — ولها وقد أصابها رمد سرى ألمه فى الجفون :

إذا شكَتِ الورَى سُقمَ العُيون ... فإنى أشتكى ألمَ الجفُونِ
أبيتُ كوَالِهٍ أضناهُ وَجْدٌ ... أُنادِى مِنْ جُفونى مَنْ جَفُونِى
فلاَ جَفْنٌ يُطاوِعُنِى فأبكِى ... وَلا صَبرٌ أُزيلُ بهِ شُجُونى

* * *

٧١ — وقالت :

وَالله ماهِمْتُ حظًّا بِاسمِ داعِيَةٍ ... إلاّ وَأُعْقِبْتُ فِيها الهمَّ من أسَفِ
وَلا سَعَيْتُ بِأقوَى العَزْم فى أرَبٍ ... إلا رجعْتَ طَرِيحَ الأرضِ فى دنَفِ

* * *

٧٢ — وقالت وقد شفيت من رمد :

سَفِينةُ العين قد فازَت منَ الغرَقِ ... وأشرَقتْ تزْدهى مِن ساحِلِ الحدَقِ

مَرَّتْ مُشَيَّدَةً ما مَسَّهَا لَغَبٌ شفَّافُ منظَرِها فى أحسَنِ النَّسَقِ
وَنورُها ضَاحِكٌ تبْدُو بَواجزُه لما تَنَفَّسَ صبحُ الصَّحْوِ عن شَفَقِ
قد ضَمَّ بِالشَّوْقِ محبوباً يُعَوِّذُهُ منَ الوُشَاةِ بربِّ النور وَالفلَقِ
فيَاوُلاةَ الهوَى فى صِدْقِكم شَغَفى إذْ أننى مِن ذُهُول الوجدِ لمْ أُفِقِ
بكعبةِ الحسن إنساناً أرَى فَسَلُوا عينى الَّتى طالما ضَلَّت مِنَ الغَسَقِ
وَخبِّرُونى أإنسانى صفَا وَدنا لِمُسْتَهامٍ رماه البَيْنُ بالأَرَقِ
نعم ببشر اللّقا نَهْدِيكَ أنفسنا وَقَد دنا وَصْلُ مَن تهواهُ فاستَفِق
أهلاً بنور عيون راقَ لى وَصفا مِن بعدِ يأسى وطولِ الخوف وَالْفَرق
فيا تحياتِ بُرْءٍ شُهْدُهَا بفمى حَلَّى مرارةَ تسهيدى من القَلَقِ
بأىّ قولٍ أُحَيِّيه وَعزّتهُ عَزَّتْ منالا فلم تدرك لمستبق ؟
لكن ضميرُ النهانى غَيْرُ مستترٍ وَنور أنسى بدا للنّاس كالفَلَقِ
وَذا الرّشَا مذ نشا فى حسنِ طَلعتِه كانت منازلهُ شفّافةَ الحَدَقِ
إنسان عَين المُفَدَّى أنت لُحْتَ بها لا أَوْحشَ اللهُ من إحسانك الغَدِقِ
آليتُ لما سُقِيتُ السُّمَّ فى سَقمى وَأحوَجَتْنى لَياليه لِكلّ شَقِى
لا أشتكِى لوْعتى إلاّ لمن هُوَ لى فى كلّ ضَيْمٍ وَضَيْرٍ بِالْعُيونِ يَقِى
وَقَدْ مُنِحْتُ بِنُور منْكَ مقْتَبَسٍ برَّتْ يمينى وَكان الصّدْقُ منْ خُلُقِى
ملَّت ليالى مصابى من جوًى وَأسًى وَحَمَّلْتنِىَ أثقالاً عَلَى عنُقِى
فَادتْ زِمامِى لكهْفِ السُّقْمِ وَاسْتَنَدَتْ ببابِهِ أشهُراً طالتْ فلم أُطِقِ
كأنها ضَرَّةٌ قَد ضَرّها رَفَهى بالْقربِ منْك فجابتْ أسْوَأَ الطرقِ
فهل نوَتْ طُهْرَ أحقادٍ تواريها بسَيْلِ دمعٍ من الآماق مُنْدَفِقِ
لما استغثتُ بفضلِ الله يسّرَ لى أكْحَالَ صبرٍ أقالتْنِى من القَلَقِ

وَرَدّكَ اللهُ نورَ المقلتَين عَلَى ... صبّ بغيْرِكَ هادٍ قطّ لمْ يَثِق
كم دُقّ عظمى بِأسقامٍ تغادرنى ... كإثمدٍ لعُيونِ الْعَينِ منْسَحِق
كم قلتُ فى مِحْنَتى : يا رَبّ خذ بيَدِى ... وَاكشِفْ سَقَامى وَجُدْ بِالنوْمِ لِلأرِق
فبالصّغيرَيْنِ أهْدِى الشكْرَ معترِفاً ... لخالقى ما صفَا الْبَدْرَان بِالأفق(١)

* * *

٧٣ — وقالت أيضاً :

بِأَلْفَىْ مَرْحَبٍ حَيَّا لسانى ... وأهلا ، قال فى صدرى جنانى(٢)
فعودى يا أويقاتى وَهَنّى ... لقد عاد الهنا بعدَ التوانى
ويا حُلْوَ السلام لعهد « سَلْمَى » ... صفتْ للعَيْنِ مرآةُ العِيَانِ
فمن هَنّى يُهَنّينى بعينى ... فنورُ العين عادَ مَعَ الأمانى
وها إنسانُهَا يا آلَ ودّى ... لطلعتكم بنور الشوق رَانِى
يحييكم بشهْدِ الأنسِ عَنّى ... فَهَنّوا بالسلامةِ والأمان
لوامع نَيِّرات كان قَلبى ... لِشَوْقِ ضيائها وَلهاً يعانى
حياتى فى تحياتى لنور ... بماء حياته صبحاً سقانى
نعيمى نعمتى عزّى عزيزى ... وليلى مرشدى سُبُلَ التهانى
ببعدك والذى كابدْتُ فيه ... وما لاقيتُ من ضَيْمٍ دهانى
وغيبتك التى أفنتْ وجودى ... وألقتْ فى غَيَابتها عِيَانى
سرورى باللقا ونعيم قربى ... أعاد بعودك الميلادَ ثانى
لقد أرغمتَ كلَّ طبيب سوء ... أضاعَ بِهَزْلِهِ طول الزمان
وقالوا : مات ، قل : مُوتوا بغيظ ... فَجُلُّ القصد حَيًّا قد أتانى
وَجَدَّدَ بالوصال حياةَ روحى ... أعَوِّذُه بآيات المثانى
فَدَعْنِي يا خَلِي والخلَّ نَخْلُو ... وَنَكْحَلُ بالثنا جَفْنَ الأمانى(٣)

---

(١) فبالصغيرين ، تعنى : القلب واللسان ، ومن المأثور : « المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » .
(٢) فى الأصل المطبوع : بألفى مرحباً (٣) فى الأصل المطبوع : نحلو ، بدلا من : نخلو

لمرآةِ الجمال ووجهِ بَدْرٍ دعانى « يوسف » الثانى دعانى
وقد أعددت مافى الكفّ طُرًّا لمن بقميصِ بُرْئِى قد حبانى
حبيبى بالذى أعطاكَ نوراً تَقُودُ بهِ كما ترضَىٰ عِنانى
وذاكَ النور من مِشْكاةِ فضل به لسبيل مقصودى هدانى
لقلبى إن سَلاكَ صَلىَ بنار بها تَكْوِى حشاشاتى بَنَانِى
ولولا الصبرُ جُدتُ ببذل روحى لمن حَيَّا بقربك والتدانى
ولم أبخَلْ بها حُبًّا لعيش وعيشُ المرء مهما طال فانى
وقد مرت على المُضْنَى شهور يعانِى من فراقك ما يُعانِى
ولكنى وَدِدْتُ العيشَ كيما أراك كما تَرَى غيرى ترانى
فيامَنْ قد بَلَوْتَ بِعادَ خِلٍّ ويا من قد شَقِى شَوْقاً سلانى
أبُعْدَ الحِبِّ تَرْضَى أم يوارى فقول الصدق يهديكم بيانى
أموت ومقلتى ترأى عزيزى ويغفر زَلَّتِى من قد بَرَانِى
بسطتُ بالابتهال أكفّ حمدى لمن باللطفِ عن كفٍّ وقانى[1]
إذا يَئِسَ الطبيب وكَلَّ عنى بِقُدْرَتِه بما أرجُو حَبَانى
ولستُ ببالغٍ مقدارَ شكرى لَوَ انَّ جوارحى سبقتْ لسانى
سأضرَع بالشفاء لكلِّ خلٍّ لمن ما دمتُ « عائشةً » شفانى

* * *

٧٤ — وقالت مستغيثة :

أتيتُ لبابك العالى بذُلِّى فإن لم تَعْفُ عن زَلَلِى فمن لى ؟
مقرًّا بالجنايةِ وامتثالى لأسر النفس فى عَقْدى وحَلِّ
ومعترفاً بأوزارٍ ثِقالٍ أفاد لحملها طوعاً لجهلى
أقرّ بزلتى من قبلُ كى لا تقرّ جوارحى بالذَّنْب قبلى

(١) الكف : تقصد به فقد البصر .

أتيت ولى ذنوب ليس تُحْصَى ... أقول لراحمى بالعفو كُنْ لى
ولم أُعْـــدِد لذاك الحىّ زاداً ... إذ الأظعـانُ قد قامت بحملى
ولم أُصْحَبْ خلوصًا لارتحالى ... يقودُ عنانَ تسويحى وضلى
وكم طاف الغرور براح عُجْب ... عَلَىَّ ولم أفق من فرق خَبْلى
وهمت بغفلتى فى عيب غيرى ... وها أنا مَحْفـــل للعيب كلّى
ضَلَلْت عن السبيل ولم أحله ... وهل يبدو الرشاد لعين مثلى ؟
سعت نفسى بأن أمشِى مُكِبًّا ... على وجهى لطاعتهـــا فويلى !
هدانى ناصحى فازددت غَيًّا ... وقلت لمرشدى بالزجر : وَلِّى[1]
أراك بِلِمَّتِى يا شَيْبُ عِظْنِى ... وقل : حان الرحيل غداً لَعَلِّى
فأول ما ترى جَـدَث مهول ... تُهِيلُ ثراه كفُّ أخٍ وخِلّ[2]
وقد رجعوا كأن لم يعرفونى ... وهم نَسَـبى وأبنـائى وأهلى
وتشتغل البنونَ بِقَسْمِ مالٍ ... أنا بسؤاله فى عُظْمِ شُغْلِ
فأنت لِوَحْـدَتى ولـكل عاصٍ ... له رُحْمَاكَ من بَعْدِى وقبلى

* * *

٧٥ — وقالت وقد عاد الرمد :

أسالَ مُسَلْسَلُ السُّحْب العوالى ... فَرَوَّى شِعْبَ «مكةَ» «والعوالى»؟
أم الآفاقُ قد ملئتْ عيونا ... فأغرق نَبْعُها شُمَّ الجبال ؟
أم « العباس » فى قومٍ عطاش ... قد استَسْقَوْا بذلّ وابتهال ؟
عهدتُ الغيثَ يُنْعِشُ كلَّ روح ... ويُحْيِى النفسَ بالماء الزُّلال
طَغَى ماء الجفون وما دنتْ بى ... سَفِينُ الشوق مِنْ جُودِى الوِصال

---

(١) فى الأصل المطبوع : « غبا » ، بدلا من: « غيا »
(٢) فى الأصل المطبوع : « حدث » بدلا من « جدث »

وقد أصبحتُ فى بحر عميق ... من الظلماء مجهودَ المَلَال
ضَلَلْتُ بليل أسقامى طريقى ... إليكم سادتى فَانْعَوْا ضلالى
قضيتُ بكم ليالىَ مقمرات ... فَلِمْ قد أظلمتْ هٰذى الليالى ؟
وكان الدهر ملتفتاً إلينا ... وهاهو مغمض الأجفان قالى
فواأسفى على إنسان عينى ... غدَا فى سِجْنِ سُقْمٍ واعتقال
حُجِبْتُ بسجْنِهِ عن كلِّ خلٍّ ... وصرت مخاطباً صور الخيال
أإنسَانَ العيون فدتكَ روحى ... يهون لعود نورك كلُّ غالى
أترضى البعدَ عن عَيْنَىْ أليف ... أضَرّ بعزمه ضيقُ المَجَالِ
أذبت حُشاشتى فزَعًا وَرَوْعًا ... شَغَلْتَ بأسوإ البلبال بالى
بِمَنْ جَعل العيون أجلَّ مأوى ... لحفظك أيها الباهى الجمال
حياتى بعد بُعْدِك لا أراها ... سوى سَكرات نَزْعَاتٍ ثِقَال
وكيف أعدُّ لى روحا تُرَجَّى ... وشمسُ الرُّوح مالت للزوال ؟
غدوتُ بِفِرْقَةِ الفُرْقان صَبّا ... أسائل فى التلاوةِ كلَّ تال
ولولا أن حفظَ النصف منه ... شَفَى قلبى لَذُبْتُ مِنَ اشتعالى
لَعَمْرِى « لِلْحَدِيثُ » حياةُ روحى ... وراحةُ مهجتى ونفيسُ مالى
وكم فى الفقه من دُرَرٍ تَحَلَّت ... بها فِكَرِى ومِن دُرَرٍ غوالى
أَمَسُّ الكُتْبَ مِنْ شَغَفِى عليها ... وأَبْلَى حسرةً من سُوءِ حالى
وأندُبُ مهجتى حَيًّا لأنى ... حُرِمْتُ بدائعَ السِّحْرِ الحلال
تمسُّ المصحفَ الأسمَى يمينى ... وقد وُضِعَتْ على قلبى شِمَالِى
وأُنْشِدُه لِآيكَ طال شوقى ... وما لى غَيْرُها عزٌّ وما لى
كلامك فى الحياة وبعدَ موتى ... وفى يوم التغابُنِ والجِدَالِ :
غذائى ، راحتى ، نورى ، أنيسى ... دليلى ، بهجتى ، أملى ، كمالى
فراقك صَدَّنى عن كلِّ قصد ... وقد مرَّ المَذَاق لكل حالِ

فكيف أروم بعد اليوم ربحاً ... وأيامى ذهبنَ برأس مالى
ولكنى أرَى فى الصبر طِبِّى ... ومُكْحُلَةُ الجَلَا حسن امتثالى
فيا إنسانَ عينٍ غاب عنها ... وبدَّلنى به طولَ المَلَال
عسى ألقاك مبتهجاً معافًى ... وأصبح منشداً : أمَلِى صَفا لى
لتهنأ مقلتى بسنا حَبيب ... بديع الحسن محمودِ الوِصالِ
وأنظم أحرفى كالدرّ عِقْدًا ... به جِيدُ الصحائف عادَ حَالِى
فربى قادر بَرّ رحيم ... يجيب بفضلِهِ السامِى سؤالى

* * *

٧٦ — وقالت استغاثة :

أين الطريقُ لأبواب الفتوحات ؟ ... أين السبيل إلى نيل العنايات ؟
أين الدليل الذى أرجو الرشادَ به ... إلى سَبِيلِ المعالى والهدايات ؟[1]
أين السلوكُ الذى أسرارُ لمحته ... مصباح نور لمِشْكاة المناجاة ؟
أين الخلوص الذى آثارهُ سبقتْ ... يوم الرحيل إلى دار السعادات ؟
كيف الخلاصُ، وأجداث الشَّقاوطنى ... وقد زمتنى بها أيدى الشقاوات ؟
كيف المسيرُ إلى أرض المُنَى وأنا ... بطاعة النفس فى قَيْدِ الضلالات ؟
كيف العدولُ بقصدِ السُّبْلِ عن عِوَجٍ ... أُفْضِى بِسَعْيِى إلى دار الندامات ؟
كيف الرحيلُ بلا زادٍ وراحلةٍ ... تحثّ سيرى لأرض الإستقامات ؟[2]
ولى حقائبُ بالأوزارِ مثقَلة ... وَعِيسُ كَدْحِىَ كَلَّتْ عن مُرَادَاتِى
فيا أُولى الحزمِ حُلُّوا عَقْدَ مشكلتى ... وكيف أبلغ أقطار السلامات ؟
عَتَبْتُ نفسى على ماضاع من عُمُرى ... فى ملهيات وغَفْلات وزلات
فخالفَتْ مقصدى جهلاً وما اتعظت ... ولمحة العمر وَلَّتْ فى الخسارات

---

(١) فى الأصل المطبوع : « سبل » بدلا من : « سبيل »

(٢) فى الأصل المطبوع : « تحت » ، بدلا من : « تحث » .

فلو بكتْ مقلتى للحَشْر ما غسلتْ ذنوب يوم تقضَّى فى الجهالات
ولو تبَدَّدَ قلبى حسرةً وأسًى على الذى مَرَّ من تفريط أوقاتى
لم يُجْدِ لى غيرَ دَقِّ الكفِّ من ندم على عظيم إساءاتى وغفلاتى
إن طال خوفى فقد أحيا الرجا أملى فى غافر الذنب خلّاق السماوات
فازَ المُخِفُّونَ واستَنَّ الثقاتُ إلى دارِ السلام وفردوسِ الكرامات
وكان شُغْلِى خضوعى ، زلتى ، أسفى ووضع خدى على أرضِ المَذَلّات
وطَوْعُ أمّارتى بالسوء قيَّدَنِى عن الوصول لغايات الكمالات
فلم يسعنى بأثقال الذنوب سوى ساحات غُفران عَلّام الخفيّات

* * *

٧٧ — وقالت :

مرارة الصبر خصت بالحلاوات وَجَدْتُ فِى مُرِّها حُلْوَ السلامات
صيانتى فى كهوف الصبر أمْنَعُ لى من حصن «كسرى» ومن أعماق «أغمات»
كم بات دهرى يرينى نَهْجَ تربيتى فينثنى بقبولى وامتثالاتى
وما احتجابىَ عن عيبٍ أتيتُ به وإنما الصونُ من شأنى وغاياتى
وكلما شبَّ دهرى فى مُعاندتى لم يَلقَ مِنّى لهُ إلا إطاعاتى
وكلما آدَنِى ظُلماً بمُثْقَلِهِ عدَلْتُ سيرى كما يرضى بمَرْضَاتِى
كم قابَلَتْنِى ليالٍ رِيحُهَا سَعَر بطيئةُ السير ترْمِى بالشرارات
لاقيتُها بجميل الصبر من جَلَدِى وَبِتّ أسْقِى الثَّرَى من غَيْث عَبْرَاتِى
كم أقعدتنىَ أيام بِصَدْمَتِها وقمتُ بالعَزْم مشهورَ العنايات
وكم حَلِيفَةَ سَعْدٍ إذْ تعنّفنى تقول : سَعْيُك مَذْمُومُ النّهايات
فأخْفِض الطَّرْفَ من حُزن أكابده وأهْمِلُ الدَّمْعَ من تلك المقالات
وكم لَصَقْتُ بأرض الظلم ناصيتى فقمتُ من سَجْدَتى أتلو تحيّاتى
وكم شكرتُ بفضل العدل عاذلتى إن أحسنتْ أو أطالت فى إساءاتى

وما منحت يوم قد أتى غلطاً ... بالأنس إلا وقامت فيه غاراتى
ومُذْ أتتْ عُذَّلى تبغى مُصادرتى ... ظُلْمًا مَنحتهمو أسْنى الكرامات
وكلما عَدَّدُوا ذنباً رُميتُ بهِ ... بسطتُ للعفو راحاتِ اعترافاتى
وكلما حرَّرُوا منشور مظلمتى ... وأثبتوا فى الورى ظُلما جِناياتى
أظهرتُ شكرى لهم بالرغم عن أسَفى ... وكان ما كان من فَرْطِ التهاباتى
ولم أفُهْ لِذَوى رَدٍّ لمعرفتى ... أن الحبيبَ حبيبٌ فِى المسرَّات
أقوم والضيم تطوينى نوائبُه ... طَىَّ السِّجِلِّ ولم أسْمِعْهُ أنَاتى
أخْفِى الأسى إنْ حَسُودٌ جاء يسألنى : ... لأيْنَ تَسْعَى ؟ وأُومِى لابتهاجاتى
إنْ ضَلَّ سَعْيِى فهادِى الصبر يرشدنى ... إلى طريق رشادِى واستقاماتى
ولم أزَلْ أشتكى بَثّى وَمَظْلَمَتِى ... لعالم الجهر مِنِّى والخفيَّات
عَلَتْ وُلاةُ الصَّفا أشْهَى نجائبها ... لتقنص الفوزَ من وادِى المودَّات
وَبِتُّ باليأس فى بطحاء مَتْرَبَتِى ... وكان شغلى لِضَيْمِى دَقَّ رَاحَات
أقول للصبر : لا عَتْبٌ على زمن ... أعطى لأبنائه أسمَى العطيات
فقال : مهلاً ولا تغررك شوكتُهُمْ ... فالصَّحْو يَعْقُبُهُ سُودُ الغمامات
فليس كل مَلوم دام مكتئباً ... وما السعيدُ سعيدٌ للملاقاةِ
فدهرهم غَرَّهُم جهلاً وما علموا ... أن الزمان قريب الإلتفاتات
فما توارت بُغاة الغم من أسَفِى ... حتى أناخوا بأجبالِ النَّكايات
تَذَكَّرَ الدهرُ عاداتٍ لهُ سَلَفَتْ ... وقد نَسُوها بحانات الخلاعات
وَرَدَّ دهرى سِهَام الحقد صائبةً ... إليهمُ فَغَدَوْا فى شرِّ حَالات
فما استطابوا أمانيهم ولا قنصوا ... حتى استوينا بكهف الإعتكافات
قال الدهاة : سهام الدهر قد وقعت ... من ذلك الجمع فى كَشْحٍ ولَبَّات
فقلت : أنْعِمْ بِهِ من حاذق فطن ... وإنه لحقيقٌ بالعدالات
ظَنُّوا الزمان أباحَ السعدَ طالعَهُمْ ... وَأنَّهُ اخْتَصَّ نجمى بالنحوسات

والصبرُ أشهدَنى ما كنت أغبطهُمْ ... عليه عاد اعتباراً فى العبارات

فَلَا يَهُولَنْكَ حِرمانٌ بُلِيتَ بِهِ ... ولا يَغُرَّنْكَ إقبالٌ غَدَا آتِى

كِلاهُمَا — والذى أنشاك من عَلَق — ... يَفْنىٰ وَيُعْدَمُ فِى بعض اللمَيْحَات

أَيْنَ الملوكُ الأولى كانت أوامرهم ... محدودةً كسيوف مَشْرَفِيَّاتِ ؟

تَمْحُو وَتُثْبِتُ مَا رَامَتْ وَمَارَفَضَتْ ... بين الأنام بأفوال سَمِيَّاتِ

قد أَحْكَمَ الدَّهْرُ مَرْمَاهُمْ فما لَبِثُوا ... حتى انْطَوَوْا فِى الثَّرَى طَىَّ السِّجِلاتِ

فكم مضى عزمهم فى عزّ سطوتهم ... قولاً وفعلاً بتسديد الرياسات

وكم سَرَى فى الورى منشورُ سلطتهم ... شَرْقاً وغَرْباً بِأَنْوَاعِ السِّيَاسَات

يؤوب بالعجز أقواهُمْ إذا أَلَمَّ ... بِهِ أَلَمٌّ وَيُبْدِى شَرَّ حَسْرَات

يَلوذُ ضَعْفاً بأذيال الطبيب وَمَا ... يُغْنى الطبيبُ لدى فَتْكِ المنيَّات

وَكَم لِفَقْدِ عَزِيز منهمو سُكِبَتْ ... مَدَامِعٌ كُنَّ بالنُّعْمَىٰ مصونات

وطالما أحرقَتْ حَسْرَاتهم كبِدًا ... تضعضعت منهُ أركان الشهامات

فلا تقل لى متاع وهْوَ عارية ... واليأسُ عندىَ راحاتُ استراحاتى

وقد بسطتُ أكفَّ الذلِّ ضارعة ... لخالق الخلق جَبَّارِ السموَات

وَبِتُّ أَدْعُو عَلِيمَ السِّرِّ قائلة : ... يا غافرَ الذنب جُدْ لِى باستجابات

يا كاشِفَ الضُّرِّ عن «أيُّوبَ» مرحمةً ... حِينَ استغاثَكَ مِنْ مَسِّ المَضَرَّاتِ

وصاحِبُ الْحُوتِ قَدْ أَنْجَيْتَهُ كَرَماً ... لَمَّا دعا بابتهالٍ فى الضراعات

أَنْقَذْتَهُ يا إلٰهَ العرشِ مِنْ ظُلَمٍ ... فظلمة النفس لاقته بإِعْنَاتِ

وَأَبْيَضَّتْ العين من «يعقوبَ» وانسكبَتْ ... حُزْناً على «يُوسُفٍ» فى فيض عَبْرَاتِ

وَمُذْ شَكا الْبَثَّ للرَّحْمٰنِ عادَ لَهُ ... نُورُ الْعُيون قَرِيناً بالمسرَّات

و «يوسف» السيد الصِّدِّيق حِينَ دعا ... فى ظُلْمَة السِّجْنِ من بعد الغيَابات

أَوْلَيْتَهُ الْحُكْمَ وَالْمُلْكَ العظيمَ كما ... آتَيْتَهُ العِلْمَ من أَسْنىٰ العنايات

وَمُذْ عَلِمْتَ بِإِخْلَاصِ «الخليل» غدا ... والنَّارُ مِنْ حَوْلَهُ فِى رَوْضِ جَنَّات

عادَتْ سلاماً و برداً بعد ما اشتعلَتْ ... ولم يَفِهْ من يقين بالشكايات
وقد رفعتُ يمينَ الذلِّ داعِيَةً ... إليكَ يا ربِّ أرْجُو غفرَ زَلاتِي
ربِّى ، إلهِى ، معبودى ، ومُلتَجَئِى ... إليكَ أرْفَعُ بَثِّى وابتِهالاتى
قَدْ ضَرَّنِى طَعْنُ حُسَّادى وأنت ترى ... ظُلْمِى ، وعِلْمُكَ يُغْنِى عَنْ سُؤالاتى
فامْنُنْ عَلَىَّ بألطافٍ لتُخْرِجَنِى ... مِنَ الضَّلالِ إلَى سُبْلِ الهِدَايات
أنْتَ الخَبِيرُ بحالى والبصيرُ بِهِ ... فافْتَحْ لهذا الدُّعا بابَ الإجابات
فكيفَ أشكو لمخلوقٍ وَقَدْ لجأتْ ... لَكَ الخلائقُ فى يُسْرٍ وَشِدَّاتِ
فيالها من جِرَاحٍ كلما اتسعت ... أعْيَتْ طَبِيبِىَ رَغْماً عَنْ مُدَاوَاتِى
أنْتَ الشَّهِيدُ عَلَى قَوْلٍ أفُوهُ بِهِ ... ما دمتُ « عائشةً » فالحمدُ غاياتِى

* * *

٧٨ — وقالت فى أثناء رمد :

فِدًى للعين منى كلُّ عَيْنِ ... وما فى الكون من ذَهَبٍ وَعَيْنِ
أرى الظلماء قد حَجَبَتْ عِيانِى ... وأجرتْ من دموعى كلَّ عَين
وألقَتْنِى بسجن يُوسُفِىّ ... وحالت بين أفراحى وبينى
وأقسم إن تحقق لى شِفَاها ... لجدتُ بما أرَى فى الراحتين
فقد أصبحتُ فى حزن وأنّ ... وقلبى بين إتعاب وأيْن
وما أهدت صَبَا الأسحار نوما ... إلى عَيْنٍ غدت فى أمْر غَيْنِ
يُقَلِّبُ فى دِثَارِ السُّقْمِ جسمى ... كأنى فوقَ جمر الحَرَّتَيْنِ
تخالفت الأساةُ بطول وَعْدٍ ... يُعَلِّلُنِى ويَأْسٍ فيه حَيْنِى
ومِنْ فَظٍّ يهددنى جِهَارًا ... بِمِبْضَعِه المصوَّبِ فى اليدين
وعهدى بالمياه حياة نفسى ... فمالى قد ظَمِئْتُ بماء عَيْنِى ؟
فيا لله أىّ سَنا وضوء ... أُصِيبَ بكلِّ عادية وشَيْن
فهل هى فى سبيل الله غازت ... فذاقَت باللِّقَا ظلمَ « الحسين » ؟

فكم أُمسِى بما ألقَى حزيناً ... وبين النوم مُعْتَرَكٌ وبينى
أبيت ومؤنِسِى الخفَّاشُ ليلا ... وحالى مَعْهُ شرُّ الحالتين
فذاك بنور عينيه مُهَيَّ ... ولى أسفٌ بِحَجْبِ المقلتين
وأبسُط للظلام أكفَّ بَثِّى ... وأشقَى لوعةً بالظلمتين
ترانى مُعْرِضاً عن كل ضوء ... فهل خاصمتُ نورَ النيِّرَيْنِ ؟
ينافرنى السَّنَا فأفرُّ منه ... كأن الضوءَ يطلبُنى بدَيْنِ
وأجنَحُ للظلام جنوح صَبٍّ ... دنا لحبيبه « بالرَّقْمَتَيْنِ »
جَزَى الله السَّقَام جزاءَ خير ... فقد هَذَّبْنَنِى وأزَلْنَ رَيْنِى
وصرت بما لقيتُ من الليالى ... أفرق بين ذِى صِدْق ومَيْن
حُرِمْتُ مقاصدى ومُنِعْتُ عما ... تميلُ لحسنه نفسى وعينى
إذا رمتُ انتشاقَ الطِّيب يوماً ... وضعت يَدَىَّ فَوْقَ الحاجبَيْن
وناهيكَ انطواء سجلِّ كُتْبِى ... وتركى « للحديثِ » بحسرتين
وقد عِفْتُ الأُسَاةَ وعدتُ أرجو ... طبيبَ الكون رَبَّ المشرِقَيْن
إلهى ، سيدى ، غوثى ، رجائى ... عياذى ، عدتى ، ومُزيلَ بَيْنِى
نَعَانِى أبيضُ القرطاسِ لما ... جفانى اليومَ نورُ الأسودين
وقد جَفَّتْ دواتى وهْىَ تبكى ... لما قد راعها من طول أَيْنِى
وأقلامى كم انشقَّتْ ، لأنِّى ... حرمت مسَاسها بالإصبَعين
غدوت اليومَ أُمِّيًّا وعَلَّى ... أقضَّى من فنون الكتْبِ دَيْنِى
فجهلى عبرة والسقم أخرى ... وعينى قد أرتنى العبْرَتَيْنِ
فلِمْ لا أنْعَى بالحَسَرَاتِ حالى ... وتعلو زفرتى للفَرْقَدَيْنِ ؟

* * *

٧٩ — وقالت وقد طلب منها إرسال رقيم كانت أرسلته سابقاً لولدها :

يا من أضاع رسالةً أهديتُها ... تَرْكُ الرسالةِ مثل ترك المُرْسِلِ
حَفِظَ الأحبـةُ للمحبِّ رِقاعَه ... وأضعتَ أنتَ رسالةَ المتوسِّل
وعلام تطلب ثانياً إرسالها ... وتُضيعها هَدَرًا كأن لم ترسَل ؟
ما ثَمَّ لو رمتَ الإعادة نسخةٌ ... وسِوَى التى أتلفتها لم أَنْقُلِ
قد قالها فكرى محاضرةً ولم ... تُسْطَرْ لَدَىَّ وقِسْتُها بالمُهْمَلِ
يا مفردا نظمتْ له علياؤه ... دُرَرَ الثناء على الكمال الأفضَل[1]
دَعْنِي وما فعل السَّقام فإن لى ... جسما على تلك العظام النُّحَّل
لى شاغل بالسُّقْمِ عن إرسال ما ... تبغى وأُرسلُها إذا لم أُشْغَل
لا بدَّ للتنميق من عقلٍ ، ومن ... فكر ، ومن قلب عن الدنيا خلِي

* * *

٨٠ — وقالت :

أُعلِّلُ نفسى والأمانى كثيرة ... وما كان أَغْنَى النفسِ عن ذا التَّعَلُّلِ
فلا الوقت فى أمرى فأقضى مآربى ... ولا الدهرُ يصفو لى فَأَكْمِدُ عُذلِى
ولا النيـل يدنو لى فَأَرْوَى بفيضه ... ولا الصبر طوعٌ لى فتحلو الحياةُ لى
ولا الحظ ذوسَعْد ولا البخت مُسْعِف ... ولا مهجتى صَـلْد أقول : تحملى
ولا لومَ إن واريتُ فى الترب جثتى ... وقلتُ : أَقِيمى حيثُ ذلكَ منزلى

* * *

٨١ — وقالت (من المخطوط) :

دعانى المشيبُ إلى خَانِهِ ... فعُجت لأملاَ وِفَاضَ السَّغَبْ
فَوَلَّى الشبابُ كَنَفْحِ الصَّبَا ... وَفَرَّ وَقَرَّ بوادى الرَّيَبْ

---

(١) فى الأصل المطبوع : دور ، بدلا من : درر

٨٢ — وقالت لتتلى عند اللحد بإزاء القبر بصوت حسن (من المخطوط[1]) :

قولوا لِحبَّاتِ الفـؤاد ومَنْ هُمُو ... بين الضلوع كنفسِ روحى قد نَمُوا
بحقوق حَقِّى عندكم لا تجزَعُوا ... لـكمُ البقَا وَلِىَ الهَنَا ببقا كمو
فتفقَّهُوا قولى فإنى لم أزَلْ ... فى الـكون « عائشة » أنا مَا عِشْتُمو
أنتم حياتى إن غَدَوْتُ فقيدةً ... لا عينَ لى فبعين روحى أرَا كمو
لم يأت دهرى بدعةً يا حَبَّذَا ... لو زرتمو قبرى ورُوحى تُرحمو
أرجوكمُ يا سادةً أن تَتْبَعُوا ... نعشى إلى لحدى إذا شَيَّعْتُمو
فيهون تلقينى وتَأْنَسُ وحشتى ... بِدُعَاء خيرِ الحاضرين لَدَيْـكُمُو
لـكم الرضا مِنِّى قد استودَعْتُـكم ... رَبًّا لـكم مِنِّى أحَنُّ وأرْحَمُ
وأقولُ من قلب لديكم شَوْقُه : ... إن كان جسمى قد تَوَارَى عنـكمو
هَا أعظُمِى تحتَ الثرى تَدْعُو لـكم ... بحنانةٍ أبداً تعيشُوا ، تَسْلَمُوا

* * *

٨٣ — وقالت (من المخطوط) :

حلاوةُ الحظِّ لم تُخْلَقْ « بحلوان » ... فـكيف قالوا : بها للنفس حُلوان ؟!
نسيمها خالصٌ والعـينُ شافية ... تُبْرِى السَّقَامَيْن من سُقْمٍ وأشجان
تَوُمُّها القومُ حُبًّا غُدْوَةً ومَسَاً ... كأنَّ فى أرضها حباتِ مَرْجان

---

(١) تلقت اللجنة من حضرة الأستاذ أحمد عبد العزيز بحلوان الحمامات (٢٤ شارع راغب باشا) هذه القصيدة ، وقد قدم لها بالكلمة الآتية :

« إلى الهيئة الموقرة المختصة بإحياء ذكرى وطبع مؤلفات المغفور لها السيدة عائشة هانم التيمورية قرأت بأهرام يوم السبت ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٠ نبأ عزم الهيئة الموقرة على إحياء ذكرى وطبع مؤلفات السيدة عائشة هانم التيمورية ، ولما كنت أحتفظ بأبيات من الشعر مكتوبة بخط يدها وفيها ترثى نفسها بعد موتها وتعزى أنجالها وقد أوصت أن تتلى على قبرها بعد الدفن ، وقد تلا هذه الأبيات على القبر سماحة السيد محمد البيلاوى نقيب الأشراف أطال الله فى عمره وعقب عليها بما للسيدة المقبورة من فضل عظيم على كل السيدات وأنها من طراز مفرد . ولما كنت أضن بهذه المرثية وأعتز بها فأبعث إليكم بصورة منها لتكون فى الطبعة الجديدة المزمع طبعها وهى بحروفها ونصها »

هذا وفى القصيدة كما يرى القارئ مواضع للتعديل والإصلاح ، لعل القصيدة أعجلت عن استدراكها ولم يبعث لنا صاحب الرسالة بالنسخة التى هى بخط يد الشاعرة ، ولـكنه بعث بصورة منها .

لما أرِقت بعين مَسَّها رَمَد ... أضْحَتْ تعانى بنو الأنواء أجفانى[1]

يا آل طِبِّى إليكم أشتكى وَصَبِى ... قالوا : الشفاء لها فى عين « حلوان »

رَحَلْتُ ليلا ولم أصبر لِغُدْوَتِه ... وخِلْتُ حمّامها كَهْفاً « للقمان »

وقتُ منتظراً طِبًّا ببقعتها ... فى وحشةٍ بين أوتادٍ وكُثْبَانِ

إذا بعاتيةٍ هاجَتْ وقد عَصَفَتْ ... كأنها النفخُ من حُلْقُومِ شَيْطَانِ

أقامت الطامة الكبرى لعينىَ ، أمْ ... زُفّت عَرُوس لسلطانٍ من الجان[2]

أم سُحْب حلوانكم قد أمطرتْ حَجَراً ... أم لاقت الأرضُ كبريتاً بِنِيرَانِ

أم نفخةُ الصُّور تَعْنِى أنَّ غُدْوَتَكُمْ ... يومَ النشور وفيها قِسْطُ مِيزَانِ

وكلهم فَرَّ يأوِى فى مغاورها ... ودار كوا الرُّوحَ أن تُرْمَى بخُسْران ؟[3]

قالوا : زوابع « حلوان » ، فقلتُ لهم : ... أمرى إلى الله حيثُ السُّقْمُ ألجَانِى

للعين طِيبُ الصَّبَافى « مِصْرِنا » سَحَرًا ... لكنَّ إنسانَهَا للطِّيب أنْسَانى

بشراكَ يا قلبُ بالرّيح العقيم فخذْ ... ذَا أولُ الحظ فاسعَى كَىْ تَرَى الثانى

ناهيكَ من بقعةٍ نبعُ المياه بها ... يَحْكِى سراباً جرى من رَشْح قَطْرانِ

مُذْ سَلَّمَ اللهَ عَيْنَ الجِسْمِ من سَقَمٍ ... يَشْفِى ببطحاء أرْضِى عَيْنَ إنسانى

حَتَّامَ أصْبِغُ بالكبريتِ ناصيَتِى ... وأدهش الروح من رَوْعِى بِرَيْحان

لا غرو بالريح أن ينهارَ شامخُها ... لو لم تحطْ أرضَها أوتادُ صَوّان

فالقوم ليسوا بـ « عادٍ » إنما صُرِعوا ... لأنهم قابلوا النَّعْمَاءَ بكفران

جنّات « مصر » بها الأنهارُ جارية ... عَبيقها عاطِرٌ رَيَّان[4] أفنان

يستبدلون الذى أدنىٰ وَإنَّ لَهُمْ ... فى « مصر » ماطلبوا من كل صِنْوَان

دعهم سُكارَى الهَوَىٰ فى بلدةٍ رَقَصَتْ ... وَزَمَّرَتْ فِى فضاها زُمْرَةُ الجان

---

(١) هكذا الأصل .

(٢) هكذا الأصل .

(٣) فى الأصل : مغايرها .

(٤) فى الأصل : ريات ، بدلا من : ريان .

تَرَى الأهالِي بها خُشْبًا مُسَنَّدَةً ... لكِنَّها فِي اختلاجٍ تحت قمْصَان
حتى الكلاب بها يوماً إذا نَبَحَتْ ... من فرط دهشتها تَعْوِى كجِرْذَانِ
قل للذى هام فى « حلوان » معذرةً ... أستغفر الله ليس الهجْو من شانى
يكفيك ليس على ذى السُّقْمِ من حرجٍ ... فاكْفُفْ عن اللوم حِلْمًا لاتكن جانى
مَيِّزْ مزيَّةَ ذين العنصرين وقل : ... حَلَاوَةُ الحظ لم تُخْلَقْ «بحلوان»(١)

* * *

٨٤ — وقالت أيضا (من المخطوط) :

قَدْ تِهْتُ فى روض الشباب وكل من ... قال : الشباب كلمحة ، كذَّبْتُه
لما دنا شيبى ، وقال نذيرُهُ : ... بل عيشُ عمرك لمحةٌ ، صدَّقتُه !

* * *

٨٥ — وقالت (من المخطوط) :

لا تنكروا شَيْباً أَلَمَّ بِلِمَّتِي ... فهو النذيرُ لِحَزْمِ راحلة السَّفَرْ
ففراق فانى العيش حانَ ولم أكن ... مستيقظاً فَعَلَا بِفَرْقِي وَاسْتَقَرّ

* * *

٨٦ — وقالت (من المخطوط) :

ضاق الفضاء وقلبى زائدُ الشَّرَرِ ... والصبحُ قد غُلَّ بالظلماء عن نظرى
ما الليلُ ليل ترى عينى كواكبَه ... ما العين عين ترى فيه سَنَا القمرِ
كم يزدرينى من الحساد ذو عَذَل ... باللوم يُغْنَى وما حالى بمستترِ
والله لو أنصفوا يوماً إلىَّ رَنَوْا ... كيف الفِرَارُ لمعقولٍ من القدَرِ ؟
عين « الثُّرَيَّا » بكتنى وَهْى ضاحكةٌ ... فيا لَدَمْعٍ عظيم الوَبْلِ منهمر

---

(١) فى الأصل : ذاك ، أو : ذان .

كم لامها « المشترى » عَتْباً وحين رأى حالى تَوَارَى يزيلُ السحبَ من بصرى
ومذ رأى لوعتى « المرّيخ » ذاب أسًى وغاب فى الحال تحتَ الحُجْب والسُّتُرِ
وخَبَّرَ البرقَ فاشتدتْ لوامعهُ وأرسل الرعد ينعانِى على الأثَرِ
وعاينُوا ليلتى الليلاء داجيةً بطيئةَ السير لا تأتى على سَحَر
أتَى « عطاردهم » للسحب فصّلها مثلَ القراطيس واستملى من المطر
وخَطَّ فى لوحها المصقول هل مدد لمهجة بُدِّدت فى قلب منفطر ؟

* * *

٨٧ — وقالت (من المخطوط) :

يا شملُ ما بالُ اللِّقاء مُعانِدِى وأنامِلُ البَلْوى حَلَلْنَ مقاصِدِى
وأرى الليالى قد هدَمْنَ مَرَاصدى يا مقلتى نجمُ السعودِ مُبَاعِدِى
أشكوه أم أشكو الزمان المعتدى ؟
يا ليلُ هل أمسَى ظلامُكَ سَرْمَدَا أم جئتَ والهِجْران فيك مؤبِّدَا[1]
مثل السهاد بمقلتىّ مخلدَا قد طال مُكْثى فى النَّوى وَتَجَرَّدَا
وتكحلتْ بالفوز أعْيُنُ حُسَّدى
آهاً لمفئودٍ تطولُ شجونه واهاً لمحروم تضيع فنونه
تبكى بحرمان الرفيق عيونُه ياأيْكُ خُذْ روحى وماملكتْ يدى[2]
واسجَعْ إذا ناحَ الحمامُ وغَرِّدِ
قل : ذاب قلبٌ بالشتاتِ معذبُ وكأنه بين السعير مُقَلَّبُ
قد جَدَّ شوقاً والصبابة تلعَبُ كادت تذوب له صِحَاح الأكبُدِ
أنْ مات مجروحاً بِسَهْمِ الاغْيَدِ

* * *

(١) فى الأصل : موايدا .
(٢) خلا الأصل من كلمة « يدى » والمقام يقتضيها .

٨٨ — وقالت (من المخطوط) :

رُفِعَتْ بآفاقِ المُنَى راياتِي ... وسما سناء النصر فى مِشْكاتِي
وصحاف فوزى بالكواكب نُقِّطَتْ ... فتلا « عطاردُ » أُفْقِها آياتى
السعدُ طالعُه أنارَ لدولتى ... بإرادةِ الوهّاب منشىء ذاتى
واشتاقنى حظى وأقبل بعدما ... كنتُ المَشُوقَ وفى الحشا لوعاتى
مذ كان سيفُ تجلدى عند القضا ... فى راحتى أَرْمى به زفراتى
حتى قطعت به حبائلَ مِحْنَتِي ... وسلكت نَهْجَ السُّهْد فى خلواتى
كم ذا أكبَّ الدهر وجهَ مطيتى ... وأناخها فى جذوة العَرَصات
وكم أدَرَّ بذى الفضاء محاجرى ... وبدت عقيقاً مذ جرت عبراتى[1]
مذ غَرّنى دهرى وَخِلْتُ سرابه ... طَلَّ المُنَى لحدائق الغَفَلات
فأنا المقرُّ بما جَنَيْتُ وليس لى ... عذر سوى أَسَفِى على هفواتى
فلأشكرنَّ شدائداً لو لم تكن ... ما كنتُ أدرى زَلَّتى لمماتى[2]

* * *

٨٩ — وقالت (من المخطوط) :

يقول منادمى الخُفّاشُ : إنى ... على علم فخذ بالنصح عنى
ليالينا بما نلقاه طولا ... فدعنا فى أمانيها نغنى
نقصرها بلحن موشّقىّ ... ويمضى الليل فى طنّ ورَنّ
فإنى مُذْ نشأتُ نشأتُ صَبًّا ... وبالألحان قد علقت فنى
وهاك البدرَ نعم الخلّ فارعى ... وداداً شفّ من ريب التجنى
ألم ترنى لأنسك والتصابى ... تركت قصور راحاتى وكِنّى
أدور برَقْوَةِ النعويذ حرصاً ... عليك اليوم من غيرى ومنى

---

(١) هكذا الأصل . ولعل « وكم » محرفة عن « ولكم » . و « بذى » محرفة عن « بذا »
(٢) فى الأصل : فلأشكر شدائد .

وهذا الخلّ بالأشواق ران ... تكلف بالغرام إلى التثنّى
فتِهْ عجباً وحيِّينا دلالا ... لقد قرت بنيل الوصل عينى
فقلت منادمى لا زلتَ أعمى ... بحق عماكَ من ذا القول دَعْنى
وخلينى بما ألقى معنىً ... لقد أخطأت فى مثواك ظنى
ألم تبصر سقامى وانتحالى ... ألم تسمع لتأوهى وأنىً ؟
فخفنى والكرى فى إعْتراك ... وشهم الصبرِ عاداه التأنّى
وجيش الفكر أرقنى حصاراً ... وليث العَزْم فى أجداث شَنّ
ونجم البخت أوقعه زمانى ... بحب اليأس عن نيل التمنى
وذوق العيشِ مَرّ لما أعانى ... ولا يحلو بسلواء ومَنّ
وصَحْب عواذلى لسقوط سعدى ... لكفّ تشمّتى أضحتْ نُحنّى
فلست أطوف فى بشر الأمانى ... ولا بالبدر أحداقى أهنّى
فلا تقطع بيأسك حَبْلَ نَيْلٍ ... ورب البيت لم يبخل بِمَنّ

* * *

٩٠ — وقالت (من المخطوط) :

خليلى إنى للثريا لحاسد ... وقلبى لها مَرّ الجديدينِ حاقِدُ
طوَيتُ بساطَ العيش فى كهف عزلة ... وإنى على ريب الزمان لواجِدُ
أيجمع فيها شَمْلَها وَهْىَ سِتّةٌ ... كأنّ زَمَانِى لِلشَّجِىِّ مُعَانِدُ ؟
أرَاهُ لدى غيرى يوافيه بالمُنَى ... ويأخذ منّى مُنْيَتِى وَهْوَ واحد ؟!

* * *

٩١ — وقالت تريد تخميس الأبيات السابقة (من المخطوط) :

دعونى فريداً فى الغرام أكابدُ ... وأشْقَى بما ألْقَى فَدَهْرِى مُعانِدُ
فإن دَرّ مُزْنُ الوصل فالمُزْنُ راكِدُ ... خليلى إنى للثريا لحاسِدُ
وإنى على ريب الزمان لواجِدُ

ولى فى زوايا الصبر مُكْثٌ وعزلةٌ دَهَتْنِى لها رَغْماً لعمرِىَ بِدْعَةَ
وقامت بتصديقى لدى القولِ حُجَّةٌ أيجمع فيها شَمْلَها وهْى ستَّةٌ

ويأخذ منى منيتى وهو واحد ؟

* * *

٩٢ — وقالت (من المخطوط) :

أسيرٌ فى الحمى لم ترغبوه فقير للمراحم فارحموه[1]
صحيح الجسم ذو كبد جريح وقلبٍ فى لَظىٰ قَدْ قَلَّبُوهُ
لهُ صدر يحوزُ لكل فَنٍّ ولكن قلبه قد ضيَّعُوهُ
مليكٌ فى الخصال ، وعبدُ رِقٍّ لمالكهِ ، فَرِقُّوا وَاعْذِرُوهُ

---

(١) فى الأصل : هل ترغبوه .

(ب) فى الأبنـاء

٩٣ — قالت وقد كتبت به لأحد أولادها تطلب منه إرسال كتاب « درة المختار » :

طُرُوس حُرِّرَتْ فوراً فحاكتْ نسمةَ الأسحارْ
سأُودِعُها تحيَّـاتٍ بها عَرْف الصِّبَا قد سار
إلى عالى المكانةِ مَنْ سما فى المجدِ والمقدارْ
له هِمَم إذا ظهرتْ توارتْ دونها الأقمار
بذاكَ الأم قد شهدتْ فأنَّى لابنها الإنكار
فيـا لله ما لاقى ضميرٌ حشوه إسعار
لعمرى كان ريحانا ولكن مَسَّهُ إعصار
فجودوا بالحياة له ليطفىء جمرة الأفكار
وأرجو من معاليكم سريعاً « درة المختار »

* * *

٩٤ — وقالت ترثى ابنتها :

إن سالَ مِن غرب العُيونِ بُحور فالدهرُ باغٍ وَالزَّمانُ غَـدُورُ
فلكلِّ عَين حَقّ مدرار الدّما وَلِكلِّ قلبٍ لوْعَـة وَثُبورُ
سُتِرَ السَّنا وتحجَّبَتْ شمْسُ الضُّحَى وَتَغَيَّبَتْ بعـدَ الشروقِ بُدُورُ
وَمَضى الذى أهوَى وَجَرَّ عنى الأسَى وَغَدت بقلبى جَـذْوَةٌ وَسـعيرُ
يا لَيْتَهُ لما نوَى عَهـد النَّوَى وَافى العُيونَ مِنَ الظلامِ نذيرُ
نَاهِيك ما فعلت بماء حُشَاشتى نارٌ لها بينَ الضُّلوعِ زَفيرُ
لوْ بُثَّ حزنى فى الورَى لم يُلتفت لمصاب « قيس » وَالمصابُ كثير
طافَتْ بِشهر الصوم كاسات الرَّدى سَحَراً وَأكْواب الدمُوع تدورُ

فتناوَلَت منها ابنتى فتَغيَّرَت ... وجَنَات خدّ شأنها التغيـيرُ
فذوت أزاهير الحيـاة برَوضها ... وانقدَّ منها مأنس ونضـيرُ
لبستْ ثياب السُّقم فى صِغَرٍ وقد ... ذاقَتْ شرابَ الموت وَهْوَ مريرُ
جاء الطبيبُ ضُحًى و بشَّر بالشفا ... إنّ الطبيبَ بِطِبِّـه مغرورُ
وصفَ التجرُّع وهْوَ يزعم أنه ... بالبُرْءِ مِن كلّ السـقام بشيرُ
فتنفَّسَت للحزْنِ قائلةً لهُ : ... عَجِّلْ بِبُرْئِى حيثُ أنْتَ خبـيرُ
وَارْحَمْ شبَابى إنّ وَالِدَتى غَدَتْ ... ثَكْلى يُشيرُ لهَا الجوَى وَتُشِيرُ
وَارْأفْ بعَيْنٍ حُرِّمَتْ طيبَ الكَرى ... تشكُو السهاد وفى الجفُونِ فتُور
لما رأتْ يأْسَ الطبيب وعجْزَهُ ... قالَتْ وَدَمْعُ المُقْلتين غزيرُ :
أُماهُ قَدْ كَلَّ الطبيبُ وَفاتنى ... ممَّا أُؤمّلُ فى الحيَاةِ نَصِيرُ
لو جاء عَرَّافُ « اليمَامَة » يبتَغى ... بُرْئِى لرَدَّ الطَّرْفَ وَهْوَ حَسِيرُ
يا رَوعَ روحى حَلَّها نَزْعُ الضَّنَا ... عمَّا قلِيـلٍ وُرْقُهـا ستطيرُ
أُمَّاهُ قَدْ عَزَّ اللقـاء وفى غَدٍ ... سَتَرَيْنَ نعشى كَالْعَرُوس يَسِيرُ
وسَينتهى المَسْعَى إلى اللَّحْدِ الذى ... هوَ منزلى ولهُ الجُموع تَصِيرُ
قولى لربّ اللَّحْدِ : رِفْقاً بابنتى ... جَاءَتْ عرُوساً ساقها التقـديرُ
ونجـلّدى بإزاء لحدى برهـةً ... فتراك روحٌ راعهـا المَقْـدُورُ
أُمّاه قد سلفت لنـا أمنيَّة ... يا حسنها لوْ ساقها التيسـيرُ
كانت كأحلام مضَتْ وتخلفَتْ ... مذ بان يوْمُ البَيْنِ وَهْوَ عسيرُ
عودى إلى ربع خـلا ومآثرٍ ... قد خُلِّفَتْ عنى لهَـا تأثيرُ
صونى جِهَازَ العُرْسِ تَذْكاراً فلى ... قد كان منه إلى الزِّفاف سرُور
جرَّتْ مَصائب فرقتى لك بعدَذا ... لُبْسَ السواد وَنُفِّذَ المَسْـطورُ
والقبرُ صار لِغُصْنِ قَدِّى رَوْضَةً ... رَيحانها عند المزار زُهورَ
أُماهُ لا تَنْسَىْ بحَقِّ بُنوَّتى ... قَبْرِى لئـلا يَحْزَنَ المَقْبُورُ

وَرَجاء عَفْوٍ أو تـلاوَة مُنْزَلٍ فسـواك مَن لى بِالحنين يَزُورُ
فلعلَّما أحظَى برحمـةِ خالِقٍ هُو راحِمٌ بَرٌّ بِنا وَغَفُـورُ
فأجبتها والدمع يحبِسُ منطقى والدهرُ مِن بَعْدِ الجِوار يجورُ :
بِنْتَاهُ يا كبدى ولوعَةَ مُهجتى قد زال صـفوٌ شَأْنُه التـكديرُ
لاتُوصَ ثَـكلَى قد أذابَ وتينَها حزنٌ عليك وَحسرةٌ وَزَفـيرُ
قَسَماً بِغَضّ نواظرٍ وتلهـفى مُذْ غاب إنْسَانٌ وَفارَقَ نور
وبِقُبلتى ثغراً تقضَّى نحبُـه فحُرِمتُ طيبَ شَذاهُ وهْو عطيرُ
واللهِ لا أَسْـلو التلاوَةَ والدُّعا ما غرَّدت فوقَ الغُصونِ طُيور
كَلَّا وَلَا أَنْسَى زفير توجُّعِى والقدُّ منك لدى الثرَى مدثور
إنى أَلِفْتُ الحزنَ حتى إننى لو غاب عنى ساءنى التأخيرُ
قد كنتُ لا أرضىَ التباعدَ برهة كيف التصبر والبِعادُ دُهور ؟
أبكيك حتى نلتقى فى جَنَّةٍ برياض خلد زَيَّنَتْهَا الحور
إن قيل « عائشة » أقول لقد فَنِى عيشى وصبرى ، والإلَهُ خبير
وَلَهِى على « توحيدةٍ » الحسن التى قد غاب بدرُ جمالها المستور
قلبى وجفنى واللسان وخالِقِى راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغَفُور
مُتِّعْتِ بالرِّضوان فى خُلْدِ الرِّضَا ما ازَّيَنَتْ لك غرفةٌ وقصور
وسمعتِ قول الحق للقوم : ادخُلوا دار السـلام فسعْيُكُم مشكور
هـذا النعيمِ به الأحبةُ تلتقى لا عيشَ إلا عيشُه المبرور
ولكِ الهناء فصِدْقُ تاريخى : بدا « توحيدة » زُفَّتْ وَمَعْهَا الحور
سنة ١٢٩٤ ٧ ٤٣٣ ٤٨٧ ١٢٢ ٢٤٥

* * *

٩٥ — وقالت فى دعوة وليمة لولدها :

شرّفوا النادى وحَيُّوا بالصَّـفا والْإرتيـاح
فيـهِ تجويدُ المثانى وَسَمَـاعُ الإنْشِرَاح

أيكةُ المحمود داعٍ فاعطِفُوا يَآلَ السَّمَاح[1]
فمذاقُ العيش يَحْلُو فى نُسَيْمَاتِ الصَّبَاحْ
كى يَقُولَ الْبَدْرُ فوزا نَيِّرُ المِشْكَاةِ لاحْ

* * *

٩٦ — وقالت فى ختان ولديها :

زار الهنا دَارَ الخِتَانِ فَأَشْرَقَتْ شمسُ السُّعُود بجبهة المختون
قال السرُورُ لدى الهناء مُبَشِّرًا : عُقْبَىٰ لحاضِرِ أُنْسِهِ الميمُونِ

* * *

٩٧ — وقالت أيضا :

دقّتْ لهُ العلياء دُفَّ سرُوره لما زَهَتْ عن ثَغْرِها البسّام
وَغَدَتْ تُعَوِّذ نجمَه لما بدا ودعتْه فى أُفق المسرة سامى
والسعدُ أفصح بالمسَرَّةِ قائلاً : بختان مثلك زادَ رَفْع مقامى
رَمَقَتْه أحداق الورى من بِشْرِهَا وصَفَتْ لَهُ الأرواح بالأجسام

* * *

٩٨ — وقالت وقد كتبت به لأحد أولادها :

قلبى لِبُعْدِك لم يحمَدْ مجاورتى وَفَرَّ نحو حبيبٍ فِى حَشَاهُ رُبِى
قل لى بطلعتك الغرّا وعزّتها واحكم كما تَرْتَضِى مُتَّعْتَ بالأرَبِ :
مِنْ غيرِ قلبٍ أتبقىٰ رُوحُ « عائشةٍ » لا والذى زان هذا المجدَ بالأدَبِ

---

(١) فى المطبوع : داعى ، بدلا من : داع .

٩٩ — وقالت وقد كتبت به لولدها :

تَرُوم حَبَّـةَ قلبٍ وَهْىَ لؤلؤة ... والقلبُ آتيكَ مُشْتاقاً بِحَبَّتِه
لما حكَتْ منك نورَ البِشر قد جُعِلَتْ ... فوقَ الفُؤادِ لتحكى حُسْنَ طلعتِه
لو رُمْتَ رُوحِى لجاءت وَهْىَ سَاعية ... إلى مُنَاهَا الذى تهفو لرؤيتِه

* * *

١٠٠ — من قصيدة أنشدتها حين سافر ولدها إلى طنطا (من المخطوط) :

قَسَمًا بحبٍّ لقائه قـد جارا ... رِيمٌ بما بين الجوانح سارا
يُبْدى السلامَ لدى الوَدَاع تلطفاً ... بتوجُّعِى ، استودعتُه السَّتَّارَا
بدرٌ نأَىٰ عَنِّى وَيَعْلَمُ أَنَّنِى ... فِى صُبْح غُرَّته أرى أقمارا
كَلَّفْتُ قلبى بالثباتِ وقد رأى ... رَكْبَ النوى بِحُشاشتِى قد طارا
ياحَادِىَ الأظعانِ : إنى لم أجِدْ ... بينى و بينَكَ فى الضُّحىٰ آثَارا
حتى تصادر بالفراق حُشاشتى ... بيد الجوى كادتْ تذوبُ دمارا
وغضضْتَ طَرْفَكَ عن صَبِيبٍ مَحاجِرٍ ... أجْرَتْهُ فى فيح النَّوَىٰ أنهارا
فاعْدِلْ عن العُدوان عاداك الرَّدَى ... وانظر تجد فيمن سَرىٰ أسرارا
بفريقك السَّارى تَرَى قَلْبَيْنِ لِى ... قَلْبٌ عَلَى مَلَإٍ وَذَاكَ تَوَارَى
وَلِهِى يُعَنِّفُنِى بإظْهَارِ الجَوىٰ ... وتجَلُّدِى يَأْبَىٰ العَوِيلَ جِهَارَا

(ج) فى الأقرباء

١٠١ — قالت مؤرخة ولادة شقيقها :

طابتْ نفوسُ أولى النُّهَا برحيق ... وتكاملت أفراحها بـ « وفيقِ »
حيا البشيرُ بأنس « أحمد » قائلا : ... لاحَ الهَنَا بالبِشْرِ والتوفيق
نجلٌ نجيبٌ مذْ تبدَّى بدره ... قال المنا لعلاه : أنت رفيقى
قالَتْ لوالده الشقيقةُ : حَبَّذَا ... حَيَّا مصابيحَ البناتِ شقيقى[1]
فاهنأ بمولودٍ بَدَا تاريخُه : ... وَجْهُ المنَا بشراكَ بالتوفيقِ

* * *

١٠٢ — وقالت عند وضع أخٍ لها :

غَنَّى فؤادُ الأمِّ أهلاً بالذى ... مُذْ جاء أشرقتِ المنازل بالسَّنَا
يَحْمِيكَ ربُّكَ من إصابةِ ناظِرٍ ... وَزَهَتْ بِمَقْدَمِكَ المَسَرَّةُ والهَنَا

* * *

١٠٣ — وقالت تهنئة بمولود :

تَجَلَّى النورُ فى أفْقِ المعالى ... وحَلَّ البدرُ فى أوْجِ الكمال
وأزهرَتِ الكواكبُ مُسْفِرَاتٍ ... عن البُشْرَى فأشرقت الليالى
وأبدى الدهرُ مولوداً زكيًّا ... تلوح عليه آياتُ الجَلَال
« عُطَارِدُه » بلائحةِ التهانى ... أتَى الأعتابَ والإقبالُ تالى
فألبسَنا من الأفراحِ تاجٍ ... وكلَّلَهُ بأنواعِ اللآلى
فَطِبْ صدراً وقَرَّ به عيونا ... ودُمْ فَرِحاً بهاتيك الخِلال
فمشكاة السُّعود لديك تنمو ... « وعباس » عَلِيُّ النصرِ عالى

---

(١) فى المطبوع : « قال » بدلا من : « قالت » .

مخايلهُ الشريفـةُ مُعْلِنَـات بأن سيكونُ فى أبهىَ الخصال
ويَقفُو الشِّبْلُ فى وصفٍ أباه كما يقفو الرَّشَا أثر الغزال

* * *

١٠٤ — وقالت عندما ابتدأ أخوها القراءة :

لاح السعودُ وأسفرَ التوفيقُ وتلا لنا سُوَرَ العلا « توفيقُ »
رَقَمَ الفقيهُ له على لَوْحِ الهُدَى أَقْبِلْ فإنك للنجاح وَفِيقُ
واقرأْ كتابَ الله عز ثناؤه فَهُوَ المَجِيد وبالثناء حقيق
رُوح الوجود على البشير مُنَزَّلٌ يَهْدى إلى الرُّشد الوَرَى ويسوق
فأَعِنْه يارب على دَرْكِ العُلَا فالنُّجْحُ حيث العونُ منك رفيق
وامنُنْ بفوز الحاضرين فَكلهم بنوالِ حظٍّ من رضاك وثيق
واجبُرْ بعفوك والرِّضا من أنشأتْ ماالخضرَّمن دَوْحِ الرياض وَرِيق
قالتْ وقد بَسَطَتْ أكفَّ ضراعةٍ: يارَبِّ فليَكْمُل لنا التوفيق
بِحَبِيبِك الهادى تُبَلِّغُنَا الرِّضَا مادمتُ « عائشةً » ولاحَ بريق

* * *

١٠٥ — ورثت والدها المرحوم « إسماعيل باشا تيمور » فقالت :

عَزَّ العَزاء على بَنِى الغـبراء لما توارَى البـدرُ فى الظلماء
حَقٌّ على الأيامِ تندُبُ فَقْدَ مَن هو نَـيِّر الإفصاح للبُلَغاء
فَاجَاه ريْبُ الدهر أَضْمَرَ نُطْقَه لما سقاه من كُئُوسِ فناء
فانقضَّ لَيْثًا والعيونُ هوامعٌ تَبْكِى عليـه بأدمعٍ حمراء
رجعَ الطبيبُ بيأسه متسربلا وأراق جُرْعَتَه على الحَصْبَاء
ناداه : لا تيأسْ وعالجْ عِلَّتى فعسى يكونُ على يَدَيْك شفائى
واكشِفْ عَلَى قلبى فإن بَشَّرْتنِى بالبُرْء خُذْ مِلْكى ، وذاك فدائى

وإذا انقضى نَحْبى وما أجْدَى الدوا ... نفعاً فوارِ الجسمَ عن أعدائى[1]

وارجع لقومى الغافلين وقل لهم : ... ذَبَحَ القضا « أسمعيلَ » فى البيداء

ياشُؤمَها أخبار مفقودِ القضا ... ياحَرَّ رَجْعَتِهِ بغير رَجَاء

يالهفَ عامرة القصور عليه إذ ... باتَ الأمير على فراش عَزاء

أمسَى لعيفُ النائحات تحيطُه ... بدلا عن النُّدَماء والجُلَسَاء

ياحسرةَ ابنته إذا نظرتْ لها ... بمماته عَيْنٌ من البأساء

قالت : وحَقِّ سَنَا أبوَّتِك التى ... كانت ضياء الأمنِ للأبناء

مذ ما فقدتُك والحشا متسعِّر ... والجسمُ منتحل من الضرَّاء

يا كَنْزَ آمالى وذُخْرَ مَطالبى ... وسعودَ إقبالى وعينَ سنائى

ياطبَّ آلامى ومَرْهَمَ قُرْحَتِى ... وغذاء روحى بل ونَهْرَ غِنائى

أبتاه قد جَرَّعْتَنِى كاسَ النوى ... ياحَرَّ جُرْعَتِه على أحشائى

أبتاه قد حَشَّ الفراق حُشَاشتى ... هل يرتضى القلب الشَّفِيق جَفَائى[2]

يامن بِحُسْنِ رضاه فَوْزُ بنوَّتى ... وعزيزُ عيشَتِهِ تَمامُ رَخائى

إن ضاق بى ذَرْعِى إلى من أشتكى ... من بعد فقدك كافلًا برضائى ؟

ياليتَ شعرى حين ماحَلَّ القضَا ... هل كنتَ عنِّى راضياً أم نائى ؟

لما قضى المولَى ببُعْدِكَ وانقضَى ... أملى من الدنيا وقَلَّ عزائى

وَجَّهْتُ مبتهلا لربِّى وِجْهَتِى ... لِيَعُمَّ روحَك منه بالنَّعْمَاء

فَلَكَ الهنا بالخُلْد فُزْتَ بِعَدْيِهِ ... إذ أنتَ معدودٌ من الشهداء

ولىَ التقلّبُ فى سَعير تحرُّقِى ... مادمتُ « عائشةً » ليوم فنائى

* * *

(١) فى الأصل المطبوع : « أجد » بدلا من : « أجدى » .

(٢) فى الأصل المطبوع : « الشفوق » .

١٠٦ — وقالت ترثي والدتها :

يا قبرُ فاهْنَأْ بالتي أحرزتَهَا ... هي دُرَّةٌ في الدَّرْجِ لاحت تَسْطع
قد خانَهَا الدهر المُلِمُّ فأَصْبَحَتْ ... لِكُئُوسِ أسقام الضَّنا تَتَجَرَّع
ذاقَتْ مَرِيرَ السُّقْمِ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا ... حتى قضت أيامَهَا تَتَوَجَّع
رَحَلَتْ وقد أفنَى النزيفُ دِمَاءها ... والقلبُ في حسراته يتصدَّع
كم من طبيبٍ لم يَكِلَّ وطالَمَا ... داوىٰ ولكن داؤها يَتَفَوَّع
كم ليلةٍ باتت تُسَاهر نجمها ... وَتَئِنُّ مما قد حَوَتْهُ الأضلع[1]
حتى أَتَىٰ أمرُ الإله لها : ادخلي ... لَحْدًا ، وأمرُ الله لا يُسْتَرْجَع
يَارَبِّ فاجْعَلْ جَنَّةَ المأوىٰ لها ... دارًا بِطِيبِ نعيمها تَتَمَتَّع
وَاسْكُبْ عَلَى حَصْبَائِهَا سُحُبَ الرضا ... فضلاً وإن تك قد سَقَتْهَا الأدمُع
يَهْنَا لأرباب النعيم نعيمُهم ... طُوبىٰ لِمَنْ مِنْ نهرهم يتضلَّع
يامنهلَ التشتيت حَسْبُكَ مَاجَرَى ... فَعُيُونُنا قد أقسمتْ لا تَهْجَع
مابالُ هذا الدهرِ يَفْجَأُ بالأسَىٰ ... أَلْبَابَنَا وَلَكَم بِحُزْنٍ يَفْجَع
ذهَبَ الأحبَّةُ واستقلَّ ركابهُمْ ... يا لَيْتَ رُوحي وَدَّعَتْ إذْ وَدَّعُوا
ياليتَهُم طلبوا الفِدَاء فهذه ... رُوحي ولكن لَيْتَ لَيْسَتْ تَنْفَعُ
وَإِرَادَةُ المَوْلَىٰ تَعَالَىٰ شَأْنُهُ ... حَتَمَتْ لنا هذا ، فماذا نصنع ؟

* * *

١٠٧ — وقالت ترثي شقيقتها :

يامَنْ أَتَىٰ للقبرِ يقرأ طِرْسَهُ ... مَهْلاً فليس كتابُهُ بمداد
وَأَعِدْ لَهُ نَظَرًا فإنَّ حُرُوفَهُ ... كُتِبَتْ بِذَوب العين والأكباد
ماخَضَّبَتْ كَفًّا ولكِنْ أهلُهَا ... قَدْ خَضَّبُوا راحاتِهم بسواد
ما زُيِّنُوا بملابسٍ منقوشةٍ ... أبداً ولكن زُيِّنُوا بِحِدَاد

---

(١) في المطبوع : نجمه ، بدلا من : نجمها .

تَبًّا لِدَهْرٍ خانها وَأَغْتالَها ... مِنْ خِدْرِها كَفَرِيسَةِ الآساد

وفريدةٍ لم تَدْرِ قيمتَها الْوَرَى ... قد باعها الغوّاصُ بَيْعَ كَسَاد

نُظِمَتْ بِعِقْدِ الموت وهْوَ مُفَصَّل ... بِجَواهِرٍ فى نَظْمِهِنَّ جِيَادِ

وُجِدَتْ وأعدمها الزمانُ حَيَاتَها ... ما أقربَ الإعْدَامَ للإيجاد

واخْلَوْلقتْ يَبْدُو لنا إصلاحُها ... عَلَنًا فعاجَلَها الرَّدَى بفساد

جاء الطبيبُ يَجُسُّ نبضَ ذِرَاعها ... فرأى التّأثرَ ليس كالمعتاد

فتنفَّسَ الصُّعَدَاء مَرّاتٍ وقد ... أعيا وقال : اليومَ ضَلَّ رَشادى

فتَنَهَّدَتْ جَزَعاً وقالت : سيدى ... أأَمُوتُ قبلَ التُّرْبِ والأنداد ؟

وأسيرُ من دون الأنام وكم أرى ... للدهر قبل الموت من رُوَّاد

أوّاهُ من فِعْلِ الزّمان ومكْرِه ... مَكْرُ الزَّمانُ يزِلُّ بالأطواد

بَلَغَ الْعَدُوُّ مَعَ الْحُسُودِ مُرَادَه ... وَاحَسْرَتا إذْ لم أَفُزْ بِمُرَادى

فبقيتُ بعد حياتها تنتابنى ... نُوَبُ الرَّدَى حتى لزمتُ وِسَادى

أَحَبِيبَتِى : كيف الرّضا بتشتُّت ... قد ضَرَّ بالإخوان والأولاد ؟

وَمَتَى يكُونُ وَإِنَّنِى ما عشتُ لا ... أرْضاهُ لِلْغُرَباء وَالآحاد ؟

ياقبرُ مَهْلًا قد حَظِيتَ بِدُرَّةٍ ... جَلَّتْ عن الأمثال والأنداد

أنَا بِى إلَىْ ما قد ضَمَمْتَ تَشَوُّقٌ ... ياليتنى أُسْعِدْتُ بالتَّرْدادِ

كَنْزُ اللآلِىء كيف يُخْتَمُ دَرْجُهُ ... ياليتها شَلَّتْ يَدُ اللَّحَّادِ .

الشعر الغزلي

١٠٨ — قالت :

مَنْشُورُ حسنِك فِى الحشَا سَطَّرْتُه وَرقيمُ خَطِّكِ طالما كَرَّرْتُه
سَطْرُ الْعِذَارِ تَلَوْتُه فَوَجَدْتُه يُومى لِسَفْكِ دمِى وَقَدْ سَلَّمْتُه
أنا كلُّ ما يُرضى هَواكَ رَضِيتُه

أَفْنَيْت صَبْرِى فى هَواك مُتَيَّمًا وقضيْتُ عمْرِى فى جمالك مُغْرَما
وتركْتُ سِرِّى بِالتَّجَلُّد مُبْهَما فأَنَلْتَنى تِيهًا أبادَ وَأَعْدَما
حتَّى اسْتَبَانَ لديكَ ما وَارَيْتُه

جَفنى لِبُعدِك بِالصُّدودِ تأَرَّقَا وَمَذاقُ عيشى مَرَّ والسهدُ ارتقى
والْقَلْبُ مِن نارِ الْغَرامِ تحَرَّقا قُل لى بحقِّكَ يا غَزال : متَى اللِّقَا ؟
يَكْفى مِن التَّعذيبِ ما لاقَيْتُه

أَفْدِيك مِن غُصْنٍ ورِيقٍ بِالْحُلَى تزْهُو بوجْنات وريقٍ قَدْ حَلَا
وَتغُضُّ جَفناً بِالنُّعاسِ مُعَسَّلَا فاسْمَحْ بِرَشْفٍ لَمَّى يفُوقُ السَّلْسَلَا
لِلْآنَ حَتى فِى الْكَرَى ما ذُقتُه

يا ظبيُ فى قلبى عليكَ حرارَةٌ تُطْفى لَظَاها إنْ سمَحْتَ زِيارة
حُلوَ الرُّضَابِ أفِى الوِصالِ مَرارة أَمْ فى الْتِفاتكَ للشجىّ خَسارة
وَجميعُ رِبْحِى فى الهوَى أنْفَقْتُه ؟

مَن ذا الذى أغْوَاكَ حتى خُنْتَنى وَنبَذْتَ عَهْدِى بعدَ ما قاسَمْتَنِى

يا مالِكاً قلبى وما ملَّكْتَنى أينَ الوُعود ؟ وَأينَ ما بَشَّرْتَنى ؟
قَدْ خابَ من جدواك ما أمَّلتُه

جَهِلَ العَواذلُ حالتى فجَلَوْتُها خاضوا بِسِرٍّ مَدامِعٍ أطْلَقْتُها[1]
قالوا : بمُهْجَتِه غَرامٌ ، قلتُ : ها شكْوَى بِسِرّ سَرِيرَتِى أعْلَنْتُها
لوْلاكَ ما أعْلَنْتُ ما أخْفَيْتُه

قلبى بِكلِّ مُشابِهٍ لكَ قَدْ صَبَا حَتَّى عَشِقْتُ لحسْنِ لَفْتَتِكَ الظِّبَا
ولكَمْ رأيْتُ منَ الهَوَى مُسْتَغْرَبَا أشْدُو لمن يَغْدُو أمامِى : مَرْحَبا
حَتى الرَّقيب أقولُ إنْ قابلْتُه

خاصمْتُ فيكَ عَشِيرَتى وتركْتُهم وَرضِيتُ حالةَ وَحْدَتِى وَهَجَرْتُهم
وإلى السُّلُوِّ دَعَوْا فما لبَّيْتُهم نَصَحُوا فلَم أعْبأْ بِهِمْ وَعَصَيْتُهم
واخْتَرْتُ حُبَّك مذهَبى وَرضِيتُه

تاللهِ ما هذا غزالٌ بلْ مَلَكْ أخذَ القُلوبَ بوجنتيهِ بلِ امتلك
يا بدرُ تَمَّ الحسنُ والإحسانُ لكْ عَطْفاً لِصَبِّك فالمتَيَّمُ قَدْ هَلَكْ
والصَّبْرُ فارقنى كما فارَقْتُه

ما بالُ قلبكَ لا يرِقُّ لحالتى ولكَمْ رثَى اللاحى وَرقَّ لِلَوْعَتِى
قل لى بِحقِّكَ : هَلْ أنِيْتُ بزلة حتى أُقاسى فى الحَياةِ مَنِيتى
أوْ خُنْتُ عَهْداً كُنْتُ قَدْ رَاعَيْتُه ؟

العَبْدُ يَرجو فى هَواكَ عِنايةً ويَوَدُّ يوْماً لوْ سمعْتَ شِكايةً
ذهَب الزَّمانُ وَما أتيْتُ جنايةً ووجَدْتُ مَعْ هٰذَا صُدودَكَ غايةً
هٰذا مُلَخَّصُ قِصَّتى أنْهَيْتُه

---

(١) فى المطبوع : مدامعى ، بدلا من : مدامع .

١٠٩ — وقالت أيضاً :

كيفَ القرارُ لمهجَتِي وعيونُه ... عن صفحة البيضِ المواضِي رَاوِيَهْ
آهًا لها من مهجة شَبَّتْ بها ... نارٌ وَما أدْرَى العواذل ما هِيَهْ
شوقٌ تكوّن من سعير مُحْرِقٍ ... لاغَرْوَ أنْ يُدْعىٰ بنارٍ حامِيَهْ
قَضَت اللَّوَاحِظُ بالصُّدُودِ وَمارَثَتْ ... يالَيْتَهَا كانت بوصْلٍ قاضِيَهْ

***

١١٠ — وقالت فى صدر رسالة :

أرسلتُ فى طىِّ النّسيم رسالةً ... فعسىٰ تزورُ دِيارَهُم وتَرُود
عَطّرْتُ أرْجَاء النّسيم كأنّما ... نُشِرَتْ عليه من الرِّياض وُرُود
وَلَبِثْتُ أنتظرُ الجَوَابَ فما أنَى ... ولَكَمْ لِكُتْبِى فى الديار وُرُود
إنّى لَأحْسُدُها عَلَى نَيْلِ المُنَىٰ ... فَأنا لِكُتْبِى ما حَيِيتُ حَسُود
فرسائلى البيضاء تحظىٰ باللّقا ... ياليتَ سُودِى باللّقاء تَسُود

***

١١١ — وقالت :

أُفْقُ البلاغة عَمَّهُ بسنائهِ ... بَدْرٌ سَمَا عن أن يَبِينَ مَثِيلُه
طُوبىٰ لعين تستنيرُ بنوره ... ولنعم مُتَّبِع سَنَاهُ دليله
لما أحاطَتْ بى دُجُنَّةُ صَدِّه ... والصبرُ ضاعَ حقيره وجليله
قلتُ : أنظُرُونا نَقْتَبِسْ من نوركم ... صِرْفُ التَّمَنِّى للمُشُوقِ خَلِيلُه

***

١١٢ — وقالت :

يابدر قد صَدَّقْتَ آمالى التى ... نُصِرَ اللقاء بها على التفريق
لا زالتْ الأيام تهـديك الوَفَا ... رَغْمَ الوُشاة وبغيـةَ الصَّدّيق

* * *

١١٣ — وقالت :

يابغيةَ الصبِّ رفقاً بالفؤاد فقـد ... أشجاه مابك من تِيهٍ ومن مَيَل
بالصدّ أهبتَ قلباً أنتَ ساكنهُ ... هَلَّا عطفتَ على سُكنك ياأملى
قابلتُ طيفكَ ليـلا كىْ أعانِقَه ... وقمت أنتَم ثَغْرًا شِيبَ بالعسل
فغمضَ الطرفَ عنى مُعْرِضاً ونأى ... بجانب التِّيهِ مُذْ وَلىَّ على عَجَل
فمهجتى أُحْرِقَتْ من حَرّ ماوجدت ... ومقلتى أُغْرِقَتْ فى دَمْعِها الهَطِلِ

* * *

١١٤ — وقالت :

أليسَ مضمَرُ أشـواقى بمنكتِم ... فـكيف أغْرَيْتمو دهرى بسَفْك دمى؟
والجفن حازَ انكساراً ناصباً لجوًى ... وعاملُ الوَجْـدِ أشقَى الحالَ بالسَّقَم
وإن رأى ناظرى شَخْصاً يعنِّفُنى ... فإن سمعى عن التعنيف فى صَمَم

* * *

١١٥ — وقالت :

كيف الخلاصُ وذِى اللَّحاظُ تصول ... والسيفُ من جفنيك لى مَسْلُول
وعقاربُ الأصداغ لمـا أن سَعَتْ ... أيقنتُ منهـا أننى مقتُولُ
ياظبيُ هل تدنو ليَسْعَدَ ناظرى ... بِلِقاك إن يَكُ للقـاء سبيل ؟
لاتخشَ من نظرى على خـديك أن ... يُبْدِى جراحاً والمياهُ تسـيل
شهدتْ عيونك فى إباحـة مأثَمِى ... فاحكُمْ قِصَاصاً فالشهودُ عدول

١١٦ — وقالت :

ألا بالله مَتِّعْنى بخمر يبرئ المصدورْ
فمثلى فى تقلُّبه على أيدى الهوى معذور
فؤادى آمِرٌ ناهٍ وعذرى أننى مأمور
فقال : إذاً يكون غداً لقائى ، إنه مبرور
وأما اليومَ معذرة إليك لأننى مخمور
شرابُ الأمس غالبنى فراقبْ جَفْنِيَ المكسور
أفيكَ الوعد ياهذا وسعيى فى الهوى مشكور
فقلتُ له : أتمزَحُ بى وتحرمنى اجتلاء النورْ
أتهزأ بى لأنك قد ترانى دائماً مدحور
إذا ما كنتَ رضواناً يكنْ لى أسوةٌ بالحور[1]
فَراقبْ أنت فى تَلَفى وحاذرْ لوعةَ المهجور
وعشْ دنياك مبتسِماً وفى عقباك كُنْ مأجور

* * *

١١٧ — وقالت :

يا من إذا ذُكِرَ اسْمُهُ أشتاقُهُ رِفقاً بِصَبٍّ سُعِّرَتْ أشواقُهُ
سكَنَ الهوى بفؤاده فتلهَّبَتْ نارُ الصميم وقد دَنَا إحراقُهُ
فغدا يقول من الصبابة للصَّبَا : مهلاً فقلبى هزَّنى إشفاقُهُ
هل تحملين إلى الحبيب رسالةً أجرى مياهَ مِدَادِها إغراقُهُ
كتبَ السطورَ وقد أفاضَ مدامعاً تشكو لهيبَ حميمها آماقُهُ
لما رأى صَدَّ الرِّفاق عن الوَفَا شرحتْ حديثَ شجونه أوراقه
فغدَا يُرَدِّدُ من هواه قائلاً : يامن إذا ذُكِرَ اسمهُ أشتاقُه

---

١ فى المطبوع : يكون ، بدلا من : يكن .

١١٨ — وقالت من المربعات :

مُذْ لَاحَ بَدْرِى مُشْرِقاً بَعْدَ الْبِعَادْ وشفا بدِرْياق اللِّقَا أَلَمَ الْفُؤَادْ
نادَيْتُ عُدْ لِي ياصَفا فالأُنْسُ عادْ جَلَّ الذى هَنَّى فؤادى بالمراد

دور :

هَنِّى المنازلَ ياصَبَا بحضورهم وتحمَّلِي فِي الكون نَفْحَ عبيرهم
وتَرَدَّدِى سَحَراً لشَرْح صدورهم وَدَعِى القصورَ وَعَرِّجى بقصورهم

دور :

أَرِنَا زَمانَ الأُنْسِ باوجْهَ الحبيب وَاُحْذَرْ حماكَ اللهُ أن يَدْرِى الرَّقيب
دَعْنِي لأنى باللِّقَا قلبى يَطِيبْ وَدَعِ العلاجَ وما يقولُ به الطبيب

دور :

فَوَحَقِّهِ مالِي سِوَاهُ تَخَيُّلُ أبداً ولا لِى عَنْ حِمَاهُ تَحَوُّل
مالى لهُ إلا هواهُ تَوَسُّل فالحبّ أحسن ما به يتوَصَّل

***

١١٩ — وقالت :

كانت عناصرُ جسمى لا يقاربُها طَلُّ السَّقام وقد أمسَى بها وَابِلْ
وكيف لا وبقلبى زَفْرَةٌ وعنًا وأعيُنُ الغِيدِ تَروِى السِّحرَ عن «بابل»
والجسمُ من سُقمِهِ صَدَّ العِلاجَ فما أرَى فؤادى لُجرعاتِ الشِّفا قابلْ
لو شَخَّصَ الداءَ «جالينوسُ» أعجزَه وقال « لُقمانُ » : تكلَّفنى به باطل
كَيف الشفاء ومَن أهْواهُ فَارَقنى هيهات إن الجوَى بحرٌ بلا سَاحِلْ
جاء الطبيبُ يداوينى فقلتُ له : دَع عنك طِبِّى ولا تَتْعَبْ بلا طائل
تعذَّر الطِّبُّ والبُرْءُ انزَوَى وَنأى عنى وَلونَ مِن فعلِ الهوَى حائل
ما يَنْفَع الطبُّ والأحشاءُ فى حُرَقٍ والجفن مِن فرطِ وَجْدى دمعهُ هاطل

إن كنتَ تنكر ما بى من جَوى وَضنًى ... فجُسَّ نبضى فهوَ الشاهدُ العَادِل
فقالَ لى بعد جَسّ النبض : واأسفا ... الداء إنْ عظُمَتْ أعراضُه فاتلْ

* * *

١٢٠ — وقالت :

لاحَ الصَّبوحُ وبهجةُ الأوقات ... فاشربْ وعاطِ الصبَّ بالكاسات
واجْلُبْ براحك للقلوب تَرَوُّحاً ... فالراحُ تُبْدِعُ نشأةَ اللذات
وانهَضْ فديتُك فالزَّمان مراقبى ... ما الحظُّ لى فى كل يومٍ آتى
وَدَعِ الوُشَاةَ وما تقول عواذلى ... فالعين عينى والصفاتُ صفاتى
دَعْنِى وما لاقَى الفؤادُ بحبِّهَا ... لما صَبَا بشقائقِ الْوَجنات
لا غَرْو أن كان الرشيقُ يديرها ... فى مَعْهَدِ الغِزلان والبَانَات
فأنا الأسِير بِظلِّ رَوْضِ كُرُومِها ... وَلَوَ انَّ فى عِتْقِى شَهِىَّ حياتى[1]
وأنا الشهيد بحبِّ ذَوْقِ عَصيرها ... إن كان فى حَبَبِ الكئوس مماتى
جَهِل العَواذل ما تريدُ بشُرْبِها ... نفسى وما تلقَى من السَّكرَات
وتَسَلِّياً عن جفوة أم صبوة ... لفؤادِىَ المضنَى من الحسَرات
شتّانَ بين ظنونهم وسرَائِرى ... واللهُ يعلمُ منتهىٰ غاياتى
كم باتت الأحداق يَسْقِى طَلّها ... روض الجوَى وحدائق اللوعاتِ
يا عاذلى كُفَّ الملامَ فإننى ... صَبٌّ بدتْ بين الورَى آياتى
قل ما تشاء فإنّ قولك مُطرِبى ... وحديثُ مَن أهوَى دوَا عِلاّتى
إن شئتَ لمنى أو فهَدِّدْ وانهَنِى ... فأليمُ لَوْمِكَ فى الهوَى لذّاتى
لعِبَتْ بِىَ الأشجان حتى إننى ... لم أدر مَن أهوى ومَن هِىَ ذاتى
ورسَا بى الشوْقُ الخئونُ لمعهد ... أهُوَ اللظَى أم غرفة الجنّات ؟

(١) فى المطبوع : الأثير ، بدل : الأسير .

١٢١ — وقالت :

علامَ تَصُدُّنى وأراك دَوْماً ... تميلُ مع الهوَى يا غصنَ بانِ
رُوَيْدَكَ قدْ قُتِلْتُ من التَّصَابى ... وذاكَ دمى بأطراف البَنان

* * *

١٢٢ — وقالت :

حىَّ الرِّفاقَ وصِف للحىّ أشْواقى ... وحدِّثِ الرَّكْبَ عن تَسْكابِ آماقى
وبَلِّغى يا صَبا إن جزتِ نحْوَهمُو ... أنى مُقِيمٌ عَلَى عهد الهوَى باقِ
كَيف اصطبارى وأحشائى بها حُرَقٌ ... مِن جَذوَةٍ ما لها مِن حَرِّها واقى
قد جرَّعَتْنى صُرُوفُ الدهْرِ مُرْتغِماً ... لَوَاعِجًا كَحَمِيمٍ أوْ كَغَسَّاقِ
أسالَ حَرُّ الهوَى قلبى وأبرَزَه ... جَفْنِى عَلَى يدِ آماقى وأحداقى
هذا شُوَاظُ الهوَى فى القَلب ملتهبٌ ... وفى التَّنَفُّسِ من آثار إحراقى

* * *

١٢٣ — وقالت :

لحظٌ عَلَى الْفَتْكِ يُبْنَى دائماً أبداً ... ما بالهُ مُعْرِباً فى كَسرِهِ غمْزَه[1]
حارَ النحاةُ بإعرابِ الجفُونِ وما ... وفَّى « الكسائى » بإقناعٍ وَلا « حمزه »
يا بدرُ سَلْ مِن أخِيكَ الْبَدْرِ مَرْحمَةً ... واحذر إذا جئتَه من جَفنِهِ رمزه

* * *

١٢٤ — وقالت :

جُد يا صَبا لحليفِ الْوَجد والسَّقم ... براحِ ذكرَى أخلائى بذى سَلم
واسْتَفْتِ حالى لَمَاهُمْ عن لظى ظمإٍ ... وانظر لحالى ودَعْنى والِهًا بِهِم[2]
مرَّتْ لَيالٍ بشهْدِ الأنس حالِيةً ... لكنها فى النوَى مَرَّتْ لِبُعْدِهِم

---

(١) فى المطبوع : مغربا ، بالغين المعجمة ، بدل : معربا ، بالعين المهملة .
(٢) « واستفت حالى لماهم » : أى استفت حلو ريقهم .

واستخدموا مهجتى فى الحبّ واقتدَروا ... وكلّفونى بصبرٍ فيهِ منعدِم
زادوا ضِيَا مقلتى ضِعْفين إذ حضروا ... وضَاعفوا النقص فى تغييب طَيْفهم
صانوا صَدَى أسَفى عن سمع عاذلهم ... لكنهم مزَجوا دَمْعًا جرَى بدم
عُرْبٌ لهم فى ليَالى الهجر لامعة ... وفى النهار نفورٌ زاد فى ألمى
ما حيلتى مُذ نأَوْا عنى بِجانبهم ... إلا رجاء وِصال الطيف فى الحلُمِ
لا عنْ رضًا ما جرى من بُعْدِهم فجرَى ... مِن بَعْدِهم غَيْثُ دَمْعٍ واكِفِ الدِّيَمِ
« فما لعَينىَّ إنْ قُلْتُ اكْفُفَا هَمَتَا ... وَما لِقَلْبىَ إن قلتُ اسْتَفِقْ يَهِم »
رُوحى الفداء لمن بانوا فمَا سَتَرَتْ ... شئونُ عَينىَ ما بِالْقَلْبِ مِن ضَرَمِ
وبى مِنَ الْغِيدِ مَنْ ألهتْ شمائله ... فُؤادَ عَاشِقه عن جيرَةِ الْعَلَمِ
حُبٌّ أرَى قدمِى تَسْعَى لِساحَتِه ... ومَا عَلِمْتُ هَواهُ كمْ أراقَ دَمِى
فإنْ وَفَى فَلَهُ فضلٌ وإنْ لهُ ... عَدْلاً إذَا ما جَفَانى غَيْرَ مُتَّهَمِ
عَلاقَتِى فى الهوَى أضْحَتْ مُبرَّأةً ... وذِمَّتى إن نَسُوا جَلَّت عن الرَّخَمِ
وعِفَّتِى فى الهوَى الْعُذْرِىّ ناصرتى ... وعصمَتى عِصْمتى عنْ زَلَّةِ الْوَصَمِ

* * *

١٢٥ — وقالت :

يَا مَنْ تَنَزَّهَ عَنْ شِبْه يُماثِلُه ... فِى غُرَّة الْحُسن أو فى رقّة الشِّيَمِ
أنرتَ بالحسن مِشكاةَ الجمال وقد ... ضَاءتْ بأنوارِكَ الدُّنيَا مِنَ الظُّلَمِ
لو خالك البدرُ يوماً قال مندهشاً : ... أنتَ الصباحُ وأنْتَ النُّورُ للأمم
أنا المسَرْبَلُ بالأعْذَار مِنْ كَلَفِى ... إذَا الْتَقَيْنَا وَأنْتَ الرَّائقُ الوَسِمُ
طُوبَى لِعَيْنٍ بِذَيَّاكَ السَّنا اكتحلت ... إنْسَانُهَا فِى سِوَى اللّذاتِ لم يَنَم
فيَارَعَى اللهُ أحْدَاقاً لهُ نظرتْ ... قِدْماً وَحَيَّا لساناً فازَ بالكَلِم
أيامَ وَافَى وَكانَ الْوَقْتُ مُبْتَسِماً ... صَفْوًا وكنّا بشَمْلٍ منهُ منتظِم
أسيرُ حُبِّكَ يابَدْرُ أنبرَى شَجَناً ... حتى كأنَّ الهوَى يهواهُ مِنْ قِدَمِ

شمسُ الفصاحة أضحتْ منكَ مُشرقةً ... فيالها نعمةً من أكبرِ النِّعَمِ
فكيف بي و بقولي أنْ يُحيطَ على ... قصور باعي بما أحرزتَ من كرم
وهذه كلماتٌ قادها شغَفٌ ... إليكَ لولاهُ لم تَبْرُزْ من القلم
جاءت ومن خَجَل تمشي على عَجَل ... تخافُ عند لقاها زَلّة القدَم
فحيِّها بقبولٍ فهْيَ راجيةٌ ... «غرفاً من البحرِ أو رشفاً من الدِّيَم»

* * *

١٢٦ — وقالت :

قلبٌ بفرطِ الشَّوْقِ مُنْفَطِرٌ أليمْ ... يُهْدِي تحيتَهُ أرقَّ من النَّسيمْ
وَيَشِفُّ عن وجْدٍ كما يَرْضَى الهوى ... وَيُبينُ عن حُبٍّ وعن وُدٍّ سَليمْ
نَقَضَ الأحِبَّةُ عهدهم مَعَ أنّه ... أبَدًا عَلَى عَهْدِ الهوى العُذْرِي مُقيمْ
قَسَماً بتعذيب الغرامِ وإنّه ... قسمٌ — وَلَوْ لم يَعْلَمِ اللاحِي — عظيم
مَا مِلْتُ عن عهدِ المحبّة لحظةً ... لَسْتُ امْرَءًا يُصْغِي لِهَمّازٍ نَمِيمْ
وَلِذَاكَ وَجَّهْتُ العِتابَ وَإنّما ... شأنُ الحميم يُعاتِبُ الخِدْنَ الحميمْ
ما كنتُ آمُلُ فِي غِرَامكَ ما أرى ... إن الزمان بكل ضِدِّيقٍ زَنِيمْ
وظننتُ صِدْقَكَ فى دعاويك التى ... سَلَفَتْ و بعضُ الظّنِّ مُنْحَرِفٌ أثِيمْ
والمرءُ يَقْبُحُ مِنْهُ خُلْفُ وُعُوده ... لاسِيَّمَا إنْ كانَ مِنْ أصْلٍ كريمْ
ولهُ المفاخِر إن سَرَتْ أفعالُه ... فى نهجها نحوَ الصراطِ المستقيمْ

* * *

١٢٧ — وقالت :

مَلَكَ الفؤادَ وقد هَجَرْ ... بَدْرُ المحاسِنِ مُذْ ظَهَرْ
عَذْبُ الرُّضَاب مهفهف ... يَسْبِي المتيَّمَ بالْحَوَرْ
ما حِيلتي فى حُبِّه ... إلا الخضوع لما أمر

مَنْ مُنْجِدى وجفونُه منها المحبّ على خطر
وَاحيرتى فِى حُبِّـه وَا طُولَ شَجْوِى بالخَفَر
أشكو الغرامَ ويشتكى جَفْنٌ تَعَذَّبَ بالسَّهَر
ياقلبُ حَسْبُكَ ماجرى أَحْرَقْتَ جِسْمِى بالشَّرَر
رامَ الحبيبُ لك الضَّنا لِمْ ذا وأنْتَ لَهُ مَقَرّ
لـكنّ تعذيبَ الهوى ما للشّجِى منهُ مَفَرّ
قابلتُـــه مُتَثَنِّيـا ناهيكَ من غُصْنٍ خَطَرْ
ورأيتُـــه مُتَبَسِّمًا كالبـدر لما أن سَفَر
يابَدْرُ حَكَّمَكَ الهوَىٰ فاحكم ونَفِّذْ ما أمَرْ
أَلْقِ الْوِشاحَ وَخَلِّنِي أَصْلَىٰ سَعِيرًا فِي سَقَرْ
وعنِ الْعِذَار فلا تَسَلْ وَلَأَنْتَ أَوْلَىٰ مَنْ عَذَرْ
وَدَعِ الظَّلَامَ على الضِّيا وَاُستر بِطُرَّتِكَ الْغُرَر
سامَتْ بها الثَّغْرَ الذى يَفْتَرُّ عَنْ غالى الدُّرَر
وَاصْدَعْ بحسنك وافْتَخِرْ تِيهًا بِجِيدِكَ والطُّرَر
فالشمس تَخْجَلُ عند ما تَبْدُو وَيَسْتَحْيِي الْقَمَرْ

***

١٢٨ — وقالت :

مَلَّكَ الفؤادَ وقد وشىٰ بَدْرٌ تَكَنَّىٰ بالرَّشا
عَذْبُ الرُّضَاب مهفهف يَسْبِى الشَّجِىَّ إذا مَشَىٰ
ما حيلتى فى حُبِّـــه إلا سـهيرٌ فى الحَشا

***

١٢٩ — وقالت :

جُزْ يا نسيم على بَانِ النَّقَا وسَلِ ... عن الأحبةِ : هل مالوا إلى بَدَل
واشرَحْ صبابةَ صَبٍّ دمعُه هَطِل ... لولا همو لم يَجُدْ بالمَدْمَعِ الهَطِل
وحَيِّهِم بتحياتٍ مُعَطَّرة ... بالمسك واسلُكْ إليهم أقربَ السُبُل
وإن تعذر فيما بيننا رُسُل ... فإن مَسْرَاكَ يغنينا عن الرُّسُل
فإنهم مُنْذُ ما سَارَ الفريقُ بهم ... ما لذَّ لى العيشُ فى قولٍ ولا عَمَلِ
والقلبُ باتَ وأمسَى حشوُه شَغَفٌ ... والدمعُ كالمُزْنِ إن تحبِسْه ينهمِلِ
من لى بتنزيهِ عينى فى محاسنهم ... كى تشتفى بتهانِى قربهمْ عِلَلِى
إنسانُ عينى غريقٌ فى مدامعه ... فكيف يخشَى على هذا من البَلَل
لما نأوْا عن عيون ظَلْتُ مكتئبا ... حِلْفَ الهُيَام وقلبى دائمُ الوَجَل
لولا الأمانى أغاثتنى عَواطِفُها ... لراحت الرُّوح بين الرَّسْمِ والطلل
كم بين روحىَ والإتلاف معترَك ... وكم لجفنى مع التسهيدِ من جَدَل
وكم قطعتُ الليالى فى مَحَبَّتِهم ... وكم أَرِقتُ ونجمُ الليل يَشْهَدُ لى
أبيتُ ليلى أناجِى الشُّهْدَ منتظراً ... غَمْضًا وما السهدُ عن جفنى بمنتقِل
إن غبتَ روحى فَمَيَّاسُ القَوَام له ... بين الضلوع احتفالٌ أىّ محتفَل
حيّاك عنى سُعودُ الفوزِ مبتهِجاً ... بلذة العيش مسروراً وبالامَلِ

* * *

١٣٠ — وقالت :

قد صَدَّنى ودواعى الحبِّ شاغلتى ... والليل طال جَوًى والقلبُ مشغول
أبان لى حُسْنَ تِيه راقنى شَغَفا ... وهِمْتُ بالتِّيه حتى قيلَ مقتول
أضاعنى عند ما أَوْمَى بحاجبه ... وطَرْفُه من بديع السحر مكحول
وشَقَّ ياقوتة فى طيِّها دُرَر ... عند التبسُّم حتى قلتُ إكليل

نفسى مطيعتُه إن رام قتْلَتَها ... إذ كل ما يفعل المقبولُ مقبول
تَلُومنى فى ذهاب الصَّبْرِ عاذلتى ... وعَقْدُ صبرى إذا ما بان محلول
طوَيتُ ليلِيَ ، مشغوفاً بطلعتِه ... والعينُ شاخصة والكفُّ مغلول

* * *

١٣١ — وقالت فى الأدوار الرباعية :

قَسَماً بأنصارِ العيونْ ... وبعزَّةِ القَدِّ المصون
ذُلّى وأسرى قد يَهُون ... فى حبِّ من رَفَع اللِّوا

دور :

قد بان منقوطُ الخدودْ ... بالخالِ وابتعدَ الصُّدود
لو جاز للمُضْنَى السجودْ ... لسجدتُ شكراً للهوَى

دور :

أفديكَ ياغصنَ النقا ... ذابَ الشَّجِى ولَكَ البقَا
مجنونُ « ليلى » ما التقَى ... ما قد لقِيتُ من الجوَى

دور :

كم قلتُ ياحلوَ الخِضابْ ... داوِ المتيَّمَ بالرُّضَابْ
واسمح لصَبِّك باقتراب ... مالى سِوَى هذا دوا

دور :

قَسَماً بلحظِكَ والخدودْ ... وبنارها ذاتِ الوَقُود
وبِلِينِ عِطْفِكَ والقُدود ... تَرْثِي لصَبٍّ ماغَوَى

دور :

يكفى صُدُودُكَ ياغزالْ ... عَطْفاً لعُشَّاق الجمال
ألحاظُك المرضَى الكِحَالْ ... « هاروتُ » عنها قد رَوَى

* * *

١٣٢ — وقالت :

مال الفؤادُ لغصن باللَّمَى ثَمِلِ ... من ميله لعِبتْ أيدى النسيم بِهِ
أمالَ جِيدَ الظَّبَا من لينهِ شغفا ... والميلُ فى الظَّبْيِ من أقوى مذاهبِهِ[1]
وارتْ ذوائبُه شمساً فغُرَّتُه ... تحت الشعور كليلٍ فى غياهبِهِ
شبَّ الجوَى بين أحشائى لرؤيَتِه ... فقمتُ واللحظُ يُصْمِى فى مَضَاربه
سألتُه رحمةً منْ لحظه فأبى ... وزاد قلبىَ تبريحاً بحاجبِهِ
من سِحْرِ أجفانه « هاروتُ » قابلنى ... ومدّ فى صُدغه إحدى عقاربه
وكنز مَبْسِمِهِ الزاهى ولؤلؤُه ... مُرَصَّدٌ بأفاعٍ من ذوائبِهِ
لما رأى حيرتى فيه انثَنَى عجباً ... وقال : إنَّ الهَوى يُودِى بصاحبه
فقلت : ياهازئاً بالصَّبِّ ، تعرف ذا ... ما بال قلبك لا يعنُو لواجبِهِ ؟

* * *

١٣٣ — وقالت :

سَيْفٌ بجفنك دائماً مسلول ... ما أنت عن فَعَلاتِه مسئول
شهدت عيونُك أن لحظَك قاتلى ... وقِصَاصُه حقٌّ وهنَّ عدولُ
لما رأتْ منصوب قلبى وهْو فى ... صِلةِ العذاب لوصله موصولُ
بنيت على كسرٍ وعاملُ سحرها ... تقديرُه أن الشجِى مقتولُ

* * *

١٣٤ — وقالت :

أسيافُ جَفنك فى الفؤاد حِدادُ ... فعلام يُبْنَى كسرها المعتادُ
أجفانها مَرْضَى وكَمْ سفكتْ دماً ... وسطت على الآسادِ وهْى شِدادُ

* * *

(١) فى المطبوع : جيد الظبى ، بدل : جيد الظبا .

١٣٥ — وقالت فى بعض مراسلة :

طِرْسُ المحبَّةِ بالجوَى مختوم ... وسطورها للعالمين علوم
فلكل حرف فى الضمير صحائف ... طُبِعَتْ لها فوق القلوب رسوم
كم يشتكى القرطاسُ لوعةَ لامس ... لكنَّ سِرَّ المشتكِى مكتوم
إن قيل: لا كتمانَ للشاكى فقُلْ: ... متنُ الصبابةِ شرحُهُ معلوم
والصبُّ بين تجلُّد وتهتُّك ... فالدمعُ يُظْهر والفؤاد كَتُوم
يا عاذلاً لِأُولى الضَّنا كن عاذراً ... فَصَبَا المحبةِ للكئيب سَمُوم
قل ما تشا فالحبُّ سلطانٌ له ... مما يُوَلِّى عادلٌ وَظَلُومُ
إن طال لومُك لم يزدْ عن لوعةٍ ... جِسْمُ الشَّجِىِّ بحرِّها محموم

* * *

١٣٦ — وقالت متغزلة فى غير إنسان ، والقصد تمرين اللسان :

يا من أُفاخرُ فى محبتِه ومن ... أصبُو إذا ذُكِرَ اسْمُهُ فى مجلسِ
الورد لو فى الخدّ صاحبُ شوكة ... فَلِمَ ارتَضى بعلوّ قدر النرجس
مابال سهم اللحظ حَلَّ بمهجتى ... أوَّاهُ من أفعال هاتيك القِسِى
يسطو ولا يخشَى ملامةَ لائم ... ويجورُ وَهْوَ مُحَكَّم فى الأنفس
ففؤادُه كالصَّلْد إلا أنه ... تزهو محاسنُهُ بروضِ السُّنْدُسِ

* * *

١٣٧ — وقالت :

مولاى كم حَمل النسيمُ سلامى ... فعلام تعنيفى وطولُ ملامى
ولكم بعثتُ مع البريدِ رسائلا ... ومُنعتُ حتى الطيفَ فى الأحلام
ولطالما ضحكتْ بروقُ رسائلى ... لما بكتْ بصريرها أقلامى
فسلِ النسيمَ عن المحبِّ فما به ... إلا سهادٌ معْ مَزِيد سقامِ

قلبي بحبِّك يا غزال متيم يشكو ظَماهُ لثغرِك البسَّام
واسأل خيالَك عن هَوَاى فإنه فى الليل مَعْ طول النهار أمامى
أنا لا أحولُ عن الوِدَادِ فإننى فى مَبْدَإِ الأشواقِ مثلُ ختامى

* * *

١٣٨ — وقالت فيما تصدر به الرسائل :

سَطَرْتُ الدُّهْمَ بالشُّهبِ وقلبى ظامئٌ وَلِهُ
وَلِى شوقٌ يلِى شَجَناً وكم لِى فى الهوَى وَلَهُ

دور :

على صَحْب أُجَنَّ بهم ونادٍ راقَ رونَقُهُ
وإنسانى بجمعهمو له دمعٌ يُغَرِّقُهُ

* * *

١٣٩ — وقالت أيضاً :

سَطَرْتُ الدُّهْمَ بالشُّهْبِ وقلبى زائدُ الكَرْبِ
ينادى : إننى صادٍ إلى الأحباب والصَّحْبِ

دور :

ولى عين لها مُزْن كطَلٍّ دائم الصبِّ
وتلك هى التى جَلَبَتْ عذابَ الحبِّ للصبِّ

* * *

١٤٠ — وقالت :

قَدْ ضَاعَ عمرى فى تَشَمُّتِ عُذَّلِى والصبر فارقنى وجسمى قَدْ بَلِى
هل فى الهوَى حكم فأشكو حالَه إن صادَفَتْ عدلاً يتِمُّ الحكمُ لى

* * *

١٤١ — وقالت من المربعات :

قاطعتمونى سادتى ما بالكُمْ وأنا الذى أغرَى هواه جمالكم
وتركتمونى حين بانَ وِصالكم أشكو الحريقَ وفى الثغور رَحِيق

دور :

ما بالُ هذا الدهرِ غيَّرَ عهدَكم وأبان مِنْ بعد التواصل صَدَّكم
فارقتمو بعد التجمُّع عَبْدَكم والجمعُ شأنُ الدهرِ والتفريقُ[1]

دور :

ما حيلتى إلا مسامرة الدُّجَى لما استحال الظنُّ وانقطع الرَّجَا
لكنَّ لى بجمالكم حُسْنَ التِجَا وَمَنِ التجَى لكمو فليس يَضِيقُ

* * *

١٤٢ — وقالت :

عقدتُ عزمى وهم حَلُّوا عزائمهم وفى العزائم محلول ومعقود
ما طَابَقُوا حين لم يُبْدُوا مجانسة ولا تشابَهَ معدوم وموجود
أُبْدِى ائتلافًا وَيُبْدُونَ الخِلَافَ وقد غدا لهم فى جيوش الهجر تَجْرِيد
وكم أقابلهم مستنجزًا ولهم لسوء حظىَ فى الإعراض ترديد
لو للسعادة عَيْنٌ فى مساعدتى ما كان لى ساعد بالطَّوْقِ مشدود

* * *

١٤٣ — وقالت :

ألا بالله مَتِّعْنى بدرٍّ ثم ياقوت
فَلَفْظُكَ مطربٌ سمعى ومبسِمك الشهِى قوتى[2]

---

(١) فى الأصل المطبوع : « والتعويق » بدلا من « التفريق » .
(٢) فى الأصل المطبوع : فلافظه ، بدلا من : فلفظك .

١٤٤ — وقالت :

إن بان خَبْنِي بلقيا كم فلى زَمَن ... يَطْوِى خَبَالَ الأسى فى راحة الأسف
تَبَتَّتْ يداه فكم بالكفِّ أعصبنى ... عن اللقا وانثنى للزَّحْفِ فى تَلَفى
أوْ زاد جسمى اعتلالا بالخفيفِ فلى ... رُوح لديهم وشكلٌ حاضر وخَفِى
مجموعُ أوتادِ قلبى فى الهَوَى افترقَتْ ... وما لذلك أسبابٌ سوى الصَّلَفِ
عاقبتمونى وما راقبتمو ذِمَماً ... وكم قطعتم ولم تَرْثُوا إلى شَغَفِ
يا كاملَ الحسن أسرِعْ بالوصالِ فلى ... دَهْرٌ مديد وأحشائى على جُرُف[1]

* * *

١٤٥ — وقالت :

بالجَفْنِ سُقْم وبالأهداب إيماء ... وفى اللواحظ تحذيرٌ وإغراء
وبالحواجب نونٌ وَالعِذَار به ... لامٌ وخالاه مع وَجْنَاتِه تاء
والقَدّ كالغصن لولا نَبْلُ حاجبه ... غَنَّتْ عليه إذا لم يمش وَرْقَاء
لله درُّ الثنايا كم لِسَلْسَلِهَا ... لدى الرُّواة أحاديث وأنباء
من بعد ما اخضرَّ عيشى اغبرَّ رَوْنَقُهُ ... وأدمعى لبياض الفَوْدِ حمراء
والجفن أهدَى لنا بالإنكسار جوًى ... وكيف صَحَّ لذى الأسقام إهداء[2]

* * *

١٤٦ — وقالت :

يا بدرُ رِفْقاً بالفؤادِ فإنه ... أضحَى بمعتلِّ النسيم عليلا

---

(١) فى أبيات هذه القطعة تستخدم الشاعرة مصطلحات علم العروض ، كالجبن ، والكف ، والعصب . . . . الخ

(٢) فى المطبوع : لدى ، بدل : لذى .

مما يحمّله إليـــك تحية ... فى كلّ يوم بكرةً وأصيلا
فله عَلَىَّ يَدٌ أُدِين بشكرها ... إذ ما اتخذتُ سواه قطّ رسولا
إن رمتُ إبرازَ الضميرِ فإنه ... يحتاجُ شَرْحاً فى هواكَ طويلا
دَنِف أضاعَ العمرَ فى لكن ولو ... وَعَسَى وَلم يَشْفِ الكلامُ عليلا
وقد اكتسَى ضَعْفاً أضرَّ بجسمه ... حتى يرى حَمْلَ القميصِ ثقيلا

* * *

١٤٧ — ولها مفرد :

موصول لطفك لا أفيكَ بشكره ... صِلَتِي إلى نعماك خَيْرُ جزائى

* * *

١٤٨ — وقالت :

تهادَيْنَا الزهورَ فعطَّرتنا ... وللنَّسماتِ تعطيرٌ مُضَاعَفْ
سألنا : ما الذى أزكَى شَذَاهَا ... فقيل : لأنها نَفَحَاتُ « آصِفْ »

* * *

١٤٩ — وقالت أيضاً :

أتُهْدِى بالزُّهور لطِيبِ عَرْف ... ونفحُ العِطْرِ فيها مُسْتَعَارُ
وفى الأنفاس ما يُنْسِى شَذَاهَا ... وإن يكُ فى الرياضِ لها ازدهارُ
فخاطبْ مَنْ شُغِفْتَ بِهِ شِفَاهاً ... غذاءُ الروح ذاك الإعْتِطَارُ

* * *

١٥٠ — وأجابت عن قول بعض الأدباء ، وهو :

ماذا تقول إذا اجتمعنا فى غَدٍ ... وأقولُ لِلرَّحْمَنِ : هذا قاتلى ؟

فقالت :

إن كان موتُك من قِبَىَّ حواجبٍ ... كالنون أو من سِحْر جَفْن ذابلِ
أو غُرَّة مثـــل النهار وطُرَّةٍ ... كالليـل أو من جَوْرِ قَدٍّ عادل
أو من لِحَاظٍ تَسْحَر الألباب إذ ... تَرْوِى لنا سَلْبَ النُّهَىٰ عن «بابلِ»
فَهْىَ الّتِى فعلَتْ ولم أشْعُرْ بما ... فَعَلَتْ فكيف تلومُنِى يا سائلى
أنَا ما قَتَلْتُ وَإنّمَا أنا آلة ... فى القتل فاطلبْ إنْ تُرِدْ مِنْ قاتِلِى
ومتى أُريدَ قِصَاصُ سَيْفٍ أوْ قَنًا ... هل من سميع مثـلَ ذا أو قائل ؟
واللهُ قد خلقَ الجميـلَ ولم يَقُلْ ... هِيمُـوا بِلَيْنِ قَـدِّهِ المتمايلِ
ما قالَ رَبُّكَ قَطُّ : يا عَبْدِى أطِلْ ... نَظَرَ المِلَاح ، ويا جَمِيلَةُ : وَاصِلِى
فَعَلَامَ تَطْلُبُ بالدِّماء وَتَدَّعى ... زُورًا ، وَتَطْمَعُ فِى مُحَالٍ باطِلِ ؟ !

* * *

١٥١ — وقالت :

ما كنتُ أعهَدُ ما بالبُعْدِ مِن أسف ... ولا أعِى فيهِ حالاً كان قبلُ خَفِى (١)
حتى تقلبتُ فى أحصابِ حُرْقتـه ... وصرت مما ألاقى عاذراً سـلَفى
لا غَرْوَ إنَّ الصَّـبا يأتى بنفْحَتِـكم ... وكلما مرَّ أغْدُو بالغـرامِ هَفِى
ولم أنل مِن نسيم الصبح لى أرَباً ... يشفى فؤادى مِنَ التسهيد والشَّغَفِ
لما يئِسْتُ ولَمْ يسـمح لملتمسٍ ... قاضى الهوَى بنشيق من هَوَاك شَفِى
خاصمْتُ كلَّ نسيم فيك مُبتَـكَراً ... وعِفْتُـهُ بِخَيـالٍ مانِس الهَيَف
خَلوتُ للْخِلِّ خَلْوَاتى وخِلْتُ بِهـا ... خُلوَّ صـدرى مِنَ اللَّوْعات واللَّهَفِ
نَفَيْتُ طِيبَ الكَرَى لِلقَدِّ منتظراً ... وكم شـكوْت بِقلْبٍ خَافِقٍ رجِفِ
فيَـا لهُ مِنْ خيَـالٍ غَرَّنى ونأى ... وقد رمانى بسهم السُّهْدِ والـكلَفِ

(١) فى المطبوع : بالعبد ، بدل : البعد .

مَيَّاس قـدّك عنـدى غُدْوَةً وَمَسَا ... فَلاَ تَضَنَّ بمـرآه على الدَّنِف
حَرّ ٱلنِّهَابِي وَوَجْدِي واحتراق دمى ... بِفيح وادِى الغَضَا عَمَّنْ سِوَاكَ خَفِى
لمـا بَصُرْت بما لا يُبْصِرُون بهِ ... يا سَامِرِىَّ فلا تَعْجَلْ عَلَى تَلَفِى
وراجع النَّفْسَ إنِّى قَدْ ضَلَلْتُ بها ... عَمًّا عَدَاكَ فلم أَبْرَحْ ولم أَقِفِ
فقال لى بابتسام من مَبَاسِـمه : ... يا مُؤْمِنَ القلب لا تحذَرْ ولا تَخَفِ
ما كنتُ إلا خيالاً معنوىَّ لِقًا ... لا يستفيدُ الشَّجِى منى سِوى الـكَلَفِ

* * *

١٥٢ — وقالت :

إن فزتُ بالقُرْبِ أَقْصَتْنى حواجِبُه ... وخوفُ لَحظِيه يغنينى عن النَّظَر
وَإنْ جَنَحْتُ إلى الهِجْران أزعجنى ... إلى جَمِيلِ لقاه ضَعْفُ مُصْطَبَرِى

* * *

١٥٣ — وقالت :

روحى بِقُرْبِكَ قد نالتْ من الأرب ... ما تَرْتَضِيهِ فَمُرْهَا فى الهوى تُجِب (١)
فَضَعْ يمينَك فضـلاً فوقَ مهجتها ... تكفَّ بالـكفِّ ما عانَتْهُ مِنْ وَصَب
لا تنـكرنَّ مزَايا الحبِّ إنَّ لهُ ... فى الراحتَين لراحاتٍ مِنَ التَّعَب
وانظر ترَ الصَّبَّ مُلْقًى لا حَرَاكَ به ... بالكِ تردَّد بين المـاء واللَّهب
من رُوح ربك روح قد خُصِصْتَ بها ... فامنَحْ بها مهجةً إنْ تَلْتَفِتْ تَجِبِ
لا تَبْخَلَنَّ عَلَى نفسٍ فُدِيتَ بِهـا ... وأَنْعِشَنَّ بِهـا قلبى من النَّصَبِ
وقل لإنسانك الجـانى عَلَى تلفى : ... بأىِّ ذَنب لِقَتْلِى زِدْتَ فى الطلب
نَصَبْتَ لحظًا لقلبٍ مُؤْمِنٍ كلِفٍ ... فَصَار فى الحبِّ مَهْدِيًّا إلى النُّصُب
بموسم الأنس سيف اللحظ جَرَّدَهُ ... وهزَّ نحوى قَواماً فى الدلالِ رُبِى
أَلزَمْتُـه وهْو وسنَانُ الهوَى دِيَتى ... فأَسْدل الهُدْبَ لى عُجْبًا ولَمْ يُجِب
جَدْواك بالْعَفـو مذ جَلَّتْ مآثِرها ... تسمو عَلَى كل مَا يَسْمُو من الرُّتب

(١) فى المطبوع : « ترضيه » بدلا من : « ترتضيه » .

نحنُ الخلودُ منَ العُشاقِ إن رشفَتْ ... تلك الثنايا وما فى ذاك مِنْ عجَبِ
شِفَا شِفَاهِك منه الصبُّ يا أملى ... فى غُنْيةٍ عن طبيب حاذق وغَبِى
أعزّك اللهُ بلِّغْ ما أتيتَ به ... بعادل لو تثنى قيل أنتَ نبى
فأمة العشق لاقتْ فى الغرام لظى ... كأنما قد تبنّاهم « أبو لهَب »
أنتْ لحيِّك والأبصارُ شاخصة ... يستشفعون بذاك العادل الرَّطب
فادرأ بعفوك مالاقوْه من سَعر ... واحكم كما ترتضى فى الحبّ وانتخب
صُفَّت موازين زفرات بهم لعبت ... فى مَحْشَر الحبّ ما مالتْ إلى الرِّيَب
بعزة الحب قل لى : هل رأيت بهم ... ماقد رأيت من المحسوب فى النَّسَب
حبّ وصبر وحِرمان وحَرّ جوى ... ومدمع وسُهاد دائم الوَصَب
لَا تَلْقَنى بسعير إننى دَنِف ... فيما شكوت الهوى والوجد لم أَعِب
أُعيذُ لطفَك من ظلم تكون به ... بين الأنام شهيرَ الإسم واللقب
أعاذك الله من يومٍ أراك به ... مثلى ، وحُوشِيت مِنْ أنى أقيسُكَ بى
حيث النفوس أقرَّت بالتى صنعت ... وهمْ سُكَارى لما يَخْشَوْنَ من عطب
وحقِّ حبك لو فى البعث يمكننى ... كَتْمُ الشهادة لم أخرج عن الأدب
لكننى باعتذار منك فى خجل ... إذ قال : لا تكتموا ، للعجم والعرب
فقال لى برموز من لواحظه ... بعد ابتسام وما أبداه من طرب
أراك قد جئتَ عما قلتَ معتذراً ... وإن عذرك للإحسان لم يصب
يمحو الجليلُ عظيمَ الإعتداء إذا ... ما سامح الخصم بالإخلاص فَاتَّئِبِ
أبحتُ يا معشرَ العشاق فاستمعوا ... دَمِى لهذا الرَّشَا طوعاً وحقِّ أبى

* * *

١٥٤ — وقالت :

قامتْ بعذلى لدى المحبوب أقوام ... وصمموا عزلتى عنه وقد حاموا
وكلما رُمْتُ قرباً من شمائله ... جاءت تهددنى للحظ أسهام

كأنهم بعنادى عصبةٌ كفروا ... ما حلَّ فى قلبهم صدق وإسلام
ضَلوا لطغيانهم جَهْلًا بحكمةِ من ... بأمره كان إيجاد وإعدام
وأبرموا قتلتى بالبعد عن رَشَأ ... لولاه ما رُفِعَتْ للحب أعلام
همُ استجَدُّوا ببحر الحب ما وهنوا ... وما استكانوا وما خاضوا وما عاموا
لم يعلموا أن قَضَيْت العمر فى لُجَج ... ولى فى ببحر الهوى عَوْم وأعوام
فكم رَبِحْتُ عقوداً منه مثمنة ... وطالب الدرِّ لايثنيه أوهام
وكم صدمت بشعب فى مسالكه ... حتى استوى فيه عندى الزَّبد والخام
وكل ما نالنى فى الوَجْد يعلمه ... ذاك الغزال كما خَطَّته أقلام
لكنه سالك أسلوبَ عُصْبته ... فى كل ما قعدوا عنه وما قاموا
بالحقد هاموا وحاشا أن أمثلهم ... بآل « يوسف » مذ فى جهلهم هاموا
وإن تَلَوْا فى الهوى آيات غُرَّته ... وَجَوَّدُوهَا و إن صلوا و إن صاموا[1]
إنى أرى فى مجارى لحظهم أبدا ... مناويا هى فى الأحشام أسهام[2]
أخشى على الرِّيم من نجوى ضغائنهم ... لأن اليتهم فى الغدر ضرغام
يدى على الكِبْد فى صبحٍ بدا ومسا ... على شقيق له فى الحىّ ما داموا

* * *

١٥٥ — وقالت :

شَهْد الشفاء حلا بِطِيب شفاء ... فامنُنْ ببعض المنِّ للحكماء
وكفاك أجر لَمَاك إن يُغنيهمو ... عن كل طبّ نافع ودواء
وكفاك أجر رُضاب ثغرك إنه ... ماء الحياة ورافع اللأواء
إن الجميل لقد حباك جميله ... فامنن ولا تبخَل بذى النعماء
وإذا أتاك الصبّ ملتهبَ الحشا ... زفراتُه ضَرْب من الرمضاء
ورأيت لوعته عليه تغلَّبت ... شوقا إلى ذاك الرحيق النائى

(١) فى الأصل المطبوع : وجودها .
(٢) هكذا الأصل

فامنن عليه برشـــفة أو نفحة ... من رُوح « لُقْمَان » يفز برجاء
وإذا رأيت الحبّ من ألم الجوى ... هَـــدَّ القوى بشدائد البأساء
عاطِيه « سلفات » الحديد تـكرما ... من قلبك الجافى بكل رضاء
لِلّهِ دَرّ قِسِىّ حاجبك التى ... كم جندلت ظلما من الشهداء
قَدْ تِهْت عُجْباً فى غرابة قولهم ... إنّ الرَّشَا الرامى من السـعداء
فبحقّ تلك النَّاعِسات ومالها ... من يَقْظةٍ أَصْمَتْ بها أحشائى
إلّا عَطَفْتَ عَلَى فؤاد مُتَيَّم ... دَنِفِ الحَشَا دَانِى المحبَّـة نائى
كم أفْتَدِيكَ بحلو عمرى راضـياً ... مِنْ كلّ بَأْسٍ ذُقْتُـــهُ وَعَناء
يا طالما صادمْتُ فيكَ عواذلى ... وَسَدَلْتُ ثَوْبى ساتراً لِدِمَائى
فَبِمَنْ أراق دماء آل الحبّ مَعْ ... حُسن الرضا وحباك أمرَ ولائى
لاَ تَبْخَلَنَّ بِمَرْهَم القُرْب الذى ... هُوَ مُنْتَهىٰ طِبِّى وَعين دوائى
وَاعْطِفْ عَلَى صَبٍّ فَدَاكَ بِنَفْسِهِ ... يَهْدِيكَ خَلَّاقِى لِحُسْن وفائى

* * *

١٥٦ — وقالت :

حلو التمـايل ممنوعٌ مِنَ القُبَـل ... بحُبِّـــهِ هِمْت فِى العَسَّال والعَسَل
وموقف الخال بين الحاجِبَيْنِ بدا ... فاعجَبْ لِحُسن « بِلَالٍ » مَنْ رَآهُ بَلِى (١)
مِراض ألحاظِه قامَتْ بنصرتها ... سهام هُذْب هَزَتْ بالفارس البطل
فى وجْنَتيه شفيعٌ كلما صدرت ... أوامر الفتك أحْيَا مُهْجَةَ الأمل
لولا ابتسام لدى الإعْرَاض يُسْعفنا ... ذابت قلوب من الإشفاق والوَجَل
ضَلَّت سُبُلَ السُّرَى فِى لَيْل طُرَّتِهِ ... حتى هدانىَ نورٌ بالجبين جَلِى
ياليتَهُ لم يُطِلْ بالجِيد فتنتَـــه ... وليته عن عظيم الشوق لم يَمِلِ
بين الثَّنَايا ومحمرّ الشَّفاه حَوَى ... دُرًّا له من بديع الاقْحوان حُلِى

(١) فى المطبوع : الخال ، بدل : الخال .

آمنتُ بالله كم طالت غدائره ... فَظَلَّتْ زُمْرَةَ العشَّاق بالظُّلَل
قد صافحتْنى بليل السَّعد راحتُه ... وكنتُ من لفتةِ الواشى عَلَى وَجَلِ
فانْشَقَّ شذى المِسْكَ من آثار راحَتِه ... بكف عبدٍ له من عِطْرِها ثَمِلِ
قالت وُشاةُ الحِمَى : حاشا لعاشِقِه ... بأن يفوزَ بلمح العين فى الحُلَلِ
وكيفَ يخلو بخلٍّ نحنُ عُصْبَتُه ... ودونهُ فاتكاتُ البيض والأسَل
فَكَمْ مُحِبٍّ صَبَا مِنْ قبلِهِ فَغَدَا ... بأسهم الحىّ مطْرُوحاً على طَلَل
فَيَالَهُ مِنْ شَهِيدٍ بالهوى مُزِجَتْ ... أكواب قَتْلَتِه بالصاب والمَسَلِ
طَابَ افتضاحِى وإنِّى عَاشِقٌ دَنِف ... لاأنتهى عنهُ فى حَلًى وَمُرْتَحَلِى
إن كانَ حُبِّى لهُ عَيْبًا وَمَنْقَصَة ... وَفَرْطُ شَوْقى به ضَرْبًا من الخلل (١)
مَا بَالُكُمْ مُذْ دَنَا هَاجَتْ بَلَابِلُكم ... وَأَثْبَتَ الْوَجْدُ دَعْوَاكم لِكُلِّ خَلِى
دعهم ولومى وسَبِّى أو فسفك دمى ... إنى مُقِرٌّ بلوعات الغرام مَلِى
وبدعة الحبّ أقوى بدعة عُهِدَت ... فَمَنْ يَلُمْ مُسْتَهَاماً بالغَرَام يُلِى
وَقَدْ تمثَّلْتُ فيما قالهُ سَلَفِى : ... « أنا الغريق فما خوفى من البَلَلِ »
أفديهِ حينَ نحيلُ الخَصْرِ مِنْهُ بَدَا ... يهتز من خوف رِدْفٍ خُصَّ بالثِّقَلِ
بِكْرُ الكُمَيْت إذا دارت بحضرته ... من وجنتيه غَدَتْ حمراء فى خَجَل
لَوْ قَابَلَ البدرَ نَشْوَاناً بِغُرَّته ... لصارَ طالعُ بدر الأفْق فى زُحَلِ

* * *

١٥٧ — وقالت :

قالت وقد واصَلَتْ : إن كنت تألفنى ... بأنفس العِينِ حتى الفجر حَيِّينى
فقلت : قومى بِحِفْظِ الله سَيِّدَتِى ... لا أقبل الشرط لو كنتِ من العِينِ

(١) فى المطبوع : « ضرب » بدل : « ضربا »

١٥٨ — وقالت من المربعات :

ما لى بلوعةِ ذا الغزال أُهِيمُ وَالجسم منى ناحِل وَسقيم
إنَّ العذابَ بِمهجتى لَأَليم والله بِالقلبِ الخَفُوقِ عَليم

***

ما كُنت أدرى ما الغرامُ ومَا به حتى رَمانى الوَجْدُ فى أعتابه
وَغدوْتُ بوَّاباً بسُدّة بابه مِن بعد قولى إننى لسليم

***

مذ قالَ حاجبه إلىَّ تعالى بوَلائه رِقّ عَلَىَّ تعالَى
كم ذا تبارَكَ خالِقى وَتعالَى فى كلِّ معنى إنَّهُ لعظيم

***

جَلَّ الذى زانَ الجبَاهَ بطرّة مِن تحتها لَمَعَ الهلالُ بِغُرَّة
كم باتَ يهدينى بِأعظم حسرة وَعذاب قلبى فى هَواه أليم

***

كَمْ جادَ لى سَحَراً بِطيبِ مزارِه فأَخَذتُ مِن فرط الجوَى بيساره
وَجعلْتُ أَلْثَمُ مِنْهُ خطَّ عِذاره فأَشَارَ لى باللَّحْظ وهْو كَظِيم

***

بانت عليكَ لدى اللِّقَاء خِصَالُ هى عندَ أرباب الْغَرام وَبال
فاترك هـوَاكَ فللغرامِ رِجال ما مَسَّهُم منذ الهوَى تهويم

***

ولَهُ بِقلبك والدموعُ سَوَاكب وَتزلْزلَتْ بِالوَجْدِ منك مَنَاكِب
فكأنما سَقَطَتْ عليك كَواكِب وَتَصارَعَت بالصَّدرِ مِنْك رُجُوم

***

لم يدرِ معنى الحبِّ إلا مَن غدا ... يُبدى البَشاشةَ والهًا متسهِّدًا
كَمْ ذابَ من زفراتِهِ متجلِّدًا ... ويقــولُ طَوْعًا إنَّهُ لَنعيم

* * *

إنى نَصَحتكَ بالأمانِ محبة ... ونَصيحتى جاءتْ لِمثلك رحمة
فاختر لنفسك عن غرامكَ سلوة ... تحْيَا بِهـا عُمْراً وَأنْتَ قويم

* * *

لما نأى عنى وبَانَ صـدُودُهُ ... والقَدُّ أصْبَح لا يُفيقُ عَميده
ملَكَ الهوى رِقِّى وَحقَّ وعيده ... والحبُّ خـطٌّ بِالجبـاهِ قديم

* * *

مازِلْتُ أهتِف بالجَوَى لما خطرْ ... وأُمَرِّغ الخدَّين فى ذاكَ الأثَرْ
وأقُولُ : مصحوبَ السلامة يا قمَرْ ... داعيكَ إنْ طال الصُّدود عديم

* * *

يا ليـلُ هاأنَا فيكَ سَاهٍ ساهر ... ولعزَّةِ المحبـوب شاكٍ شاكِر
يا لَيل قد أيقَنْتُ أنكَ كافر ... إذْ لم يكن لى مِنْ دُجاكَ رَحيم

* * *

يا ليْلُ إنكَ فى الفِعَـالِ منافِق ... هـذا تُسَهِّدُه وَذاكَ تُوافق
وإذا لُسهِد أنّ فيكَ العَاشق ... ضاعفْتَ شـكْواهُ وأنْتَ بَهيم

* * *

لما رأيْتُ الظلم مِن ذاكَ المُلَك ... وعَلِمْتُ مِن تهديدِهِ ما قد سَلك
أصبحتُ أدْنُو مِن حماه وقدهَلكْ ... قلْبٌ عَلَى عَهدِ الحبيب مُقيم

* * *

كَبِـدٌ أطال بِنـارِه إيقادَه ... أبداً أراهُ مع الرِّضا منقادَه

عُنقى بِأغـلالِ الهوَى لو قادَه لرَأَيْتُ أنَّ الفضلَ منهُ عميم

* * *

لما قَدِمْتُ رِحابَ مَنْ رِقِّى مَلَكْ قَدَّمْتُ هٰذِى الروحَ هَدْيًا للمَلَكْ
أين المَناص وقد نأى عَمَّن هَلَك برَزَتْ لِمُشْتَاقِ النعيم جَحِيم

* * *

أمَلى بحقّ الحبّ ما أمَلى كَذا لا تنثنى عن مغرَمٍ أَلِفَ الأذَى
صبّ إذا لامَ المعَنِّفُ أو هَذَى حَاكى السَّحابَ بكاؤهُ المعلومُ

* * *

أما السُّلوّ فيستحيل عَنِ الهوَى فاختر لعبدٍ لا يميلُ إلى السوى
إما التعطُّف بِالوصالِ أَوِ النوى والعَطف أَقْرَبُ والجميلُ كريم

* * *

فأشَارَ لِى ذاكَ الرَّشا متبسِّمًا حَاشاى أن أُصمى المحبَّ المغرَما
إنى وَجـدتكَ بِالجمالِ متيَّمًا وأنَا بودِّكَ صادِق وزَعِيم

* * *

١٥٩ — وقالت :

قد مَال كالغُصْن فى روض الصّبا السَّاقى والناس للمَيل قد قامت عَلَى سَاقِ
دارت سَوَاقى عُيونِ النّاظِرين له كما جَرى النهـرُ من جفنى وآماقى
والنرجس الغَضّ غَضَّ الطرفَ من خَجَل ومَالَ مَيْلَةَ ذى خَوفٍ وإشـفاق
ولاحَ فى حَالَةِ الشَّـجْوِ البَنفْسَج إذْ بدا بِثَوْبٍ منَ الأحزانِ غَسَّاق
والزنبق اغتاظَ من ضِحْكِ الوُرود وَقَدْ شَقَّ الخدُودَ فَمَا يُلْفَى لهُ واقى (١)
وأغمضت باقة النَّسْرِين من أَسَـفٍ فَصَار من رَوْعِه يشكى إلى الباقى
والماء لَمّا رأى حَالَ الزُّهُور غَدا يَجْرِى بِقَلْبٍ عظيم الشَّوْق خَفَّاق

(١) فى المطبوع : باقى ، بدل : يلقى .

وَشْمأَل الروضِ حولَ الغُصْنِ دَار وقد ... تلَا عليه خلوفٍ رُقْيَةَ الراقى
إن كان ذلك حَالَ الزهر من عَجَب ... فكَيف حَال أخى وَجْدٍ وأشواق
أفديه لما صحَا من سُكْرِهِ سَحَراً ... وللطَّلَى أثَرٌ فى خدِّه باقى
وقامَ يَخْطِرُ والأرداف تُقْعِدُه ... وخَصْره يشتكى سُقْماً لمشتاق
وقَال لى بلسان الشكر : خُذْ بيدى ... فعُدتُ من لحظِه الماضى بخَلَّاقِ
وقمتُ بالأمرِ والألحاظ تُنْشِدُنى : ... لاقِ عظيمَ الجوَى من فتنتى لاقِ
أمَا رأيْتِ غصونَ الروض راقصةً ... وأنجمَ الأفق حَيَّتنا بإشراق
وقد تعانق دَوْح السَّرْو مِن طرَبٍ ... وكادَ يلتفُّ ذاكَ السَّاقُ بالسَّاقِ

* * *

١٦٠ — وقالت :

سلامُ اللهِ ما طلعَت بدور ... كطلعَتِكَ التى تُجْلَى لعَينى
عَلَى مَن عنده رُوحى وقلبى ... ومسكنُهُ سوادُ المُقْلتَين

* * *

١٦١ — وقالت :

صَبٌّ لِقرْبكَ بالحياةِ يجودُ ... أنَّى لهُ بعد البعاد وُجود
بختام طبْع الحسن قد طبَع الهوَى ... فى قلبهِ : هذا هو المقْصُود
ثُمِلُ الشَّمائل غيرَ أن محبَّه ... أبدا بسيفِ لحاظِه محدود
ما رَدَّه عن حُسْن صدق فى الهوَى ... كلَفٌ بعَذْلِ العَاشقين عنيد
يا فتنةً ما لامَنى فيهِ امرؤ ... إلا رأى مَا كان مِنه يَحِيد
الصَّبُّ بالأعتابِ أصبَح يرتجِى ... عطفاً ولكنَّ المُنَالَ بعيد
أنَسِيتَ صِدْقِى فى حُروبِ عَواذِلى ... وجميعُهم شاكى السلاح شديد

قَصَدُوا بوَارِى بالسُّلوِّ ومَا دَرَوا ... أن اصطبارى فى هَواكَ أكيدُ
ولقد أذَعْتَ هواكَ بين عَواذِلى ... وسهامهم تُدمى الحشا وتُبيد
وأقولُ معْ حرِّ الأسنة حبَّذا ... صبٌّ بذياك الجمال شهيد
وولاء حسنكَ ما شكوتُ لِمنَّةٍ ... مِنى عليكَ وقصدىَ المحمود
لكننى من فرط نارِ جَوانحِى ... رَغَباً أُكرِّرُ ما جرَى وأُعيدُ
فعلامَ تهزأُ بى وتُشْمِتُ عُذّلِى ... وأنا لدَيكَ كما ترَى وتريد
قد صارَ مثلَ العِهْن قلبى بالأسَى ... وأظنُّ أنَّ القلْبَ منكَ حَديد
لستَ الملومَ بما جنيْتَ وقد سعَى ... بنميمَةٍ مَنْ شأنُهُ التَّفنيد
فعَسَى يجُودُ بنور نيِّره الرِّضا ... وعساكَ تعلم أننى لَوَدُود
وعَسَى الليالى أن تمُنَّ بليلَةٍ ... يسمو بطلعتها الشَّجِى ويسود
فهناكَ تُبدى الراحُ كامنَ حِقْدِهم ... وتقومُ من نفس النفاق شهود
ويُعاد تقريبى وتثْبُتُ خُلَّتى ... بعطاء مَن هو مبدئ ومعِيدُ
وأقولُ للقلْبِ المعَنَّى بالجوَى ... بُشْرَاكَ أبشِرْ قد أتاكَ العِيدُ[1]

* * *

١٦٢ — وقالت :

أهَيْلَ الحىّ هل لاحتْ بدور ... وهلْ وافَى مع الصُّبْح البشيرُ
وهل جَادَ الزمان بِجَمْعِ شَمْلٍ ... وحَيَّا بالرِّضَا دهْرٌ غَدُور
وهل تَرْوَى الجوانحُ بالتلاقى ... وتُسعفنى الأمانى والحبور
مَتى يُزْهَى بطلعتهم سُرورى ... ويَشْفِى مهجَتى ذاكَ السُّرُور

* * *

(١) فى المطبوع : فابشر ، بدلا من : أبشر . .

١٦٣ — وقالت :

تسهيدُ الشَّوْق لقد غَلَبَا ولذيذُ النَّوْم بهِ سُلِبا
والقلبُ شكا حُزْناً وَصَبَا كم قلت إذا الشوق التهبا
مِنْ حَرِّ غَرَامِي : وَاحَرَبا

ظَبْيٌ بالسفح من التُّرْكِ صَمَ فى الحُسْن بلا شِرْكِ
كم هاجَ فؤادًا بالتَّرْكِ كم صَادَ عزيزاً بالفَتْكِ
وغنـائم غزوته نَهَبَا

كم راشَ سهاماً للمُقَل وأصابَ فؤادًا لم يَقُل
ما زال فؤادى مُنْذ بَلِى يَهْوَى العَسَّال مع العَسَل
ويقول : وِصَالُكَ قد وَجَبَا

جَفْنِي والنَّوْمُ قد اختصما وَلَدَى عَلياكَ قد احتكما
فَبِعِزِّ قَوَامِكَ كُنْ حَكَما فالحقّ لسطوته رَسَما[1]
وَأَرَاهُ نَأَىٰ عَنِّى وَأَبَىٰ

أَعْلَامُ الحُسْنِ لَقَدْ رُفِعَتْ وجيوش الفتنة قد جُمِعَتْ
جَاءَتْ لِلْفَتْكِ فما رَجَعَتْ عَنْ حَوْمَتِهَا حَتَّىٰ وَقَعَتْ
مُهَجٌ رَاحَتْ إِرْباً إِرْبا

لِلّٰهِ قَوَامٌ أَنْحَفَنِي برشاقتهِ قد أضعفنى[2]
وحسام لحاظٍ أتلفنى أتُرَى منهُ مَنْ ينصفنى
إِذْ ضَيَّعَ صَبْرِى فيهِ هَبَا

* * *

(١) فى المطبوع : « قد رسما » بدلا من : « رسما » .
(٢) زيدت « قد » على ما فى المطبوع ، إقامة للوزن

١٦٤ — وقالت :

رَمَانِي بِسَهْمٍ فما أَنْصَفا ... غزال لِقَتْلِي أَطَالَ الجْفَا
بعيدُ التَّدَانِي قريبُ النَّوَي ... كثيرُ الدَّلالِ قليلُ الْوَفَا
زوايا القلوب لهُ مَرْتَع ... ومهما تَصَدَّى لقلبٍ هَفَا
بِرَوْضِ الشقائق قابلتُه ... فكَمْ مِنْ دَلَالٍ لنَا صَنَّفَا
فَلِلَّهِ لَحْظٌ لَهُ أَدْعَجٌ ... فَكَمْ من سيُوفٍ لنَا أَرْهَفَا
أقولُ لِجِيدٍ بِصَدِّي الْتَوَى ... أَطَلْتَ افتضاحي فَكُنْ مُسْعِفا
فمن لي بِرِيمٍ رَمَى مُهْجَتِي ... فأتلفَ مِنِّيَ مَا أتلفا
تَقُود زِمَامِي لهُ لوعتي ... فأَنْهَضُ لِلْأَمْرِ مُسْتَشْرِفَا
لقد طَالَ سُهْدِي بِهِجْرَانِهِ ... وَعَنِّيَ طِيبُ المَنَامِ انْتَفَى
تقولُ إِذَا مَارَأَتْنِي الْعِدَا : ... سَقِيمُ الغرام يَرُومُ الشِّفَا
أقولُ لراقِي الهوى والطبيبِ ... إذا ما التقينا : بربِّي قِفَا
سَلَا مَنْ سَلَانِي بنارِ الهوى ... أَيُحْيِي فُؤَادًا بِهِ قَدْ عفا
وَيَسْمَحُ عَطْفًا بِحُسْنِ الرِّضا ... فقالا : بشرطٍ ، وما عَرَّفَا

* * *

١٦٥ — وقالت :

قِفَا بِفَيَافٍ سَارَ فيهَا فَرِيقُهُ ... غَزَالٌ بِنَفْحِ الْمِسْكِ فَاحَ عبيقُه
وَعُوجَا على تلك الرياضِ لَعَلَّنِي ... أَفُوزُ بِنَشْرٍ طَابَ مِنْهَا نَشِيقه
وَقُولَا لِحادِي الظَّعْنِ : مَهْلًا فَرُبَّما ... يُرَوِّحُ قَلْبٌ طَالَ فِيهَا حَرِيقه
سَقَى اللهُ هَاتِيكَ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا ... بواكفِ غَيْثٍ لَا يُكَفُّ طَلِيقُه
فَثَمَّ كِنَاس لو رأيتَ ظِبَاءَه ... لعدتَ بشوقٍ لا يُحَلُّ وَثِيقُه
وأصبحتَ مثلي بين سُهْدٍ وَلَوْعَةٍ ... وَدَمْعٍ وَهَى عن حَرِّ نارى غريقه
أَضَعْتُ شبابي بين صَدٍّ وَجَفْوَة ... بِرُوحى شباباً مالَ عَنِّي وَرِيقه

لَهِجْتُ بأسْبَاب الغرام ولم أفُزْ ... بمسكيٍّ خالٍ طَابَ مِنْهُ شَقِيقه
رُمِيتُ بِسَهْمٍ مِنْ جُفُونٍ ومُرْهَف ... يَهُدّ الجبالَ الشّامخاتِ بَرِيقُه
فَكَمْ جُبْتُ أرْضاً أقْتَفِي إثْرَ رَاحِل ... وَدَمْعِي بِسَفْحِ البِيدِ يَجْرِي عقيقه
وكم جُزْتُ من بَحْرٍ وَزَاخِرٍ[1] فكرتي ... يزيد على البحر الخِضَمِّ عميقه

* * *

١٦٦ — وقالت :

تركتُ الحبَّ لا عن عَجْزِ طَوْلٍ ... ولا عن لَوْمِ وَاشٍ أو رقيب
وَلاَ مِنْ رَوْعِ زَفْرَاتِ التَّصَابِي ... وَلاَ مِنْ خوفِ أجفانِ الحبيب
وَلا حَذَرَ الفِرَاقِ وَخَوْفَ هَجْر ... بِهِ تجرى المدامِعُ كالصَّبِيب
ولكنِّى اصطفيْتُ عَفَافَ نفس ... تَقَرُّ بصفْوِهِ عينُ الأرِيب
وَذَاكَ لِأنَّنِي فِي عَصْرِ قَوْمٍ ... بِهِ التَّهذيبُ كالأمْرِ العجيب

* * *

١٦٧ — وقالت :

غَضَضْتُ نواظِرِى عن غُصْنِ قَدٍّ ... وَعِفْتُ حَنِينَ قلبِي وَهْوَ رُوحِي
فلو عقب الهوى قلبي وقالت : ... إذن روحى: أرُوحُ، لقلت : رُوحِي
وأفكارِى تَسُوحُ لِفَرْطِ شَوْقِي ... فأَطْوِى لوعتى وأقولُ : سُوحِي
لِظَبْيٍ قَدْ بَكَتْ عَيْنِي وقالت : ... أنوحُ إلى النشور ، فقلت : نوحِي
وَذَاكَ لميلِهِ شرقا وغرباً ... لِنَفْحَاتِ الْغَبُوقِ مَعَ الصَّبُوح

* * *

١٦٨ — ولها من فن المواليا قولها :

أنصارْ عُيُونَكْ علينا رافعه الأعلامْ ... أعَزَّها اللهُ كم أبْدَتْ لنا أعْلَامْ

---

(١) فى المطبوع : « ذاخر » بالذال .

وغامز الطرف شاهد للجوى عَلَّام حَرِّص على وَرْد وجْناتك « بِلَال » الخال
كاتب بخطِّ العذار للعاشقين مِيم لام

* * *

١٦٩ — وقولها :

حَاش الرقاد عن عيونى من لها إنسان وطَوّل الهجر من سُهْدُهْ وهُو وَسنان
لاشكّ إنّو مَلَكْ فِى صُورةِ الإنسان واهْل الغرام قَدّمُوا من وَجْدهُمْ أَعْرَاض
من دولة الحُسْن يرجُو أجمل الإحسان

* * *

١٧٠ — وقولها :

فى معهد الراحْ وَجَدْتُهْ يرتشف راحات مِنْ حُسن ظرْفُهْ سَمح لى أَلْثَم الرَّاحات
نعم المواهب وجود الرُّوح والرَّاحات ساعه سعيده بشمل الحظ يا قلبى
عادت إليك الأمانى وكل ماراحْ آت

* * *

١٧١ — وقولها :

إن جُزْت بالركب ياحادى المطايا عود لِلّى شَذَاهُمْ لَدَى أهل المحبّه عُود
وَانْظُرْ مُتَيَّمْ صَبَحْ مِنْ هَجْرهُمْ كالْعُود وَارْحَمْ عَلِيل اهوى وَارْدُدْ عليه رُوحه
مَا له سِوَاهُمْ بطبُّه من يجود ويعود

* * *

١٧٢ — وقولها :

سارت محافل حياتى يا أُهَيْل الحىّ من بعد ذا البُعد ما تقولم عَلَىَّ حَىّ
فيانسيم الصَّبَا حَىَّ الحبايبْ حَىّ أصبح بوجدى كما أمسيت فى أشجان
واشْكِى مشاكل جوى قلبى لحاكم حَىّ

* * *

١٧٣ — وقولها :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن جفن من السحر أم سحر من الأجفان
خال بخدَّيك أم صبغ من الدَّيان توَّهتَ فكر الأنام فى الجفن والخالات
تباركَ اللهُ ما أحلاك من إنسان

***

١٧٤ — وقولها :

لمستشار الغرام قدَّمت أعراضى بأنّى لحكم المحاسن متبع راضى
جمالك اللى محَا رسمى وأعراضى طايع أوامر لحاظه إن عدل أو جار
قل لى دخيلك على أسباب إعراضى

***

١٧٥ — وقولها :

الناس أسرى الجمال وانا أسير ظرفك كم من بدائع تلاها للفؤاد عطفك
بسِّم وقال لى : تمتَّع ، قلت : من لطفك لما رأيت القوام فى روض حُسْنِكَ مال
كم قلت لو زر سقيمك والنبى زرفك

***

١٧٦ — وقولها :

اللهُ أكبر دعانى الحب للتعذيب وكلما ازداد ألقى فى العذاب تعذيب
يا لائمى فيه تأمَّل كم ترى تهذيب مناقب الحب مسطوره على الوجنات
ختامها المِسْك مستغنى عن التهذيب

***

١٧٧ — وقالت :

لاحت ثنايا الأحبه فى هُلولِ الصُّبح يا قلب بشراك تمتَّع بالوُجوهِ الصُّبح
أنى رسول البشائر قلتُ له : يا صبح كرّر حديثكَ عَلَى سمعى ومتعنى
قال لى : سَمح لك زمانكَ بالرّضا والصلْح

١٧٨ — وقالت :

صبح المباسم بدا مِن تحت ليل الخال أهْلاً بنـيِّر عديل البدر أو له خال
صبح فؤاد الضنى عَن كلّ معنى خال خذوا الأمان مِن فوآن نُجْل ألحاظه
ما شكّ عاشق بساحر جفنهم أو خال

* * *

١٧٩ — وقولها :

مالى بعادل قوَامك تَايه الأفـكار أمسى وأصبح وتسهيد الجفون لى كار
وحقّ عينيك مالى فى هَواك إنكار دَعْنى أبوس الأنامل وَاشترى رُوحى
وان طال صدُودك عَلَى عبدك تـكون تذكار

* * *

١٨٠ — وقولها :

يا ألف أهلا مليك الحسن هُو قَابلْ وكلّ مضنى بِحسن الإمتِثال قَابل
هاروت لحاظُه أتى بالسحرِ من بابل كم مِن ضنى تاهت افكاره وقلبه داب
يا قلْبِ تقبل كده ، قال لى: نعم قَابل

* * *

١٨١ — ولها فى الأدوار :

برضابه ماء الحيـــاة يُحْيِي الرَّميم مع الرّفات
ناهِيك يوْم الإلْتِفات مذ قَال خذها والتوى

* * *

١٨٢ — غيره :

زارَنى أحيا فؤادى من أنا كل فـداه
قال لى : ماذا تنادى فى بعادى ، قلت : آه

* * *

١٨٣ — غيره :

م الهدب ولا الغرام يا أهيف جراحى
قال لى : ابقى أقولْ لك ونام والله صاحى

* * *

١٨٤ — غيره :

قدّمت للحظ يوم أعراض غرامى
شرح عليه الظّلوم إعلان نواحى

دور :

أنا كحصرك نحيل والدمع راحى
تخمينك انى عليل دا من نواحى

* * *

١٨٥ — غيره :

ته بالدلال واخبرْ عنّى حبّك فنّى
وقل عشق شوفوا ياناس واسمح بكاس

دور :

أموت شهيدك كلنى بس اعلمنى
إن كان رضا قلبك لا باس ع العين والراس

دور :

قلبى وعذولى ظالمنى احلف عنى
ياخى بلاش تصرف أنفاس فى دى الأجناس

* * *

١٨٦ — غيره :

ياللى أتيت بالطب بدّك تداوينى مانش ضعيف قوه
هات لى سماح م الحب وارتاح وخلينى عين الدوا هوّه

دور :

أنا أحب الحب نفس الغرام روحى فى القلب من جوّه
وصبحت أول صب الناس ترى نوحى والسر هُو هوّه

دور :

أصل الحياه ياقلب هيه وجود نارى وإن كنت تتكوّى
لولا دواعى الحب ما أوجد البارى آدم ولا حوا

***

١٨٧ — غيره :

تعالى ياخيال بهجة جماله وندخل عَ الرشيق اليوم بحيله
ونحكم عَ الفؤاد يحمل دلاله لأنه فى الجمال واحد وحيله

دور :

بتهجر ليه أسير حبك ياروحى ولك أوصاف ترد الروح جميله
بشوقك فى أيادى الوجد روحى وحق الحب شف صبحت ذليله

دور :

أنا ما اسلى غرامك لو سلونى وروحى فى رحات حبك دخيله
يعاب عَ الثغر لو ابسم لدونى وعين الحب عن عيبُهْ كليله

***

١٨٨ — غيره :

حياتى بعد بُعدك نوح ووعدى ضيعك منى
دا انت إنت الغذا للروح وليه ترضى البعاد عنى

دور :

سلامة مهجتى م الآه تعا يا قلب ننعيها
لهو انت القلب لا والله دا قلبى من سكن فيها

دور :

لروحى روح تنوب عنها وادين حاضر وفين رُوحى
ما عندى رُوح تعادلها وحق الفتك فى نوحى

***

١٨٩ — غيره :

ياحلو طبعك ظريف وانت فريد فى الصفات
لو كنت لين لطيف قَال لى دا كان يوم وفات

***

١٩٠ — وقالت مشطرة لهذين البيتين :

و « لَيْلىٰ » ما كفاها الهجر حتى أطالت[1] فى دُجىٰ لَيْلِى أَنِينِى
وكَلّ تجلدى بالصـــبر لما أباحت فى الهوى عِرضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأُمىّ ، قالت : كذا خطّ اليرَاع عَلَى الجبـين
فدع قلق الصـغار وكن صبوراً وَهَل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟

***

١٩١ — وقالت فى تشطيرها أيضاً :

و « ليلى » ما كفاها الهجر حتى أرَتْنِى جُرْحَ قلبى بالعيون
وما قَنِعَتْ بسـفك دمى ولـكن أباحَتْ فِي الهوى عِرْضى ودينى
فقلت لها : ارحمى الأُمىّ ، قالت : بِأُمِّى قَدْ بُلِيتُ فَمَنْ مُعِينى
أترْحمُ فى الغرام وأنت صَبّ وهل فى الحب يا أمى ارحمينى ؟

***

(١) فى المطبوع : « أطلت » بدلا من : « أطالت » .

١٩٢ — وقالت فى ذلك أيضاً :

و « لَيْلىٰ » ما كفاها الهجرُ حتى ... أذاعت بعـد كتمانٍ شجونى
وحينَ تَبَيَّنَتْ آياتِ وَجْدِى ... أباحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِى وَدِينِى
فَقُلْتُ لها : أَرْحِمِى الأُمِّىَّ ، قالت : ... جُنِنْت وفى الهوى بعضُ الْجُنون
وَهَبْنِى كُنْتُ أُمَّكَ كَيْفَ أَحْنُو ... وَهَلْ فِي الْحُب يا أُمِّى أَرْحَمِينى ؟

* * *

١٩٣ — وقالت مخمسة للبيتين المذكورين :

إِيْـكَ مُعَنِّفِى يَكْفِيكَ إِفْتَا ... جَهِلْتَ صَبَابَتِى أَمْ هَلْ عَرَفْتَا
فَلاَ أَقْوَى عَلَيْكَ وَأَنْتَ أَنْتَا ... وَ « لَيْلىٰ » ما كَفَاهَا الْهَجْرُ حَتَّى
أباحَتْ فى الهَوَى عِرْضِى ودِينِى
بِرَوْضٍ دَلَالُهـا أَمْسَتْ وَقَالَتْ ... وَإِنْ عَثَرَ الْمُتَيَّمُ مَا أَقَالَتْ
وَكَمْ صَدَّتْ وَفِي هَجْرِى أَطَالَتْ ... فقلتُ لها : أَرْحِمِى الأُمِّىَّ، قالت :
وهَل فى الحبِّ يا أُمِّى ارحَمِينى

* * *

١٩٤ — وقالت مُشطرة لهذين البيتين وهما :

وَمُتَّصِفٍ بالنَّحْو أَعْرَبَ حُسْنه ... فَأَوْرَدَ إِشْكَالاً غَدَا عَنْهُ مَسْئولا
سَقَامِىَ فِعْـلٌ لازم وَصُدُودُه ... لهُ فاعِل ، لِمْ صَيَّرَ القلب مفعولا ؟

وهذا هو التشطير :

وَمُتَّصِفٍ بالنَّحْو أَعْرَبَ حُسْنه ... فَأَظْهَرَ وَجْدًا فى الضمائر موصولا
وفى مُبْتَدًا حالى به جُبِـل الهوى ... فأَوْرَدَ إِشْكالاً غَدَا عَنْهُ مَسْئولا
سقامى فعل لازم وصُـدُودُه ... تَعَدَّى فلم يُحْسِنْ مع الحب تعليلا[1]
فياليتَ شِعْرى ما جزائى وَشَرْطُه ... لهُ فاعِل لِمْ صَيَّرَ القلب مفعولا؟

* * *

(١) فى المطبوع « مقامى » بدل « سقامى » .

١٩٥ — وقالت مخمسة للأبيات الآتية :

وعُذْرى الهوى العذرىّ وهْو يمين ... به مُقْسمُ التبريح ليس يَمينُ
لَأَفْتَكُ من ضَرْبِ الصَّفَاح تبين ... عيونٌ عن السحر المبين تُبِينُ
يسالمها المشتاق وهْى تخون

عجبتُ لها تنسَى وقلبىَ حافظُ ... وإنسانها يَسْبِى النُّهَى وهْو واعظ
وأعجب من ذا الفَتْك وهْى لواحظ ... مِرَاض صِحاح ناعسات يواقظ
لها عند تحريك الجفون سكون

فآهاً لها مَرْضَى على شدَّة القُوَى ... و«هاروتُ» عن أجفانها السحر قد رَوَى
ولا ذَنْبَ للوَلْهَان فى لوعةِ الجَوَى ... إذا أبصرتْ قلباً خَلِيًّا من الهوى
وأومَتْ بلطف حَلَّ فيه فتون

يُقَاد لها طَوْعاً أسيراً وطالما ... أضاعت بوادى التِّيه صَبًّا ومغرَما
وكم فَوَّقَتْ سهماً وكم سفكتْ دماً ... وما جَرَّدَتْ من مرهفاتٍ وإنما
تقول له : كُنْ مُغْرَماً فيكون

* * *

١٩٦ — وقالت — مواليا — (من المخطوط) :

أعلنتْ قتلى بسيف اللحظ يا قاضى ... وبتّ صابر على حكمك وهُو ماضى[1]
ويجدّ فى اللُّومِ منْ كانْ مِ الهوَى فاضى ... هات اللوايح واقنعْ معشر العذَّال[2]
بالحكم فيما حصل إن كنتَ انا راضِى[3]

* * *

(١) فى المخطوط « ظلمه » بدل : « حكمك » والكلمة الأخيرة مكتوبة فى المخطوط أيضاً فوق الكلمة الأولى بخط آخر .
(٢) فى المخطوط : « من الهوى » بدل : « م الهوى » .
(٣) فى نسخة من المخطوط : « ما الحكم » بدل : « بالحكم » .

١٩٧ — وقالت (من المخطوط) :

أصُبْحٌ بذاك الحيِّ بان شروقُه ... أم البدرُ فى صحوٍ يلوح بريقُه
أم الثغر من «ليلى» تَبَسَّم ضاحكا ... بليل زكا صَفْواً وراق رَحِيقُه
أم الوَجْـد فى قلبى تلظَّى بشوقها ... تنفستُ صُعْدَاءً فشبّ حريقه(١)
فياحادىَ الأظعان إن أدّى السرى ... لواد بِعَرْفِ الروح فاحَ عَبيقه(٢)
فَثَقِّلْ بأخفافِ المَطِىِّ لـكى ترى ... كَثِيباً بسَطْحٍ ضل عنه عليقه
وليس ضلالُ المرء جهلَ سبيلِهِ ... ولـكن بصخر الصدّ سُدَّ طريقُه
تأمَّلْ ترى تلك الفيافى فربمـا ... تُريكَ رسوماً سار فيها فَرِيقه
فعرِّجْ على الآثار تلقى «برامة» ... مَهَادِرَ غَيْثٍ رَاق فيها دَفيقه(٣)
فهاك كئوساً إن تكرمتَ مَلْأَها ... شَفَيْتَ أُوَاماً هاضَ صَدْرى شهيقُه
هناك ظِبَاءٌ حَىَّ عَنِّى كِنَاسَها ... أُجِرْتَ جميلا فاحَ شكراً نَشِيقُه
فعدِّدْ صفاتى فى الغَرَامِ كما تَرَى ... سهادُ النوى قد دَقَّ عظمى دقيقه
لَهِجْتُ بصحو البدر لم أَدْرِ أننى ... بسَفْحٍ عَقِيقٍ صادَ قلبى شقيقُه
وذاك إذا ما كنت فى السلم خالياً ... بِرَوْضِ شباب ماسَ عُجْباً وَرِيقُه
رُمِيتُ بِسَهْمَىْ هُدْب لَحْظ وقامة ... فغاصا بقلب طاش وَجداً خفيقه
فكم جئتُ أرضاً أقتفِى إثرَ من رمى ... ودَمْعِى بسَفْحِ البِيدِ يَجْرِى عقيقُه(٤)

* * *

١٩٨ — وقالت (من المخطوط) :

الْحُبُّ عِنْدَ ذَوِيهِ خَيْرُ مُكْتَتَمٍ ... وَإِنْ جَرَى الدَّمْعُ مُنْهَلاً بمنسجم
يَرْنُو السَّقِيمُ بعينٍ نحوَ مَطْلَبِه ... وَمَا لَهُ دُونَ مَدِّ الكَف من هِمَم
يَدُقُّ بابَ الرَّجَا بِالذُّلِّ مُفْتَقِرًا ... وبالْخَشَا لاعج يربُو على الضَّرَم(٥)

(١) فى المخطوط : « صعدا » .
(٢ ، ٣) هكذا الأصل .
(٤) فى المخطوط « رامها » بدل : « من رمى » .
(٥) فى المخطوط : « لاعب » بدل : « لاعج » .

صَبٌّ كَئِيب نَحِيل آسِف وَلِهٌ ... تَخَالُهُ خُصَّ بَيْنَ النَّاسِ بالبَكَمِ
أَمَّ الرَّحَابَ وَحَاشَا أَنْ يُضَامَ لَكُم ... ضَيْفٌ أَتَى يَشْتَكِي وَيْلاً من السَّقَمِ
فَرَاقِبُوا حَالَةً عَنْهَا الرَّقِيبُ حكَى ... عَمْدًا فَهَيَّجَ مَا بالْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ
لَا تُشْمِتُوا عَاذِلِي وَالصُّبْحُ مُبْتَسِمٌ ... إِنَّ اللَّيَالِي سَقَتْنِي السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَلَيْسَ لِي دُونَكُمْ قَصْدٌ أُؤَمِّلُهُ ... وَحَقَّ مَنْ أَنْشَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَدَمِ
فَوَالَّذِي خَصَّكُمْ بالْحِلْمِ لَسْتُ أَرَى ... طِبًّا لِكَلْمِي سِوَى الْإِحْسَانِ بالْكَلِمِ

* * *

١٩٩ — وقالت (من المخطوط) :

نَأَيْتَ عَنْ أَعْيُنِي يَابَدْرُ لَا عَجَبٌ ... كَمْ وَارَتِ السُّحْبُ تَحْتَ الذَّيلِ أَقْمَارا
وَكَمْ كَوَى الْبُعْدُ أَحْشَاءً بِجَذْوَتِهِ ... وَالدَّمْعُ صَارَ دَمًا بالْخَدِّ مِدْرَارا
دَارِكْ فَإِنَّ الْهَوَى للصبِّ قَاتِلُهُ ... أَسْعِفْ فَإِنَّ الْجَوَى للرُّشْدِ قَدْ دَارا(١)
وَارْحَمْ فُؤَادًا بِهِ نَارُ الْغَضَا وَقَدَتْ ... فَاعْطِفْ بِقُرْبِي عَسَى أَنْ تُطْفِئَ النَّارَا(٢)

* * *

٢٠٠ — وقالت (من المخطوط) :

يَا فَالِقَ الْحَبِّ كَم أَنْقَذْتَ وَلْهَانا ... يَارَافِعَ السَّبْعِ كَم أَرْشَدْتَ حَيْرَانا(٣)
يَامَنْ حُدُوثُ الْوَرَى وَالدَّهْرُ فِي قِدَمٍ ... لَهُ ، وَمَهْمَا يَقُلْ لِلْأَمْرِ: كُنْ ، كَانَا(٤)
يَامَنْ لَهُ أُمُّ مُوسَىٰ عِنْدَ مَا طَلَبَتْ ... أَزَالَ عَنْهَا بِجَمْعِ الشَّمْلِ أَحْزَانا
أَلْقَتْ بِيَمِّ النَّوَى تابوتَ مُهْجَتِها ... أَسْدَلْتَ لُطْفًا بَقِي فِي الْيَمِّ إِنْسَانا

---

(١) فى المخطوط : « وأسعف » بدل : « أسعف »
(٢) فى المخطوط : « واد الغضا وقد » بدل : « نارالغضا وقدت »
(٣) فى المخطوط : « ولهانا » بدل : « حيرانا »
(٤) فى المخطوط : « الرها » بدل « والدهر » .

بحقّ أسْرار عُشّاقٍ لها شَغَفٌ بطلعـــة الحِبّ أو ما بانَ أحيانا
تُغيثُ قلبي وَتَهْدِي عَيْنَ باصِرَتي وَلا تَدَعْنِي بِوَادِي التّيــهِ وَلْهانا

* * *

٢٠١ — وقالت (من المخطوط) :

لَيْلُ التّلاقِي تَبَدّتْ فيهِ أقْمارُ وَبِالّلقا أشْرَقَتْ وَاللهِ أقْمَار
وَجَادَ بِالْقُرْبِ مَيّاسٌ إلَى وَلِهٍ قَدْ مَسّهُ مِنْ فِرَاقِ الحبّ أضرار[1]
وَنَاوَلَ الصّبّ أكْوَاباً مُعَطّرَةً لِرَوْحِهَا فى صَمِيمِ القَلْبِ إعْصار[2]

* * *

٢٠٢ — وقالت (من المخطوط) :

أفْدِيهِ مِنْ ناعِسٍ بالسِّحْرِ مُكْتَحِلِ رِيمٌ بِسُكْرِ الهوى لا بالكَرَى ثَمِلُ
تُرِيكَ أهْدَابُهُ الْوَسْنَى إذا انطبقت عِنَاقَ صَبٍّ لِحِبٍّ بالْغَرَامِ بُلِي
فَيَاوَقَى اللهُ هَاتِيكَ الجفُونَ كَما أعَزّ أنْصَارَهُمْ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ
نادَيْتُ لَمّا شَجَانى حَالُ غَفْوَتِهَا وَهْىَ الْيَوَاقِظُ فِي فَتْكٍ بِلا مَهَلِ
باللهِ يَا نَوْمُ دَعْهَا لَحْظَةً لِتَرَى عَيْنَ الكئيب وَسَيْلَ الْمَدْمَعِ الهَطِلِ
أمِنْكَ يَانَوْمُ أمْ مِنْ ذَا الدلالِ غَدَتْ تُبْنَى الجفونُ عَلَى كَسْرٍ مِنَ الأزَلِ
باللهِ ياطَرْفَهَا الجانى على كَبِدِى خُذْ لِي أمَاناً لَقَدْ مُنيت بالأجل
هَيْفَاءُ لَوْ خَطَرَتْ بَيْنَ الرّياضِ سَبَتْ رُوحَ الأسُود بِمَيّاس مِنَ الأسَل
فيَالَهَا بانَةً جَادَتْ وَمَا صَرَمَتْ حَبَائِلَ الودِّ مِنْ حلّ وَمُرْتَحل[3]

* * *

(١) فى المخطوط : « وجاء » بدل : « وجاد » .
(٢) فى المخطوط : « لروحها » بدل : لروحها » .
(٣) فى المخطوط « وصل » بدل : « حل »

٢٠٣ — وقالت (من المخطوط) :

ليه حاجب اللحظ يمنعنى وانا مَدْعِى ... لرىّ روضِ المحاسن من دمى ودمعى
مَضَّيتْ حياتى بأبواب الرضا أنْعِى ... طايعْ أوامرْ غرامُه إن عَدَلْ أو جار
قُولّى وحَقّ المحبهْ : إيهْ سببْ منعى ؟

* * *

٢٠٤ — وقالت (من المخطوط) :

سَلُوا باللّوَا عن قلب صَبٍّ أضاعَه ... عناقُ حبيب يومَ رامَ وَداعَه
وكنتُ أرى لِلْبَيْن سُمًّا بذى الضَّنَا ... فأرهق من روعى وأخْشَى انساعَه
رَضِيتُ بما يرضاه فى كلّ مذهب ... ويأبَى وُشَاتِى فيه إلا انقطاعَه[1]
أبيتُ وأشجانى على غارِب الرُّبَا ... لعلّى بآثارٍ ترينى بِقَاعَه
أقولُ لمن حولى لدى بُرْهَةِ النَّوَى ... سَلُوا الحرَّ عن عَبْدٍ أيرضَى ضَيَاعَه
فياحِلَّ تلويعى وتَحْرِيمَ سَلْوَتِى ... ويا حُسْنَ مأمولٍ أُدِيمُ اتباعَه
ويا حُلْوَ آمالِى وحُسْنَ مَظِنَّتِى ... ويا ذِكْرَ مَحْبُوبٍ أُحِبُّ استماعَه

* * *

٢٠٥ — وقالت (من المخطوط) :

سَلُوا جفنىَ الهامى أسُقْمٌ أصابَهُ ... أم الوجدُ من « لَيْلَى » أباحَ انصبابَهُ
وَمِيلُوا على قلبى بِلَوْمٍ فإنه ... دعاه إلى نادى الهَوَى فأجابه
تَعَدَّى على صدرى زَعِيمُ غَرَامِه ... وأضرمَ بالظلم الصريح التهابَه
وآلَى على صَبْرِى ونومِى بنفيهِمْ ... ولُبِّى بغمز الحاجبين أذَابَه
فلى بين مكسورين : قلبى وجَفْنِه ... حياةُ عزيز أغلقَ الذلُّ بابَه
دَعُونى لقلب قَلَّبَتْه يَدُ الجَوَى ... ويَلْقَى بِحُبِّ الحِبِّ عَذْبًا عَذَابه

---

(١) فى المخطوط : « ويرضى » ، بدل : « يأبى » .

وَلَا تَعْذُلُوا آماقَ صَبٍّ بِقُرْحَةٍ ... وَعِنْدَ أُمْتِلاءِ الْكأْسِ يُبْدِى حَبَابَهَ
وَلَا تُنْكِرُوا أُخدُود خَدٍّ بِمَدْمَعٍ ... وَسَيْلُ النَّوَى فِيهِ أَدَامَ انْسِيَابَهُ

* * *

٢٠٦ — وقالت (فى جَبْر الخليج) وقد دُعِيَت عند إحدى صديقاتها :

مُجَابٌ قَدْ دَعَا وَالْأُنْسُ عِيد ... وَأَرْوَى الْقَلْبَ بالنِّيل الجديد
وَقَدْ رَاقَتْ شَمُولُ الْيَوْمِ حَتَّىٰ ... شَمِمْنَا الْعُودَ فِى كَفِّ الْفَرِيد
طَرِبْنَا بالزهُور وبالنَّدَامىٰ ... وَجَاوَرنَا السَّعِيدَ بألف عيد
يُعَادُ مَعَ المسرَّة كُلَّ حِينٍ ... وَدَاعِى الْأُنْسِ فِى عَيْشٍ رَغِيد
وَإِنْ لَامَ الْخَلَاةُ إِذَا طَرِبْنَا ... فَقُلْ لهمُ غَلِطْتُمْ فِى الشهُود
وَغَادِرْهُمْ بغفلتهم وَحَيِّى ... لمجلسنا على رَغْمِ العنيد[1]
إلامَ يَلُومُنِى فِيهَا رَقِيبِى ... وَأُمْسِى قائلاً : هَلْ مِنْ مَزِيد
يُكلِّفنِى الْعَذُولُ بِضِدِّ قَصْدِى ... وَمَالِى عَنْ هَوَاهَا مِنْ مَحِيد
وَلَيْسَ عَلَيْهِ وِزْرٌ فِى وَلُوعى ... وَمَا الْمَوْلَىٰ بِظَلَّامِ الْعَبيد[2]

---

(١) فى المطبوع : « العتيد » بدل : « العنيد » .
(٢) فى المطبوع : « للعبيد » بدل : « العبيد » .

الشعر الأخلاقي

٢٠٧ — قالت :

بيدِ العفافِ أصونُ عزَّ حجابى ... وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرةٍ وقّادة وقريحة ... نقّادة قد كُمِّلت آدابى
ولقد نظمتُ الشعر شِيمةَ معشر ... قبلى ذواتِ الخدر والأحسابِ
ما قلته إلا فكاهةَ ناطقٍ ... يهوَى بلاغة منطق وكتابِ
فَبُنَيَّةُ «المهدى» و«ليلى» قدوتى ... وبفطنتى أُعْطِيتُ فَصْلَ خطابى (١)
لله دَرُّ كواعبٍ مِنْوالُها ... نسجُ العُلا لعوانسٍ وكَعَابِ
وخُصِصْتُ بالدرِّ الثمينِ وحامت «الخنساء» فى «صخرٍ» وَجَوْبِ صعابِ
فجعلتُ مِرْآتِى جبينَ دفاترى ... وجعلت من نقشِ المدادِ خضَابى
كم زخرفت وَجَناتِ طِرْسِى أُنْمُلى ... بِعِذَار خَطٍّ أو إهاب شباب
ولكمْ زها شمعُ الذكا وتضوَّعَتْ ... بعبير قَوْلى روضةُ الأحبابِ
مَنْطَقْتُ ربّات البها بمناطقٍ ... يَغْبِطْنَها فى حضرتى وغيابى
وحَلَلْتُ فى نادى الشعور ذوائبا ... عَرَفَتْ شَعَائِرها ذَوُو الأَنْسَابِ
عوّذتُ من فكرى فنونَ بلاغتى ... بتميمة غَرَّا وحِرز حجابِ
ماضرَّنى أدبى وحسنُ تعلمى ... إلا بكونى زهرةَ الألبابِ
ماساءنى خِدْرِى وعَقد عصابتى ... وطرازُ ثوبى واعتزازُ رحابى
ما عاقنى حِجْلِى عن العَلْيَا ولا ... سَدْلُ الخمارِ بلمَّتى ونِقَابِى

---

(١) بنية المهدى ، هى علية بنت المهدى العباسى ، و « ليلى » هى ليلى الأخيلية . وكلتاهما ممن نبغن فى الشعر والأدب .

عن طيِّ مِضمار الرهانِ إذا اشتكت ... صَعْبَ السباقِ مطامحُ الركابِ
بل صَوْلَتى فى راحتى وتفرُّسِى ... فى حُسْنِ ما أسعى لخير مآبِ
ناهيكَ من سِرٍّ مَصُونٍ كنهُهُ ... شاعت غرابتُه لدى الأغرابِ
كالمسك مختوم بدُرْج خزائن ... ويضوع طَيِّبُ طِيبه بملابِ
أو كالبحار حَوَت جواهر لؤلؤ ... عن مسها شَلَّتْ يدُ الطلابِ
دُرّ لشوق نوالها ومنالها ... كم كابد الغوّاص فصل عذابِ
والعنبرُ المشهودُ وافق صونَها ... وشئونه تُتلى بكل كتابِ
فأبرتُ مصباح البراعةِ وهْىَ لِى ... مِنَحُ الإله مواهبُ الوهّابِ

* * *

٢٠٨ — وقالت :

إن الدهاةَ وإن أبْدَوْا بشاشَتهم ... فلا تَقُلْ بغرورٍ فاتنى الغصبُ
فكم بحلو شرابٍ سُمّ مَقتلةٍ ... وَالأُسْدُ تَبْسِم إذْ يبدولها العطبُ

* * *

٢٠٩ — وقالت :

لا تفرحَنَّ بدنيا أقبلتْ وصَفَتْ ... بكلِّ ما ترتَضِى واحذَرْ عواقبَها

* * *

٢١٠ — وقالت :

رَبّ الدَّرَاهِمِ أحْصاهَا وَعَدَّدَها ... فِى حِصن أكْياسِهِ أَلْفاً على أَلْف
والحمدُ للهِ إذْ عَدْى لِمسْبَحَتِى ... وَعَنْ سِوَاهَا تَرَانِى قاصِرَ الطَّرْفِ

* * *

٢١١ — وقالت :

حُسْنُ الوفاء وَصِدْقُ الودِّ قَدْ صُرِعَا ... وَٱسْتَوْحَشَا بِفَيَافِي الْغَدْرِ وانْصَدَعَا
كلاهُمَا مِنْ سَقَامٍ لا مَسَاسَ لَهُ ... حُزْنًا عَلَى الْحَقِّ والإنْصَاف مُذْ رُفِعَا
وَقَدْ رَأَيْتُ الشَّفَا بالصَّبْرِ مُمْتَزِجًا ... والصَّبْرُ أَحْمَدُ مَا أَجْدَى وَمَا نَفَعَا
فَٱسْتَعْمِلِ الصَّبْرَ إنَّ الصبرَ مَوْقعُه ... مِنَ الْقُلُوبِ جَمِيـــلٌ أَيْنَمَا وَقَعَا
يَا سَادَةً خَلَّفُونى بَعْدَ فُرْقَتِهم ... أَهْفُو إِلَى كلِّ دَاعٍ بالْغَرَامِ دَعَا
قَدْ ضَرَّنى الْبُعْدُ عَنْ مِرْآةِ طَلْعَتكم ... وَقَطَّعَ الْقَلْبَ مِنِّى صَدُّكُمْ قِطَعَا

* * *

٢١٢ — وقالت :

احْفَظْ لِسَانَكَ مِنْ ذَمِّ الأنام وَدَعْ ... أَمْرَ الجميع لِمَنْ أَمْضَاهُ فِي الْقِدَمِ
مَعَايِبُ النَّاسِ لا يَكْبُرْنَ عَنْ غَلَطِى ... إِذَا تَمَمْتُ بِهَا فِي مَحْفِلِ الهِمَمِ

* * *

٢١٣ — وقالت :

النَّاسُ شَتَّىٰ فِي الصِّفَاتِ فَلَا تَكُنْ ... مِمَّنْ يَقِيسُ الدُّرَّ يوماً بِالْبَرَدْ
إِنْ قِسْتَ فَظًّا بِالرَّقِيقِ فَلَا تَلُمْ ... مِنْ بَعْدِ نَفْسِكَ فِي الْوَرَى أَبَدًا أَحَدْ

* * *

٢١٤ — وقالت :

كم ذا نُهَنِّئُ بالآمالِ أَنْفُسَنا ... حَتَّىٰ كَأَنَّ الْفَتَىٰ طُولَ المدى باقى
فالدَّهْرُ يَبْسِمُ عَنْ حِقْدٍ بِشَاشَرِه ... فينا ويطوى نَكالاً ضِمْنَ إِشْفَاقِ
فانْظُرْ تَرَ النَّاسَ سَكْرَى غفلةٍ عَظُمَتْ ... أَدَارَهَا الدَّهْرُ وَٱسْتَغْنَىٰ عن السَّاقِي
ما الْحَظُّ إلاَّ امتلاكُ المرءِ عِفَّتَه ... وَمَا السَّعَادَةُ إلاَّ حُسْنُ أَخْلَاقِ

٢١٥ — وقالت (من المخطوط) :

آلُ الغرُور لقد ساقُوا نجائبَهُمْ ... شرقاً وغرباً فَدَاسَتْ كلَّ ما لاقَتْ
ظَنُّوا الزَّمَانَ عَلَى رَغْمٍ يُطاوِعهُمْ ... وأنَّ أوْقَاتَهُ طَوْعاً لهُ رَاقَتْ
وَلَيْسَ إلّا عَدُوًّا سَوْفَ يَفْجَؤُهُمْ ... بِرُقْطِ غَدْرٍ إلى عاداتِهَا اشتاقَتْ

* * *

٢١٦ — وقالت (من المخطوط) :

قالت دنانير آل الحرص : ويلتَنا ... لقد رُمينا بسجن غير محدود
أين العدولُ التى تقتص من زُمَرٍ ... صندوقُهُم جَدَثٌ لكلِّ مفقود[1]
فقلتُ : لاتَقْنَطِى يومُ القِصاصِ غَدًا ... وفيه لانَفْعَ فى مالٍ ومولود

* * *

٢١٧ — وقالت (من المخطوط) :

حَيَّى الحريصُ صديقَه بتحيةٍ ... فأجابه بيَدَيْهِ دونَ لسانِه
حَذَراً على أن يَصْرِفَ الأنفاسَ فى ... رَدِّ السلامِ وصانَها ببَنَانِه
فأجبتُه : دَعْهَا ليومِ حسابِه ... سَيَزِيدُها نَفْخاً على نيرانِهِ[2]

* * *

٢١٨ — وقالت (من المخطوط) :

أفديك لاتُضْنِى الفؤادَ تحسُّرا ... بعلامَ كان ولم يكنْ ولماذا ؟
وانظر تَرَى مُلاكَ أرضِكَ قد غَدَوْا ... بَعْدَ العُلَا تحتَ الصخور جُذَاذَا[3]
فاقنَعْ بما يَرْضَى المدبِّرُ واتخذْ ... مَرْضَاةَ صَبْرِك والهُدَى أستاذا[4]

---

(١) فى المخطوط : « الذى يقتص من ذمر » .
(٢) فى المخطوط : « نق » بدل : « نفخا » .
(٣) فى المخطوط : « غدد » بدل : « غدوا » .
(٤) فى المخطوط : « فارضى » بدل : « فاقنع » .

الشعر الدينى

٢١٩ — وقالت توسلا بالمقام النبوى صلى الله عليه وسلم :

أعَنْ وَمِيضٍ سَرَى فى حِنْدِسِ الظُّلَمِ ... أم نَسْمَةٌ هاجَت الأشواقَ من «إضَمِ»

فَجَدَّدَتْ لِيَ عَهْدًا بالغرام مَضَى ... وشاقَنى نحو أحبابى «بذِى سَلَمِ»

دَعَا فؤادىَ من بعد السُّلُوِّ إلى ... ما كنتُ أعْهَدُ فى قلبى من القِدَمِ

وهاجَنِى لحبيبٍ عِشْقُ مَنْظَرِه ... يَمْحُو ويُثْبِتُ ما يَهْوَاه من عَدَمِ

يمحو سُلُوِّى كما يمحو إساءتَه ... حُبِّى له فعذابى فيه كالنِّعَمِ

رام الوُشَاةُ سُلُوِّى عن مَحَبَّتِه ... ولم أوفِّ لهم عَذْلًا ولم أرُمِ

كيف اسْتِتَارُ الجَوَى يا من تَمَلَّكَنِى ... وشاهدُ العشقِ فى العُشَّاق كالعَلَمِ

فيالَه مُعْرِضًا عنى ومعترِضا ... بين الفراغ وقلبى وهْو متَّهَمِى

حَسْبِى من الحبِّ ما أفضَى إلى تلفى ... وما لَقِيتُ من الآلامِ والسَّقَمِ

إنى رَدَدْتُ عِنانِى عن غِوَايَتِه ... وقلتُ : يانفسُ خلِّى باعثَ الندمِ

ولُذْتُ بالمصطفَى ربِّ الشفاعةِ إذْ ... يدعو المنادِى فتحيا الناس من رَجَم (١)

طه الذى قد كَسَى إشراقُ بَعْثَتِه ... وَجْهَ الوجود سَنَاء الرُّشْدِ والكَرَمِ

طه الذى كَلَّلَتْ أنوارُ سُنَّتِه ... تِيجَانَ أُمتِه فَضْلًا على الأممِ

نِعْمَ الحبيبُ الذى مَنَّ الرقيبُ به ... وَهْوَ القريبُ لراجى المجدِ والنِّعَمِ

رُوحى الفِداء ومن لى أن أكونَ له ... هذا الفداء وموجودى كمنعدِمِ

وما هى الرُّوح حتى أفتديه بها ... وَهْىَ البُغَاثُ بغارِ الظلمِ والظلَمِ

والعمرُ أفنتْ ثِقالَ الوِزْرِ لحتُه ... وبددته صروفُ الدهر بالتُّهَمِ

---

(١) فى المطبوع : رحم بالحاء المهملة .

أين الرشادُ الذى أعددتهُ لغدٍ ... غويتُ عنه فزلتْ بالهوَى قدَمى

مَنْ لى بتُرْبِ رِحابٍ لو أفوزُ بها ... كَحَلْتُ عيناً أفاضَتْ دَمْعَها بدَمِ

من لى بأطلالِ بانٍ عَزَّ مَنْظَرُها ... تُسْقَى بطَلٍّ من الآماقِ منسجِم

تحطّ أثقال وِزر لا تقومُ بها ... شُمّ الرواسى من رَاسٍ ومنهدِم

فكم بِنَبْعٍ زلال فاضَ من يده ... أَرْوى الأُوَامَ وأَسْقِى منه كلَّ ظَمِى

والجِذْع إن له من بعده جَزَعا ... لما نأى عنه مولَى العُرْبِ والعَجَم

لانَتْ له الصخرةُ الصمّاء طائعةً ... مذ مسّها سيدُ الكونين بالقدَم

فيالها مُعْجِزاتٍ مالها عَدَدٌ ... أَقَلُّها ما بدَا ناراً على عَلَمِ

ولا يحيطُ به مَدْحى ولو جُعِلَتْ ... جوارحى ألسُنًا ينطِقْنَ بالحِكَمِ

وإنما أرتجى من مَدْحِه قَبَسًا ... يهدى الصِّرَاطَ ويَشْفِى الرُّوحَ من ألَمِ

وكيف لى بانّعاظِ النفس آمِرَتِى ... بالسُّوء ناهيتى عن مَوْرِدِ النعَمِ

فما التماسِىَ عن خيرٍ يقرّبنى ... زُلْفَى النَّعِيم ولا نَسْقى بمنتظِمِ

لكنَّ لى أسوةً أشْفِى بها وَصَبِى ... حسن ارتباطى بحبلٍ غير منفصِمِ

ومنّة اللهِ دينٌ وصفُه قيم ... بحجّتى إن أخَفْ يومَ اللّقا يَقُمِ

وما سوى فوز كونى بعض أمّته ... ذُخْرًا أفوزُ به من زَلّةِ الوَصَمِ

إلا التماسِىَ عَفْوًا بالشفاعةِ لى ... من خَاتَمِ الرُّسْلِ خيرِ الخَلْقِ كلّهمِ

مَدَدْتُ كفَّ الرجا أرجُو مَرَاحِمَه ... وقد حَلَلْتُ به فى بُهْرَةِ الحَرَمِ

« محمدُ » المصطفَى مِشْكاةُ رحمتِنا ... مِصْبَاحُ حجتنا فى بَعْثَةِ الأُمَمِ

يامن به أقْتَدِى يوم الزّحام إذا ... أبديتُ ناصيةً مفحومةَ الوَسَمِ

أقول حين أُوافى الحشْرَ فى خَجَلٍ ... إن الكبائرَ أنستْ ذِكْرَةَ اللَّمَمِ

ياخيرَ من أرتجى إن لم تكن مَدَدى ... وازلّتِى يومَ وَضْعِ القِسْطِ واندَمِى

فاشفَعْ بحبِّ الذى أنتَ الحبيبُ له ... لولاك ماأبرز الدنيا من العَدَمِ

عليك أزكَى صلاةِ الله ما افتتحتْ ... أدوارِ دهرٍ وما وَلتْ بمختتَمِ

٢٣٠ — وقالت :

لعِبَ الهوَى بفؤاد صَبّ نائى ... وسقاهُ كأسَىْ لوعة وعنـاء
ما بالهُ لزمَ الهوَى حتى غـدا ... فى الحب لم يَبْرَحْ عن البُرَحاء
قد كان قبلَ العِشق لايدرى الجوَى ... هل تاهَ بعد العشق فى تَيْهَاء
أمْ هَامَ وَجْدًا فِى المَلاَح فأصبحت ... أحْشاؤهُ لا تُرْتَجَىٰ لشـفاء
مَا بالهُ يشـكُو ويشـكر حالة ... أمْسَىٰ بها مِنْ جُمْلَة الشُّهَدَاء
أبداً تراهُ لاهِجًا باسم الذى ... يَهْوَاهُ فى الإصْبَاح والإمساء
كُفِّى مدامعىَ الغِزار أو اذْرِفِى ... وتقطَّعِى بالهجر يا أحشـائى
وَتثبَّتِى يا مُهْجَتِى أوْ فاجْزَعِى ... وتفَطَّرِى أوْ فاصـبرى لقضـاء
حَـكَمَ الهوَى والقلبُ لازمَهُ الجَوَى ... تَبْـقَىٰ لواعِجُه بطولِ بقائى
دمعى وقلبى مُطْلَقٌ وَمُقَيَّـد ... هذا لتعـذيبى وذا لشقائى
حُبٌّ تمكَّن فى الفؤاد وقد بدت ... آثارهُ فى سائر الأعضـاء
إنِّى لَيُعْجِبُنِى الذى يرضى بهِ ... سِيَّانِ بُعْدِى عنهُ أو إدنائى
فعـلامة العُشَّاق حُسْنُ رِضَاهمُو ... عَمَّا ارتضى المحبوبُ من أشياء
رقد اعترَفْتُ بأن مثلى لم يَقم ... بحقوقـه ومقصّرٌ بأداء
فَقَصَدْتُ ساحةَ عَفْوِهِ مُتَسَرْبِلاً ... بجنايتى مُتَوَشِّحًا بحيـائى
وأتيتُ بابَكَ والرَّجاء يَؤُمُّنِى ... وَاخَجْلَتِى إن لم أفُزْ برضاء
غَوْثاه من لى إن مُنِعْت وكيف لى ... بِمُسَاعِدٍ إنْ لم تَقُمْ بوفائى
أم كيف أنْعَمُ بالبقا ويَلَذّ لى ... عَيْشٌ إذا أشْمَتَّ بى أعدائى[1]
وادِى الغَضَا قلبى بما ألقاهُ من ... أمَّارَتى بالسُّوء والضَّرَّاء

(١) فى المطبوع : « إذ » ، بدلا من : « إذا » .

فزعيمُ جيش الجهل حَطَّ عزائمى ... والشَّرُّ قوَّضَ مَرْبَعِى وبنائى
وكبائر الهفوات قد ألْبَسْنَنِي ... ثوبَ الهوان وَمَلْبَسَ الْبَأْساء
أنا فى رَحِيبِ رِحَابِ جُودكَ مُوجدى ... وَرِضاكَ يا مولاىَ من شُفَعائى
إن كان عِصْيَاتى وسوء جنايتى ... عَظُمَا وصرتُ مُهَدَّدًا بجزائى
فَقَضَاء عَفْوِكَ لا حُدُودَ لِوُسْعِه ... وعليه معتَمَدِى وحُسْنُ رَجَائى
يامَنْ يَرَى ما فى الضمير ولا يُرَى ... إنى رَجَوْتُكَ أنْ تُجِيبَ دُعَائى
يا عالم الشكْوَى وحَرَّ توجّعى ... دائى عظيم القَرْحِ جُدْ بِدَوائى
بحبيبك الهادى سألتُكَ دُلَّنى ... لعلاج أمراضِى وجَلْب شفائى
ثم الصَّلاة عليه ما هبَّ الصَّبا ... سَحَراً فعطر سائر الأرجاء

***

٢٢١ — وقالت :

مَالِيَ لما صَدَّنى ... تُرِكْتُ فِي التِّيهِ سُدَى
لا السَّامِرِى أضَلَّنى ... ولم أجاوِزْ مَوْعِدَا
حتى أقولَ أسَفاً ... ياقلبُ جُرِّعْتَ الرَّدَى
ما ذاكَ إلاّ قَلْبُهُ ... طُورٌ بِهِ لَبَّى النِّدَا
هَبْنِي اقترفتُ زَلَّةً ... فَاقَتْ عن الطَّوْرِ اعتدا
فإننى مِن آدمٍ ... وهْو إمامٌ لِلْهُدَى
وقد عَصَى مولاهُ إذْ ... مَدَّ إلى الْبُرِّ يَدَا
ثمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ... تابَ عَلَيْهِ وَهَدَى

***

٢٢٢ — وقالت ضارعة إلى الله لغفران الذنوب ، متوسلة إليه بالحبيب المحبوب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

إلٰهِى سَيِّدِى أنْتَ الْجَلِيل ... بباب رجائكَ العبد الذليل
ضعيف الحال منكسر فقير ... كثيرُ الغىّ ناصرُهُ قليل

فأنتَ لِذَنبِهِ رَبٌّ غَفُور ... كريمٌ صَفْحُهُ السَّامِي جَزِيل
قصدتُ حِماكَ يامولى الموالى ... أَرُومُ العفوَ لِي أَمَلٌ جميل
قصدتُ حِماكَ تَسْتُرُ قُبْحَ عيبى ... بسرِّ المصطفى إنى دخيل
فحاشا أنْ تُخَيِّبَ فِيكَ ظَنِّى ... وأنْتَ لعبدك الرّاجى كفيل
فإنْ يَكُ جُرْمُ عبدكَ ليس يُحْصَى ... فحسن رضاك ليس له عديل
فمن لى إن طُرِدْتُ وأىّ بابٍ ... أُيَمِّمُ دُونَ بابك يا جليل
لقد قاد الشَّقاء زِمامَ حَتْفِى ... لوادى خَجْلَتى بئس الدليل
فأَيْنَ أَفِرُّ من شيطان نفسى ... ومن أمّارتى أينَ السبيل[1]
عظيم العفو إن عظمت ذنوبى ... فلى أملٌ لعفوك لا يزول
بحبِّك للرّضا ترضَى عَلَى من ... أتىٰ لك وهْوَ معترفٌ ذَليل
فأنْتَ الحىّ مُحْيِى كلِّ حَىٍّ ... وأنتَ لمن دعا نِعم الوكيلُ

* * *

٢٢٣ — وقالت (من المخطوط) :

يا راقدَ الليل إن الليلَ سحّار ... نَبِّهْ عيونَكَ إن الفلْكَ دوّار
إن الظلام دِثار للكئيب وقَدْ ... لاحَتْ عليه بوجه الأفق أقمار
حَىَّ الليالى وخلِّ العينَ ساهرةً ... إن المنام على أهل الجَوَى عار
وكُنْ بَصِيرًا بما فيه النَّجَاةُ غَدًا ... فكم له اسْتُعْبِدَتْ بالرَّغْم أحرار
لاتطمَعَنَّ بفوزٍ فِى الهوى أبدًا ... فالنفسُ أمّارَةٌ والدهْرُ غَدّار(*)

---

(١) فى المطبوع : « أفرد » بدلا من : « أفر » .

(*) لاستكمال مايتصل بالشعر الدينى ، انظر فى باب الشعر العائلى (تتحدث عن نفسها) : القصائد التى مطلعها :

١ — « أتيت لبابك العالى بذلى » .
٢ — « أين الطريق لأبواب الفتوحات » .
٣ — « مرارة الصبر خصت ، بالحلاوات » .

وانظر كذلك فى الشعر الغزلى القطعة التى مطلعها : « ياقالى الحب كم أنقذت ولهانا » .

خواتيم

صدَّرنا هذا الديوان بمقدمات لطائفة من أدباء الجيل الحاضر وأديباته ، تمثل لنا رأى هذا الزمن الذى نعيش فيه ومبلغ تقدير أهله لشعر السيدة الجليلة « عائشة التيمورية » التى سطع نجمها فى سماء الأدب فى القرن الماضى .

ويطيب لنا أن نختم هذا الديوان بما وجدناه فى آخر النسخة المطبوعة من تقاريظ ، كتبها بعض العلماء الأجلاء ، ممن عاصروا الشاعرة الأديبة وقدَّروا لها أدبها وشاعريتها .

ومن الموازنة بين المقدمات والخواتيم ، يتجلّى للباحثين والنقّاد ما يمتاز به من الخصائص أدب كل من العصرين : الماضى والحاضر ، وما طرأ على أساليب الإنشاء من تطوّر بين القرنين : التاسع عشر والعشرين .

ونبدأ بالكلمة التى كتبتها الشاعرة الجليلة « عائشة التيمورية » ختاماً لديوانها المطبوع ، ونُتْبعها ما تلا ذلك من تقاريظ :

الخاتمة

« هذا آخر ما تيسَّرَ جَمْعُه ، وتحسَّن لذوى الطبع السَّلِيم وضعُه ، وقد جمعته رجاء أثَرٍ يبقى ، ودعاء بالرَّحمة إلى الله يرقَى ، مُعترفة بقصور الباع ، وقلة الاطلاع ، راجية من أدباء العصر أن لا يؤاخذونى بهفوة سبق إليها القلم ، وأن يُسْبِلُوا على هذا المجموع ذيل الإغضاء كما هو شأن الكرم . والله المسئول فى تمام القبول ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، آمين » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى) (وبعد) فإنى لما صمّمت العزم على طبع هذا الديوان ، وعرضته على بعض الأفاضل من نبلاء هذا الزمان ، ورَدَتْ إلىّ من بعضهم هذه التقاريظ الآتية ، بل الدُّرر البهية السامية) :

(١)

(فمن ذلك ما ورد من حضرة العلامة الأديب ، والفهامة اللوذعى الأريب ، بحر العلوم الزاخر ، وعَلَمُ الفضائل الرفيع الفاخر ، وحيد عصره ، وفريد دهره ، حضرة الشيخ محمد أحمد السمالوطى ، شكر الله أفضاله ، وحرس كماله . وهذا نص ما كتبه) :

« أتيمّن بفاتحة الفاتحة ، وخاتمة دعوى الكُمَّل الأتقياء ، وأتبرّك بالائتمار بأوامر الصلاة والتسليم على إمام الأنبياء .

ونبّأتمانى أن بالخدر عصمة ... صَدَقْتُمَا نبهتمانى إلى القصد
به ربّة التبيان فذا وإننى ... لأعجب من جمع تناهى إلى فرد
بيان أسَرَّ السحر فى طىّ لفظه ... وسِرٌّ أبان الذكر يهدى إلى الرشد
به مصدر الإفضال يندى ويزدهى ... به مورد الإقبال والمجد والحمد

به نادرة البيان ممن نشىء فى الحلية ومن ينشأ فى الحلية غير مبين ، به النفس العصامية ، والمدارك العائشية ، ولتعلمُنَّ نبأ ديوانها بعد حين ، إيه ما فتحت مصراعاً من أبواب هذا الديوان إلا وخِلْتنى فى عرش بلقيس ، ولا انجلَتْ لى أبكار هذه المعانى فى حلل البيان إلا وخالَنى من شهد أنى أدرت أكواب الخندريس ، ولا جاريته بنظير إلا وحاز قصب السبق بمراعاة النظير ، ولا تظاهرت عليه فى معترك الآداب إلا والته المحسنات البديعية والبلاغة بعد ذلك ظهير .

فلا صدق الدعوى مُجاريه للعُلى ... فجارى ولا صلى ولا أجمل السترا

إن نظمت عقود المدائح سخر ابن حمدان من مدائح متنبيه ، وأسف موسى المظفر على ما فاته مما وراء إطراء ابن النبيه ، وإن هزّت عامل براعتها فى الغزل فما للبراعة إلا أن تقول : ومن ابن هانى ؟ وأين من هذا ما عبث به الوليد وابنه صريع الغوانى ؟ ومتى أبانت عن الحقائق فالقول ما قالت حَذام ، ولئن برهنت على إبرام حكم فأجدر به أن يكون للكمال ابن الهمام . وهيهات أن تكون للخنساء مراثيها ، أو يترجم عن حال الآسى ومأسوّه بغير مبانيها ومعانيها ، فما ترى منشدها إلا نسيم الصبا والقوم أغصان ، أو باكى طريح كربلا عند شيعة كريم عدنان .

ما كنت أعلم أن النَّيرات غدت يصيدها شَرَكُ الأفهام والفكر

وأشهد اليقين أنها مع هذا الاطلاع ، وترامى الحكم على آدابها بما لا تحسن إلا به الأوضاع ، ما شغلتها نَيِّرات أفكارها بما يسول لها الدعوى ، ولا استمسكت إلا بالعروة الوثقى ، والسبب الأقوى ، وبمجدها أُتْتَلِى ، إنها لم تأل جُهدًا فى استفزاز عزائمها إلى مدارك الحق المبين ، فلم تلحد عنه لآدابها ، بل أذعنت له وصدَّقت بكلمات ربها وكُتُبِهِ وكانت من القانتين .

كتبه : **محمد أحمد السمالوطى**

(٢)

(ومن ذلك ما ورد من خلاصة أهل المعارف والفنون ، ومنهل الأدب الصافى بل سره المصون ، العلامة الذى ما ابيضَّ قرطاس إلا شرفاً بسواد مداده ، ولا انبرى قلم إلا للقيام بخدمة تحريره وإمداده ، حضرة الشيخ « أحمد الزرقانى » ، وهذا نص ما كتبه) :

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنا نسألك التوفيق إلى الاستمساك بما يُقربنا إليك من الحمد ، كما نسألك العصمة من الاسترسال فيما يُبعدنا عنك من الخطأ والعَمْد ، ونضرعُ إليك اللهم أن تزجى سحائب صلواتك الوافية الوافرة ، وترسل نواسم

تسليماتك الطيبة العاطرة ، على روح الوجود ، ومعدن الجود ، والسبب الأعظم فى سعادة كل موجود ، ينبوع الحكمة ومرجع الثناء المعلن بفضل « عائشة » على النساء ، وعلى آله هُداة الأمة ، وأصحابه الأمراء الأئمة ، ما نسج البدر ملاءة نوره لتغطية جواريه ، وما نشر الصبح جناحيه فألحق النسر الطائر بأخيه .

وبعد : فقد اطلعت على هذا الديوان المسمى « بحلية الطراز » ، الآتى من بدائع الكلام بما فوق البلاغة ودون الإعجاز ، فوجدته ديواناً غريب النزعة ، بهيج الطلعة ، قد جمع إلى جزالة العبارة سهولة الانسجام ، كما أضاف إلى لطف المأخذ متانة الإحكام ، ما شئت من غزل يسْبى العقول بسحره ، ويحل بين سحر الإبداع ونحره :

ومديح ينسيك ذكرى حبيب وتهانى تهزا بشعر ابن هانى
ومراثى تهتز منها الرّواسى بل تعيد الأرواح للأبدان

بل ما شئت من حكم يحق أن تضرب بها الأمثال ، وتقتدى بما تهتدى إليه منها فحول الرجال ، وتشير إلى حوليات ابن أبى سُلمى إليك فما لك فى ميدان التجربة مجال ، إلى غير ذلك من الأغراض الأدبية التى سلك منها طرائق قِدَدا ، وعذُبت مناهلها الصافية فكانت لكل بحر مددا . وأقسم بذمة الأدب التى لا تخفر ، ونعمة البيان التى لا تغمط ولا تكفر ، والليل إذا يغشى من سواد سطوره المسكية ، والنهار إذا تجلّى من بياض طروسه الكافورية ، ما وقفت عند غريب من معانيه إلا وناداني : أمامك ما هو أغرب ، ولا تلبثت عند غرض من أغراضه البديعة إلا وجذبنى إليه بما هو ألطف وأطرب . ولا عجب فى ظهور الدر من موطنه ، وصدور التبر من معدنه ، فإنه نتيجة أفكار سيدة أديبة لم تشارَك فى أدبها النضير ، بل جلّت عن المقابلة بمثلها فلا يراعى عند مدحها النظير ، دوحة الشرف التى زكت أصلاً وفرعاً ، وغُرّة المجد التى كرمت تأدباً وطبعاً ، روح الفضائل التى لا يستدل عليها بغير آثارها المحمودة ، ولا تصل إليها الأبصار وإن كانت فضائلها مشهورة مشهودة :

عقيلة معشر سادوا وشادوا عُـلاهم باليَرَاع وبالحسام
يكاد الفضل يسجد فى صَغار إذا ذُكِر اسمهم بين الأسامى
قد اقتسموا العُلَىٰ أى اقتسام وشيّد مجدهم من وقت «سام»
يتيه الدهر إن ذُكروا ابتهاجاً ويرفل فى ازدهاء وابتسام
فحاشا أن يُجاريهـم مُجار لدى العلياء والهمم الجسام

خلّد الله أفكارها السامية ، كنز النفائس اللآلى ، وأدامها وذويها رافلين فى حُلل السعادة والإقبال ، مُبلغين بمنّه تعالى من معالى الرفعـة كمال النهاية ونهاية الكمال .

الإمضاء كتبه الفقير : أحمد أبو البقا الزرقانى

(٣)

(ومن ذلك ما ورد من الفاضل الغنى بشهرته عن التنبيه ، والسابق الذى غبرت آثاره المشكورة فى وجه مُجَاريه ، حامى حقيقة الأدب بحسام فكره الثاقب ، رامى ثغرة الأغراض الشاسعة بنبل نبله الصائب ، الألمعى المعروف ، واللوذعى اليعروف ، حضرة « سليم بك رحمى » أدامه الله مورداً للفضائل ، وظلا ظليلا لكل كاتب وقائل . آمين . وهذا نص ما كتبه) :

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم بين يدى نجواى حمداً لمنشىء هذا النظام التام ، وصلاة وسلاماً لواسطة عقده صاحب اللواء والمقام ، وأستمد من فيض مبدع العالم أن يوقفنا على أسرار ذلك الإبداع ، ويوفقنا لمعرفة حكم تفصيله إلى أصناف وأنواع ، إذ كل قسم له فى هيئة المجموع حكمة باهرة ، يتعطل جيد الكون بدونها ، ولكل نوع شأن مع باقى الأنواع لا ينزل عن شئونها ، فما لنا نفضل بعض الموجودات على بعض ، وقد خلق الجميع صانع واحد ، بعناية يطرح فى جانبها اعتبار ناقص وزائد ، كالبيت لافضل لسمائه على أرضه ، ولا لطوله على عرضه ، ولا مزية لجداره عن بابه ، ولا لِحَجره عن ترابه ، إذ لم يتم تكون جسم البيت إلا بتلك الأجزاء ، فهى إذن فى الحقيقة

سواء ، وهنالك أنظار قاصرة ، وأبصار غير باصرة ، تعمد لمزية ما فتعتبرها مبدأ للفضل وتعول عليها ، وتنظر لسواها بالإضافة إليها ، فيحصل التفاوت ويقع ولا بدّ الخلاف ، وتتميز إذ ذاك الأواسط عن الأطراف . فهل بعد هذا يصح أن يقال إن النساء أقل فضلا من الرجال ؟ فما بالنا يا بنى الشرق تطاولنا على واجباتهن بلا طائل ، وأضعنا منازلهن وهن حافظات المنازل ، وأهملنا تربيتهن وهن مربيات أبنائنا ، وأغفلنا تعليمهن وهن معلمات ذرياتنا ، فنشأن من أول وهلة ، على جهل وغفلة ، وظهرن من مبدأ الأمر على فساد وشر ، وصادف التخريف منهن قلوباً خالية فتمكن ، وشبين على حكم الوهم فاستولى على عقولهن وتسلطَنَ ، ونبون عن الهدى فلا يستطعن الانحياز إليه ، كما قال صلى الله عليه وسلم « من شب على شيء شاب عليه » وقد أفضى بهن الأمر إلى أن صرن أمهات ، وحكم عليهن الدور الطبيعى بأن يكن مربيات ، فربين الأبناء وهم فى طور السذاجة على ما استقر عندهن ، ومكنّ الجهل فى أفكارهم وهم فى دور البساطة كما تمكن منهن ، ولا يجهل ذوو البصيرة أن مدة كفالة الأم هى المدرسة الأولى للإنسان ، وما يثبت فيها يعز تحول الأذهان عنه كما يعز تحوله عن الأذهان ، ولابد أن هذا العهد يؤثر على مايليه من الزمان ، وإن وجد فى حركات الدهر وتجارب الحوادث ما ينسيه فى بعض الأحيان ، فرسخت فى الجهل أقدام أبناء الجيل إلا الأقل ، وتلاهم الخالفون فكانوا مثلهم أو أضل ، وعلى هذا تصرمت الأيام حتى رمى جسم الشرق بالآلام وانحط شرفه إلى حضيض الهوان ، ونسى حديث بنيه وقد سارت بحديث غيرهم الركبان ، وماتعاصى الداء وأعوز الدواء ، إلا من فساد طباع الأمهات المستلزم فساد طباع الأبناء ، وما نشأ كل ذلك إلا من إهمال ذاك الصنف ركوناً إلى خسته ، وميلا مع اعتقاد ضعته وقلة أهميته ، ومن ثم لانسمع بأنثى لها رتبة فى الفضائل ، بعد الأوائل ، أو سيرة فى الآداب ، بعد الأعراب ، أو نبأ فى العلوم ، بين العموم ، وأنى يكون ذلك وما العلم إلا بالتعليم ، ومتى يتسع نطاق الفهم وما هو إلا بالتفهيم ، والعقل شجرة ينبت التعود أعوادها فتورق ، وأفق تبرز التربية أقماره فتشرق .

غير أن الزمان قد يعتريه غلط فى مسيره السرطانى
فترى فى الوجود آيات فضل تبهر العقل رغم أنف الزمان

فقد ينتج العصر الواحد واحدة لها نبأ عظيم تهتدى بمنار عقلها الخلق إلى معالم العلوم فتسابق بلاسابقة تعليم ، وقد سمعنا بمن سارت عنهن الرواة فى العصور الأولى ، ورأينا من مآثرهن شاهداً عدلا بأن لهن اليد الطولى ، كعلية بنت المهدى وولادة وحمدونة الأندلسية ، وأم البنين وعائشة الباعونية ، وقبلهن الخنساء وليلى الأخيلية ، وغيرهن من مشهورات الإسلام والجاهلية ، إلا أنى أقول وقول الإنصاف أولى أن يستمع ، والحق أحق أن يتبع : إن من تقدم من النساء أقل فضلا ممن يظهرن فى مثل هذا الزمان ، فإن وجودهن بين أحياء العرب أو قربهن من عصورهم ساعدهن على قوة الملكة وانطلاق لسان البيان ، وكان استعمال فصيح اللغة العربية مألوفاً عند الجمهور ، ونظم الشعر إذ ذاك يعد من محاسن الأمور ، فأما الآن وقد ضرب الجهل بجرانه ، وقوض من العلم أعالى بنيانه ، وطمست معالم اللغة العربية ، ونسيت محاسن الآداب الشرقية ، فمن تظهر بتجديد تلك المعاهد تستحق المقام الأول فى الفخر ، وتغفر بحسنات وجودها سيئات العصر ، مثل عصريتنا صاحبة هذا الديوان السيدة عائشة هانم كريمة إسماعيل باشا تيمور سقى الله ثراه صيب الرضوان ، فكم لها من لآلئ معانٍ منشورة ، وأيادٍ على دولة البيان مشكورة ، وتآليف تسحر ببلاغتها النهى ، وعظات ما سمعها غوىّ إلا انتهى ، ومنثورات تستخف محاسنها بالنجوم ، وقصائد تعبث أبياتها باللؤلؤ المنظوم . وقد جذبنى ولوعى بالأدب ، وشغفى بمحاسن لغة العرب ، إلى مزاحمة أرباب الإنشاء ، ومشاركة ذوى التقريظ والثناء ، فإنه لاحرج على من يعترف بالفضل لذويه ، ويشهد بالتبريز لبنيه ، والاعتراف بالواقع حق توجبه الذمة ، ويقرره علو الهمة ، ولعمر الحق إن هذا الديوان يُعَدُّ من لطائف هذا الزمان ، فليستبشر المحبون لتقديم الأوطان ، ولا يقتصروا على تعليم مجرد الصبيان ، وليهنئوا بمقدمات الفلاح ، والله المستعان فى تتميم النجاح .

الإمضاء سليم رحمى

(٤)

(ومن ذلك ماورد من حضرة ريحانة روض النجابة الناضر ، وبدر سماء الأدب الزاهى الزاهر ، تاج مفرق العرفان ، وأوحد نجباء هذا الزمان ، حضرة « محمد توفيق بك » أحد المدرسين بمدرسة المعلمين ، وهذا نص ما كتبه) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى كوّر كائم الكلم على زهور المعان[1] وصوّر كرائم الحكم فى سطور البيان . وصلاة وسلاماً على من أصغت إلى أمثاله الأسماع ، وأقبلت على مقاله الطباع . سيدنا محمد إمام الفصحاء ، وهمام البُلغاء ، المبعوث للعالمين رحمة وبُشرى ، القائل : « إنَّ من الشِّعر لحكمة وإن من البيان لَسِحْرا » ، وعلى آله وصحابته ، المُجِدّين فى إعلاء كلمته .

(وبعد) فإن أولى ما تجمَّلت به المخيلات بإتقان البراعة ، فى وصف عباراته ، واعتقلت الأنملات بمران اليراعة ، فى كشف إشاراته ، وحامت قرائح التقريظ على حياض مقاطعه ، وأقطرت فوائح التقريض فى غياض بدائعه ، وحدقت أبصار الفهماء إلى استشراف شوامس خوافيه ، واتفقت أفكار العقلاء على الاغتراف من قواميس قوافيه ، ديوان « حلية الطراز » الذى تألف فيه من الشعر الرقيق ، والمعنى الدقيق ، ما تلهى بترتيله الصوادح ، وتعنى بتمثيله القرائح صاغته من جوهر معانيها عقيلة حسنة المعانى ، فجاء ذا نظم يُغنى إيقاعه عن رنات المثالث والمثانى . على أنه لم يسبق إلى هذا الفضل من نساء العصر قبلها سابقة ، ولم يلحق بهذا الفضل منهن دونها لاحقة ، كيف لا وهى التى إذا كتبت خلت ساقطات الطل على زهور الربيع ، واجتلبت لفاظات الفضل فى سطور التوشيع ، وقد تعمقت فى أصول التحبير ، فأحكمت ، وتأنّقتْ فى فصول التحرير ، فألحمت ، ولولا درر أخرجت من حقاق فوائدها ، وغرر أدمجت فى آفاق قصائدها :

---

(١) فى المطبوع : « المعادن » .

ما كنت أدرى قبل شاعرة الحمى ... أن العقائل تضرب الأمثالا
وتصوغ فى القرطاس من شذراتها ... قُرْطاً لها وقلائداً وحجالا
حتى وقفت على عقيلة ربرب ... أضحت لسرب المحصنات مثالا
تسبى معانى شعرها مُسْتبسلاً ... ثبت الجنان يشرد الأبطالا

الإمضاء

كتبه : محمد توفيق

فائت المراجعة

صفحة

١٥٩ — البيت ٢ : « قطره الشعرى العبور » .
١٦١ — « ١ : « سعير » . والبيت ٢ : « خصيم » والبيت ٣ : « مؤيدا » .
١٦١ — القصيدة ١٢ معادة فى الصفحة ١٧٧ برقم ٤٩ .
١٦٩ — البيت ٢ : « لجاسوسه » .
١٧٠ — « ١٠ : « أو ما ترى » . والبيت ١٢ : « وانا » .
١٧١ — « ٨ ، والصفحة ١٨١ — البيت ٦ : « يارجعى » .
١٨٠ — « ٤ : « ضيائها » .
١٩٠ — « ٢ : « نواجذها » .
٢٠٥ — السطر ١٢ : « وتجردى » .
٢٤٩ — « ١٩ : « هبا » .

فهرست

صفحة

مقدمات : ... ...

تحية وتقدير — للأميرة قدرية حسين — مع الإهداء والصورة — ... ٣

كلمة اللجنة — بقلم خليل ثابت باشا ٧

عمى — بقلم محمود تيمور بك — مع الصورة — ١١

جدتى — للأستاذ أحمد كمال زاده — مع الصورة — ١٥

عائشة التيمورية — للدكتورة سهير القلماوى ٢١

الشاعرة — للدكتورة بنت الشاطىء ٢٥

دراسة فقيدة الأدب الآنسة « مى » : — مع الصورة — ... ...

البارق فى الظلام ٣٣

عصرها ٤٠

حجر نعمتها ٥٠

نشأتها ٥٦

بعد الزواج ٦٨

بيئتها الاجتماعية ٧٦

بيئتها المعنوية وحبها لاسمها ٨٦

شعرها ٩٧

نثرها ١٣٣

ديوان السيدة عائشة التيمورية (حلية الطراز) ... ...

عائشة التيمورية تقدم ديوانها — مع الصورة — ١٥١

شعر المجاملة ١٥٣

الشعر العائلى : (ا) تتحدث عن نفسها ١٨٩

(ب) فى الأبناء ٢٠٩

(حـ) فى الأقرباء ٢١٤

الشعر الغزلى ٢١٩

الشعر الأخلاقى ٢٦٥

الشعر الدينى ٢٦٩

خواتيم ... ...

خاتمة الديوان ٢٧٥

تقاريظ العلماء ٢٧٥

فائت المراجعة ٢٨٢

عرض وتحليل

للكتب التي أصدرتها لجنة نشر المؤلفات التيمورية

من نفائس ومخطوطات العلامة المحقق « أحمد تيمور باشا »

١ — ضبط الأعلام :

مرجع صحيح للأعلام التي ردت إلى أصلها خالية من التحريف اللساني أو التصحيف القلمي ، وكثيراً ما يعيا الأدباء والمشتغلون بالتاريخ الأدبي بالبلدان وسواها لمعرفة النصوص الأدبية .

٢ — الأمثال العامية :

هو وصف كامل لمعيشة الناس وأحوالهم في طرافة وفي إبداع ، يتحدث عن العامة وغير العامة بلسانهم ويصور حكمتهم ، وعليه تعليقات وافية بقلم الفقيد العظيم المغفور له العلامة « أحمد تيمور باشا» .

٣ — الكنايات العامية :

جزء متمم للأمثال العامية ، معجم شامل لكنايات العامة ودوراتهم في العبارة ، ولفقههم المعنى مع اللفظ ، علاوة على الدقة .

٤ — لعب العرب :

ثمرة من ثمرات مطالعات « تيمور باشا » الكبيرة الفنية ، ودراسة وافية لشتى الألعاب عند العرب الأولين .

٥ — البرقيات للرسالة والمقالة :

هي نثر مضغوط ضغط الشعر ، محبوك حبكته ، قليل الألفاظ ، غزير المعنى . وهو البلاغة التي تغني في إيجازها عن تفصيلها .

٦ — أوهام شعراء العرب في المعاني :

من الطرائف العلمية النفيسة ، والمراجع الوافية الدقيقة ، لا يستغني عنها كاتب أو أديب .

٧ — رسالة الرتب والألقاب :

عن ألقاب رجال الجيش وسائر الهيئات العلمية وأرباب القلم منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق إلى الآن متوجة بصورة جلالة « الفاروق » ومهداة إلى (القائد الأعلى للجيش) .

٨ — الآثار النبوية :

وهى البحوث التاريخية النفيسة التى اختتم بها حياته الطيبة المغفور له العلامة « أحمد تيمور باشا » .

٩ — شفاء الروح :

بقلم الكاتب الكبير أمير القصة الأستاذ « محمود تيمور بك » عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، يتضمن ألواناً شتى من الرسائل الأدبية النفيسة .

* * *

وهذه المؤلفات مطبوعة طبعاً متقنا على ورق صقيل ، وتطلب من الأستاذ « أحمد ربيع المصرى » سكرتير اللجنة العام بدارها بميدان البدولى بجوار متحف فؤاد الأول الصحى عابدين مصر تليفون ٧٧٧٩٣ ومن جميع المكتبات الشهيرة فى مصر وسائر الأقطار العربية والشرقية .

كتب جديدة تحت الطبع

من نفائس ومخطوطات العلامة المحقق المغفور له « أحمد تيمور باشا »

التذكرة التيمورية — تصدر فى مجلدين :

خلاصة دقيقة وافية لأهم حوادث التاريخ وشئون المجتمع وأصناف الناس والأمم والطوائف والفرق والبلدان والبحار والأنهار والأماكن كالمساجد والمدارس وغيرها والمسائل العلمية والأدبية من العلوم المتعددة .

معجم الألفاظ العامية :

تحقيق لغوى علمى دقيق الأصول الكلمات الجارية فى الاستعمال العامى الشائع وما يقابلها من الصحيح . يصدر فى أجزاء .

أحدث مؤلفات

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك

عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

مجموعات قصص

كل عام وأنتم بخير

إحسان الله

خلف اللثام

شفاء غليظة

بنت الشيطان

مكتوب على الجبين

فرعون الصغير

قال الراوى

شباب وغانيات

قصص تمثيلية

ابن جلا

فداء

اليوم خمر

حواء الخالدة

الخبأ رقم ١٣

سهاد

المنقذة

عوالى

قنابل

أبو شوشة والموكب

قصص مطولة

كليوباترة فى خان الخليلى

سلوى فى مهب الريح

نداء المجهول

صور وخواطر

شفاء الروح

ملامح وغضون

أبو الهول يطير

عطر ودخان

فن القصص

ضبط الكتابة العربية

الإسلام اليوم وغدا

من ذخائر المصطفى جميل حبر

بلا دت ١٩٥٢ ٦٤ صفحة

حريق في الكتب ١٩٤٠ - ١٩٤١

المساواة ١٠٧

محفوظ لك ٤٦/١٢

الكلمة لك ٤٥/١١ ٤٦/٤

الدرس الأول ٥١/١

دار الكتاب العربي

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY